د. حسن احجيج

د. جمـال فـزة

البحث الكيفي في العلوم الاجتماعية

نظريات وتطبيقات





د. جمال فزة

د. حسن احجيج

البحث الكيفي في العلوم الاجتماعية
نظريات وتطبيقات

عنـوان الكتـاب
البحث الكيفي في العلوم الاجتماعية
نظريات وتطبيقات

تأليـف
د. حسن احجيج - د.جمال فزة

الطبعة الأولى
2019

التصميـم و التصفيـف
نجمي محمد أمين - نجمي المهدي

الناشـر









الـمحتـويـــات











الجداول والأشكال

لائحة الجداول




لائحة الأشكال





تقديم

تتكون الحياة الاجتماعية من عدد لا حصر له من التجارب المعيشة، التي تثير تساؤل الأفراد وتولد لديهم رغبة في فهم بيئتهم الاجتماعية. فإذا ما شعر فرد ما أو مجموعة من الأفراد، على إثر لقاء عمومي مثلا، بغضب شديد، فإن ذلك سوف يدفعه -أو يدفعهم- بعدئذ إلى مساءلة ما حدث، وتحليله بغية فهم كيف حدثت الأشياء، ولماذا حدثت على ذلك النحو.

يمكن أن نعتبر الناس جميعا باحثين مبتدئين يؤولون عالمهم الاجتماعي ويحملونه على معنى معين، بل ويستشرفون آفاقه القريبة والبعيدة. إن هذا البحث السوسيولوجي الأولي الذي ينجزه الناس العاديون يشمل عدداً لا يحصى من المواضيع: يمكن للبعض أن يتأملوا علاقاتهم الخاصة (لماذا لا تجيب صديقتي على مكالماتي؟)، بينما يمكن لآخرين أن ينشغلوا بمسائل العدالة الاجتماعية (كيف يمكن لنا القضاء على العنف في العالم؟)، ويمكن لآخرين أن يهتموا بالمسائل الشخصية والقضايا العامة في آن واحد.

إن جميع أفراد المجتمع منشغلون بفهم التجارب اليومية وتفسيرها.والبحث العلمي بدوره يبدأ بالفضول الذي يتملك الباحث باعتباره فرداً اجتماعياً إزاء العالم. فنحن نفترض مثلا أنك تقرأ هذا الكتاب لأنك وجدت فيه شيئاً مثيراً لاهتمامك وتريد فهمه بشكل أفضل. ويمكن أن تكون لديك مثلا أسئلة تتعلق بالشيخوخة أو الشباب أو الطلاق أو الهجرة، لذلك تجد نفسك تطالع كتابا في أحد هذه المواضيع. هذا الفضول الاجتماعي هو أساس البحث السوسيولوجي والأنثروبولوجي؛ أي إعادة فحص العالم الاجتماعي بغية التوصل إلى فهم أو





تفسير علمي ومنهجي للسلوكات والأحداث الاجتماعية. نحن نعلم جميعا أن معظم أفراد المجتمع ليس لديهم استعداد لاستثمار الوقت أو الجهد في دراسة محيطهم الاجتماعي دراسة علمية. لكن لحسن الحظ يضطلع علماء الاجتماع والأنثروبولوجيون، بحكم مهنتهم، بمهمة الدراسة المنهجية لأبعاد السلوك البشري في علاقته بالسياقات الاجتماعية[1].

ما هي المعايير التي تحرك الأسئلة التي يطرحها الباحث، وأين ينبغي له البحث عن إجابات لها؟ إنها تتوقف على التوجه الفكري لطارحها؛ إذ يمكن لمُنجِّم مثلا أن يعيد عدمَ ردِّي على مكالمات صديقتي إلى تغيير في دورة القمر، بحيث سيكون انتظام الأبراج بالنسبة له مصدراً مهماً للمعلومات. لكن المعروف أن علم التنجيم لا يستجيب لمستلزمات البحث العلمي المتفق عليها بين أفراد الجماعة العلمية. ذلك أن تفسير المنجم يفتقد للتماسك المنطقي المطلوب بين الأسباب والنتائج. إن فكرة أن حركات الكواكب تسبب السلوكات البشرية تترك عدة أسئلة منطقية بدون جواب. وبالمقابل، يمكن لتخصص أكثر علمية، كعلم الاجتماع مثلا، أن يفسر سلوكي الفض بعجزي عن التواصلِ اللائقِ اجتماعياً مع الآخرين الناتج عن تنشئتي الاجتماعية.

يستخدم الباحثون في العلوم الاجتماعية ضربين من المنهج: المنهج الكمي والمنهج الكيفي. وقد اكتسب المنهج الكمي حظوة كبيرة في أوساط ممارسي العلم الاجتماعي لمدة عقود وما يزال. ويعكس هذا الاهتمام تصور معظم هؤلاء الممارسين والجمهور الواسع للعلم كممارسة مرتبطة بالأرقام والدقة. وليس هدفنا في هذا الكتاب هو الدفاع عن البحث الكيفي على حساب البحث الكمي، خصوصاً إذا وافقنا دابس[2] على قوله «إن الكيفي والكمي غير متمايزين». ذلك أن التمييز الذي

1 – Marvasti, A.B. ,Qualitative Research in Sociology, Thousand Oaks, CA.: Sage Publications, 2004, p. 1.

2 – Dabbs, J. M, Jr., «Making Things Visible», In J. Van Maanen (ed), Varieties of Qualitative Research, Beverly Hills, CA: Sage Publications, 1982.



نقيمه في هذا الكتاب بين البحث الكمي والبحث الكيفي تمييز بيداغوجي الهدف منه هو بيان خصائص كل واحد منهما، ومن ثمة تزويد الباحث بالمعايير العلمية الدقيقة التي تمكنه من اختيار النظرية والمنهج الملائمين، واستعمالهما بشكل يضمن مردودية علمية مرضية. وفي هذا الصدد، تشير إليزابيث برادلي وزميلتاها إلى أن معظم المناهج تتضمن المعالجتين الكمية والكيفية: ذلك أن تحليلَ المعطيات الكيفية يمكن أن يشمل في آن واحد الترميز الكيفي (حسب الفئات مثلا) للمعطيات الخام وتكميمها وفق تكراراتها[3]. كما يمكن استعمال تقنية العينة العمدية في البحث الكيفي والبحث الكمي تبعاً لإشكالية البحث وأهدافه. إن المنهجين الكمي والكيفي يقيمان بينهما علاقات معقدة تتوقف طبيعتها على «استراتيجيا البحث»، التي تتضمن أسئلة الدراسة وإشكالياتها وأهدافها.

إن ما نرمي إليه هنا بالأحرى هو محاولة إبراز الفائدة والفهم العميق للعالم الاجتماعي اللذين يمكن تحقيقهما بفضل الإجراءات المنهجية الكيفية. وهو هدف يعود إلى تجربتنا العمليةفي التدريس والإشراف على بحوث التخرج، وهي التجربة التي كشفت عن حاجة طلاب العلوم الاجتماعية والباحثين إلى تحديد المناهج الملائمة لموضوع دراستهم. فقد لاحظنا أن الطلبة والباحثين المبتدئين يقررون استعمال منهج بحثي بطريقة عشوائية، دون أن يأخذوا بعين الاعتبار «استراتيجيا البحث». والحال أن منهج البحث، أي طرائق جمع المعطيات وتحليلها، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهذه الإستراتيجيات التي لا تعني مجرد اختيار تيمة معينة (المرأة، الطفولة، الأسرة، المقاولة، الأشخاص في وضعية صعبة، الخ)، **وإنما تعني بناءَ موضوعِ بحثٍ بما هو إشكاليةٌ علميةٌ**، أي سؤال مندرج في نقاش علمي ومرتبط بميدان سوف نستخرج منه مادة تجريبية. ذلك أن النتائج التي يتوصل

3 – Bradley, E. H., Curry, L. A. and Devers, K. J., «Qualitative Data Analysis for Health Services Research: Developing Taxonomy, Themes, and Theory»,Health Services Research, 42 (4), 2007: 1758–1772.





إليها الباحث تتوقف على المعطيات التي يتم الحصول عليها باختيارات منهجية محددة تحيل بدورها، في الآن ذاته، إلى إطار نظري وإكراهات امبيريقية.

وكما أسلفنا القول أعلاه، ليس هدفنا هنا هو المرافعة لصالح مناهج البحث الكيفي على حساب طرائق الدراسة الكمية، وإنما هو تصحيح كثير من الأخطاء النظرية والمنهجية التي يسقط فيها العديد من الباحثين الذين يقررون إخضاع مواضيعهم للمقاربة الكيفية ومساعدتهم على اتخاذ «القرارات المنهجية الملائمة».

تكمن أهمية هذا الكتاب حول المناهج الكيفية في البحوث الاجتماعية في تقييمه الواضح لما تتوفر عليه هذه المناهج من إمكانات كشفية؛ لذلك سنحاول بيان طبيعة المعطيات التي توفرها، ثم تسليط الضوء على الأسئلة التي تستطيع الإجابة عنها وتلك التي لا تجيب عنها بطريقة مرضية. كما يهدف الكتاب إلى تقديم نظرة عن مختلف كيفيات استعمال المناهج الكيفية، أي توضيح القواعد التي تضبط عمليتيْ جمع المعطيات الكيفية وتحليلها.





وعلى المستوى العملي، نهدف بهذا الكتاب تعليم طلاب العلوم الاجتماعية والباحثين كيف ينجزون بحوثاً كيفية. حيث سنشرح طرائق البحث الكيفي، بدءاً بمناقشة المفترضات الإبستيمولوجية للبحث الكيفي وانتهاء بتحليل المعطيات واستخراج النتائج، مروراً بتصميم الدراسة الكيفية وجمع المعطيات. هكذاسنزود الباحث في مجال السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا بفهم أساسي للبحث الكيفي؛ وسنعرض للتدابير الأولية التي يجب على الطالب أو الباحث اتخاذها أثناء تفكيره في المناهج الملائمة لمقاربة موضوع دراسته؛ أي الإجراءات المنهجية والنظرية التي تمكنه من تقدير ملاءمة البحث الكيفي لحقل بحثه؛ وسنسلط الضوء على أساليب جمع المعطيات الكيفية وتحديد المفترضات الأساسية لكل طريقة على حدة، مثلما سنوضح كيفيات تحليل المعطيات واستعمالها من أجل الخروج بخلاصات مضبوطة.





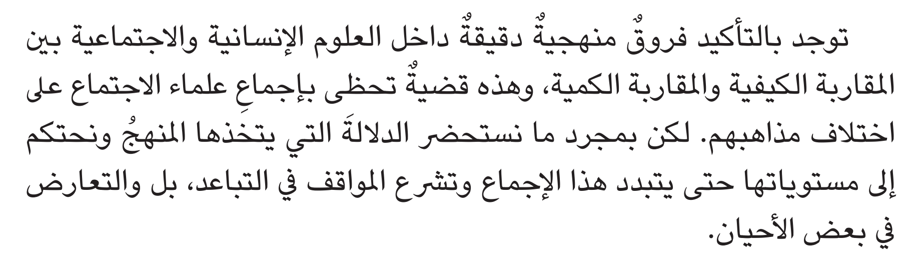
الفصل الأول

البحث الكيفي : مقدمات فلسفية



I. في القيمة الأساسية للتحليل الكيفي وعلاقته بمقدمات فلسفية
II. الفهم بدل التفسير





توجد بالتأكيد فروقٌ منهجيةٌ دقيقةٌ داخل العلوم الإنسانية والاجتماعية بين المقاربة الكيفية والمقاربة الكمية، وهذه قضيةٌ تحظى بإجماعِ علماء الاجتماع على اختلاف مذاهبهم. لكن بمجرد ما نستحضر الدلالةَ التي يتخذها المنهجُ ونحتكم إلى مستوياتها حتى يتبدد هذا الإجماع وتشرع المواقف في التباعد، بل والتعارض في بعض الأحيان.




إن التمييزَ في مستويات الدلالة التي يتخذها المنهج، إذن، هو ما يفسّر تباينَ الآراء إزاء «حقيقة» التقابل الموجود بين المنهجية الكيفية والمنهجية الكمية؛ فإذا حصرنا دلالةَ المنهجِ في مجموع التقنيات وأدوات التحليل التي يوظفها الباحثون في دراساتهم الميدانية، سوف يتيسّر لنا، بدون شك، أن نميز في تقليدِ البحثِ الميدانيِّ بين منهجين مختلفين: أحدهما كمي والآخر كيفي. لكن، بقدر ما يؤول مفهومُ المنهجِ إلى دلالته الأكثرِ عموميةً، بقدر ما يخبو التعارضُ بين المقاربة الكيفية والمقاربة الكمية تدريجياً حتى يختفي في نظر البعض نهائياً مع الدلالة التي تفيد أن المنهجَ هو مجموعُ العمليات الأساسية التي يقوم على أساسها نشاطُ الحسِّ السليم. ويؤكد كلٌّ من بريس وهبرمان وفينش ووبرغيس وغرفين وآخرين هذه المعادلة؛ حيث يعترضون بوضوح على الآراء والمواقف التي تضع الميتودولوجيا الكمية والميتودولوجيا الكيفية على طرفيْ نقيضٍ بالرغم من أنهم لا يشكّون البتة في وجودِ نوعيْن من التقنيات وأدوات العمل: أحدهما كمّي والآخر كيفي. فهم



يعتبرون في نهاية المطاف أن الأسئلةَ المنهجية عامّةً تنطبق على الأبحاث التي تستعمل التقنيات الكيفية والأبحاث التي تستعمل التقنيات الكمية على السواء.[1]

وتجدر الإشارة إلى أن الفكرَ العلميَّ في العلوم الإنسانية حالياً يتخذ صبغةً كيفيةً أكثرَ من أي وقت مضى. ولتفسير هذا الميل يتعين علينا تجاوزُ الآراء التوفيقية التي لا تفتأ تشيد بأفضال التداخل بين الاختصاصات والعلوم (l'interdisciplinarité)، والعملُ قدرَ الإمكانِ على إبرازِ أصيلِ المقاربة الكيفية، إن على مستوى تقنيات العمل أو على مستوى المنهج في دلالته العامة. فهل ما يميز المقاربة الكيفية عن المقاربة الكمية لا يعدو مستوى طبيعةِ التقنيات وأدوات العمل، كما سبق وأشرنا إلى ذلك، أم أن الاختلافَ فيما بينهما يطال الأسسَ والمبادئَ التي تقوم عليها كلُّ مقاربةٍ على حدة؟ بصيغة أخرى، إلى أيّ حدٍّ، وبأيِّ معنى يمكننا الحديثُ في العلوم الإنسانية والاجتماعية عن براديغمٍ كيفي مختلف عن البراديغمِ الكمي ومتميزٍ عنه؟[2]

I. في القيمة الأساسية للتحليل الكيفي وعلاقته بمقدمات فلسفية

عادةً ما نحصر الاختلافَ بين المنهج الكيفي والمنهج الكمي في طبيعة الموضوع والطريقة الأنسب لمعالجته. والمقصودُ بطبيعة الموضوع أن الباحثَ يختار بين أحدِ أمرين: إما أن يسعى إلى إنجازِ دراسةٍ عامةٍ وممتدةٍ وإما أن يسعى إلى إنجازِ دراسةٍ خاصةٍ وعميقةٍ. فأما بالنسبة للمسعى الأول، فإن الأبحاثَ الكميةَ والمسوحاتِ الإحصائيةَ هي أنسبُ طريقةٍ لتحقيقه. وأما بالنسبة للمسعى

1 – Pourtois, Desmet et Lahaye, 1996, extrait du Dictionnaire des méthodes qualitatives en sciences humaines, sous la direction d'Alex Mucchielli, Armand Colin, 2009, p.74

هذه على التوالي الأسماء بالأحرف اللاتينية للأعلام الواردة أسماؤهم في الفقرة أعلاه:

Pirès, Huberman, Finch, Burgess et Griffin

2 – البراديغم نموذج مرشد للفكر والعمل. إنه جملة من القضايا الأولية المسلم بها. يتكون من قوانين نظرية وتقنيات عامة للعمل مصادق عليها من قبل أعضاء مجموعة علمية ما؛ وذلك بهدف تحديد نهائي ومسبق للمعايير التي يتعين على الأبحاث أن تلتزم بها.





الثاني، فإن الأبحاثَ الكيفيةَ تبدو بالمقابل هي الأنسب. وعندما يضطر الباحث إلى الاختيار بين الأمرين يجد نفسَه أمام معضلةِ غولدشتاين: «ما نربحه على مستوى الامتداد نخسره على مستوى العمق والعكس بالعكس»
(ce qu'on perd en extension on le gagne en profondeur et vis versa)

وفي الأخير، ننتهي إلى وضعِ نتائجِ الدراسات الكمية في خانةِ الدراسات النظرية العامة والكليانية (Holistes) بينما نضع نتائجَ الدراسات الكيفية في قائمة الدراسات الإمبيريقية والخاصة.

ومن الآراء المشهورة كذلك في باب التمييز بين المنهج الكيفي والمنهج الكمي، ما يفيد أن المقاربةَ الكيفيةَ إثراءٌ للمقاربة الكمية، والفرق بينهما لا يعدو ما تتيحه المقاربةُ الكيفيةُ من دُنُوٍّ من تفاصيلِ الحدث الاجتماعي، الذي يتسبب استعمالُ المنهجِ الكمي في اختزالِ ثرائه ومحوِ عناصر تفرّده. وعليه، فإن المقاربتين الكمية والكيفية متكاملتان، ويمكن أن تتواجدا جنبا إلى جنب أثناء إنجاز نفس الدراسة.




وفي نظر البعض الآخر، فإن اللجوءَ إلى المنهج الكيفي لا يجوز إلا بعدما نكون قد استنفدنا المخزونَ التفسيريَّ للمنهج الكمي. وهذا يعني أن العلم لا يلجأ إلى التحليل الكيفي إلا مرغماً؛ على اعتبار أن الرياضيات هي النموذج الأنصع للعلم، وكلُّ تأويلٍ كيفيٍّ للظواهر هو تأويلٌ مؤقتٌ ومُعرَّضٌ للإبطال حالما نجد لهذه الظواهر ما يفسرها داخل حقلِ المعقول الرياضي. وباختصار، يعتبر هذا الرأي أن التحليلَ الكيفيَّ وجهٌ من أوجه الإخفاق المؤقت للتنميط الرياضي (standardisation mathématique).

وتجدر الإشارةُ إلى أن هذه الآراءَ لا تجانب الصوابَ كليّةً، لكنها على جانبٍ من القصور قد يقودنا إلى الاستخفاف بالمقاربة الكيفية، واعتبارها آلةً من الدرجة الثانية يلجأ إليها باحثون من ذوي التكوين الأدبي، فيدرؤون بها عوزَهم على مستوى الحس العلمي عموما والرياضي على وجه التحديد؛ لذلك وحتى نقطع الطريقَ على مثل هذه التبريرات المغرضة، نقترح أن نعرض لبعض الشهادات





من أعلامٍ ذاع صيتُهم في استعمال المنهج الكيفي، بل ومنهم من أسس له وقعّد تقعيداً.

ونبدأ الاستشهادَ بعبارةٍ انتقاها كلٌّ من أليكس ميكيلي وبيير بايي بعناية من قاموس الأونطولوجيا، ووضعاها عنواناً للفصل الأول من كتابهما **التحليل الكيفي في العلوم الإنسانية والاجتماعية**[3]، وهذه العبارة هي: «الوجود الأساسي للتحليل الكيفي» (L'être essentiel de l'analyse qualitative)، وتفيد أن هناك ارتباطاً طبيعياً وعلاقةً أساسيةً غيرَ قابلةٍ للاختزال بين طبيعة الذهن الإنساني والتحليل الكيفي. وللذين نالوا حظَّهم من التعوّدِ على مفردات الفلسفة الأولى نقول: هناك علاقةٌ أونطولوجيةٌ بين التحليل الكيفي وبنيةِ الفكر الإنساني. ولم يَفُتْ أليكس ميكيلي وبيير بايي أن استهلا الفصلَ الأولَ بقولةٍ بليغةٍ لهايدغر مفادُها أن «معرفةً حدسيةً وظَنِّيّةً بما هو أساسي تظل على الدوام أهمَّ من معرفةٍ عن طريق إحصاءِ ما ليس بأساسيٍّ مهما بدا عليها من يقينٍ ومهما بَعَثَتْ في النفوس من اطمئنان»[4].

يبدو أن الشهادةَ تومئ إلى شيءٍ عميقٍ جداً. فهي تنطلق من اعتبارِ المقاربة الكيفية أساسيةً لأن الأساسَ الذي تنحل إليه الكينونةُ كيفيٌّ. وهذا من شأنه أن يحدث انقلاباً في الرؤية؛ بحيث يضيع ذلك الامتيازُ الذي كانت تحظى به مبادئُ الرياضيات باعتبارها مطابقةً لكياناتٍ أونطولوجيةٍ (أفلاطون وديكارت). فلعل ازدهارَ الميتودولوجيا الكيفية كان لا بد أن يمر عن طريق انقلابٍ فلسفيٍّ على المعقولية الرياضية؛ بحيث تَكُفُّ عن احتكارِ مشروعيةِ تمثيلِ العقلانية الحقة (la rationalité authentique). وإذا كان هذا يعني شيئاً فإنما يعني تغييراً للإطار الفلسفي العام؛ مما يسمح لنا بالحديث عن المنهج الكيفي بمفهوم البراديغم.

---

3 – Mucchielli A. et Paillé, P.,L'analyse qualitative en sciences humaines et sociales, Paris, Armand colin, 2005.

4 – Heidegger, Concepts fondamentaux, extrais de: Mucchielli et Paillé, op., cit., p.7





أما الشهادة الثانية، فتدور حول مدرسة بالو ألتو الأمريكية، التي اشتهرت، إلى جانب الجيل الأول من مدرسة شيكاغو، بأبحاثها ودراساتها الكيفية. ورُبَّ غافلٍ يمكن أن يبحث عن سرِّ نجاحِ هذه المدرسة في توجُّهِهَا الإمبيريقي الصرف، واعتمادِها على الميدان بالدرجة الأولى وما ترومه من تفاصيل الأحداث ودقتها. وليس في هذا القولِ خطأٌ كبيرٌ اللهم أنه يغفل ما هو أساسي وينكب على إبراز الجوانب التي تترتب عنه. إن ما يميز مدرسة بالو ألتو بالأحرى موصولٌ بموقفها الفلسفي من الوجود والطريقة التي ينبغي أن نتعامل بها معه. وقد عبر شيلفن (Chelfen) عن ذلك بجلاء في حوارٍ أُجرِيَ معه على خلفيةِ ما كان ينتشر حينئذ من أفكارٍ جديدةٍ لدى مجموعة من العلماء يعتبر شيلفن واحدا منهم[5]؛ حيث صرح بما يلي: «إذا كان هناك من شيءٍ تعلمته عن راي بوردويستل (Birdwhistell) وكان ثوريّاً بحق، فهو طريقتُه المختلفةُ في تفكير الكيفية التي ينبغي أن نفهم بها العالم. وتجدر الإشارة إلى أن غريغوري باتسون قد عرف أكثرَ من غيره بهذه الطريقة في التفكير، مع العلم أنه قد تعلم أموراً كثيرةً عن بيردفيشتل وهذا ما يجهله الكثيرون. لقد كان راي وغريغوري مقربيْن من بعضهما البعض وكان يجمعهما الوقتُ مراراً، فخلال تلك السنوات كان كلُّ واحدٍ منا يتعلم من الآخر حتى انتهى بنا الأمر جميعاً إلى تشكيل حركةٍ غير معلنة».[6]





وتفيد عبارة «الحركة غير المعلنة» أو ما بات يعرف من بعد «بالكوليج الخفي» (Le college invisible) أن وفاقاً فكرياً كان يؤلف بين أعضاء الحركة دون أن يجمع بينهم أيُّ شكلٍ من أشكال التنظيم الرسمي والمعلن، اللهم بعض المراسلات من هنا وهناك وبعض اللقاءات التي كانت تتمّ على هامش الندوات العلمية. ويتأسس هذا الوفاقُ على فكرةٍ أساسيةٍ مفادُها أن منطقَ العلوم الإنسانية

5 - يعتبر شيلفن (Chelfen)، إلى جانب كل من بيردفيشتل (Birdwhistell) وباتسون (Bateson)، عضوا من المجموعة الأولى التي أسست مدرسة بالو ألتو.

6 - Bateson, G., Birdwhistell, R. et autres, la nouvelle communication, Textes recueillis et présentés par Yves Winkin, Paris, Ed. du Seuil, 1981, p.21



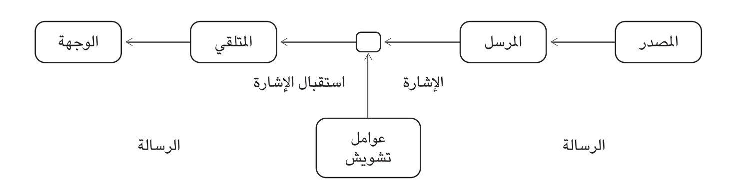




لا يحتمل استعمالَ نموذج شانون في التواصل*، ما يعني ضرورةَ البحثِ عن نموذجٍ للتواصل خاصٍّ بالعلوم الإنسانية، وتركِ نموذج شانون لمهندسي الإعلام والاتصال، الذين تمّ صوغُ هذا النموذج في الأصل لفائدتهم.

وينطوي نموذجُ شانون في التواصل على موقفٍ فلسفيٍّ من الإنسان يفيد أن هذا الأخيرَ هو بمثابة روحٍ تستوطن جسداً، وأن الروحَ بإمكانها أن تبعث بأفكارٍ مشفّرةٍ عن طريق الجسد. وهذا الموقف، برأي رواد مدرسة بالو ألتو، هو السببُ العميقُ في المآزق التي تقع فيها العلوم الإنسانية مسترشدةً بنموذج شانون في دراستها للتواصل بين الأشخاص. ولكي نتجاوز هذه المآزقَ «يتعين علينا الانطلاقُ من المنظورِ «الساذج» للمؤرخ الطبيعي؛ أي منظورٍ من يقتصر على ملاحظة السلوك الطبيعي للإنسان. فالكائن الإنساني يتحرك ويصدر أصواتاً ويتناول الغذاءَ على اختلاف ألوانه، وهو يعيش في جماعاتٍ صغرى من الشبان والمسنين ومن الرجال والنساء الخ. ويمكننا أن نسترسل في هذا الوصف الطبيعي من دون توقّف. تماماً كما يمكننا أن نضع قوائمَ لآلافِ السلوكاتِ القابلة للملاحظة،وأن نصنّفها في مقولاتٍ وفئاتٍ وأنواع انطلاقاً من عدد لا حصر له من التقابلات. وفي نظر أعضاء «الكوليج الخفي»، لا يمكننا الحديثُ عن بدايةٍ للبحث في التواصل بين الناس إلا انطلاقاً من اللحظة التي نطرح فيها السؤال الآتي: من بين آلاف السلوكات الجسدية، ما هي تلك التي تعمل الثقافةُ على انتقائها من أجل تشكيلِ مجموعاتٍ دالّةٍ؟».[7]

* توصل كلود شانون إلى صياغة نظرية رياضية في التواصل تقوم أساساً على فكرة «نقل المعلومة» (la transmission de l'information). وكان شانون قد اقترح خطاطةً لما أسماه «النظام العام للتواصل» (le système général de la communication) وقدمها سنة 1949 على الشكل الآتي:



7 -Bateson, Birdwhistell et autres, la nouvelle communication, op., cit., pp. 22-23





يتبين مما سبق ذكرُه أن الطابعَ الكيفيَّ الذي ميز مدرسةَ بالو ألتو له صلةٌ بنزعتها الطبيعية وموقفها المعارض للنموذج الإرادي والواعي للتواصل. مما يعني أن جميع السلوكات سواء كانت واعيةً أو غيرَ واعيةٍ هي سلوكاتٌ تواصلية. وعلاوة على ذلك، يقيم روادُ مدرسة بالو ألتو مماثلةً بين بنية التواصل والأركسترا عوضَ المماثلة الكلاسيكية التي كانت تستحضر نموذجَ التلغراف. وهذا يعني أنه من غير الممكن تحديدُ فيما إذا كان الفردُ الذي يشارك في عملية التواصل مرسِلا أم مستقبِلا، وتبقى الغايةُ القصوى من البحث هي الكشفُ عن كلية التبادلات التي يتخذ السلوكُ في كنفها دلالتَه النهائيةَ. وإذا كان هذا يعني شيئاً، فإنما يعني تغييراً للاستراتيجية العامة للبحث في التواصل.

قد لا يستسيغ البعضُ ما نذهب إليه من ربطٍ بين مستلزمات البحث في ميدانٍ خاصٍّ من جهة، وخلفياتٍ فلسفيةٍ ومعرفيةٍ عامّةٍ من جهة أخرى؛ إذ إن مدرسةً بالو ألتو قد عَنِيَتْ بدراسة ظاهرة مخصوصة (particulière) هي التواصل، ومن البديهي أن ما تطرحه من جديدٍ على مستوى المناهج سوف تكون له علاقةٌ وطيدةٌ مع طبيعة هذا الموضوع وما يطرحه من إشكالاتٍ خاصّةٍ.

ولا يسعنا، على سبيل الرد، إلا أن نذكّر بموقف برنارد موتيز (B. Mottez) الذي، في معرض حديثه عن تاريخ السوسيولوجيا الصناعية، ينبه علينا بألا نغفل مسألةً غايةً في الأهمية مفادُها أن «السوسيولوجيا، حتى في طابعها النظري الأكثرِ عموميةً، لم تحرز تطوراً إلا بفضل تحليلِ وقائعَ اجتماعيةٍ خاصّةٍ ومتفردةٍ».[8]

هذا ويؤكد جلُّ السوسيولوجيين المعاصرين على أهمية مبحث التواصل في تحقيق منعطفٍ نظريٍّ وإبيستيمولوجيٍّ في تاريخ العلوم الإنسانية عموماً. بحيث أصبح البحثُ السوسيولوجي يتخلص شيئاً فشيئاً من مسلمات الفلسفة الوضعية التي تتمحور على مستوى المنهج حول فكرةِ «الموضعة» (l'objectivation) في

8 – Mottez, B., La sociologie industrielle, Pris, PUF, 1975, p.5





اتجاه تبني مبادئِ ومسلّماتِ الفلسفة الفينومينولوجية وأساسُها على الإطلاق فِكْرَتَا «القصدية» (l'intentionnalité)* و«التذاوت» (l'intersubjectivité)•. وعليه، فإن التواصلَ ليس ظاهرةً من بين ظواهر أخرى تعنى السوسيولوجيا بمعالجتها فحسب، وإنما هي، برأي الغالبية من السوسيولوجيين المعاصرين، الظاهرةَ الأوليةَ والأساسيةَ التي ينحلُّ إليها الاجتماعُ البشري؛ وذلك خلافاً لما ذهب إليه دوركايم من ضرورة اختزال الاجتماع الإنساني إلى وحداتٍ تُعتبَرِ بمثابة أشياء. وفي هذا يقول ميشيل دو كوستر (Michel De Coster): «إن أصغرَ ما يمكن أن ينحل إليه فعلُ الملاحظة هو الفردُ نفسُه وقد وَجَّهَ فعلَه بدلالةِ فعلِ الغير؛ أي الفعل عندما يتحقق داخل علاقة تجمع بين شخصين...وهذا ما نطلق عليه بمستوى التحليل البي-شخصي أو الميكرو-سوسيولوجي».[9]

وبدورها تميزت الدراساتُ والأبحاثُ التي أنجزت في إطار مدرسة شيكاغو، لاسيما إنجازات الجيل الأول، بطابعها الكيفي؛ حيث تمّ القيامُ بتحقيقاتٍ وأبحاثٍ

* يعتبر فرانز برينتانو أول من استعمل مفهوم القصدية. ويعني بها تلك القدرة الخاصة بالنوع الإنساني على بناء «تمثلات». ولعل أهم شيء بالنسبة لبرنتانو هو أن هذه التمثلات ليست صوراً موضوعية، فهي تحمل إسهام الذات التي تشيدها انطلاقا من رغباتها وإرادتها وعلاقتها بالعالم. ومن ثمة فإن التمثل يكون قصدياً بقدر ما يعبر عن المعنى الذي يحمله الفرد على الأشياء. وبالموجز المفيد، يعلن برنتانو أن «الوعيَ هو دوماً وعيٌ بشيء ما». لكن هوسرل الذي كان منشغلا بالبحث عن القاعدة التي تفسر كونيةَ المبادئ والمقولات الرياضية، سوف يعمل على تخليص مفهوم القصدية من النزعة السيكولوجية التي ميزت أعمال أستاذه فرانز برنتانو وصهر هذا المفهوم مع المفاهيم الكونية التي نجدها في الرياضيات. هكذا يغادر مفهومُ القصدية مع هوسرل حقل السيكولوجيا ليعانق نظرية المعرفة؛ وذلك بغية الإجابة عن سؤال «ما الذي يميز الوعي فيجعله قادراً على بناء مقولات تتمتع بالكونية؟» إنها قصدية الوعي؛ أي خاصية الوعي التي تسمح للأشياء تلقائياً بأن تنبثق في الفكر كما هي. فالوعي لا يثبت حقيقته أولا ثم يتوجه بعد أن يفرغ من مهمته تلك إلى الأشياء، بل إن تلك العلاقة الأولية والتلقائية التي تجمعه بالأشياء هي التي تحدد ماهيته كوعي.

• قبل هايدغر وسارتر وميرلوبونتي، يمكن اعتبار هيغل مبدع فكرة «التذاوت»، فهو الذي كشف بوضوح عن التناقض الأساسي الذي يخترق فلسفةَ الذات، وبفضله أصبحت العلومُ الاجتماعية ممكنةً نظرياً؛ حيث شدد على البعد الجدلي والتفاعلي للشخص. فقد بين أن الشخص لا يتحدد كذاتٍ انطلاقاً من نشاطٍ باطنيٍّ للفكر يمثل فيه هذا الأخيرُ أمام نفسِه على نحوٍ حدسيٍّ ومباشرٍ، بل انطلاقاً من علاقةٍ جدليةٍ بين شخصين. هكذا يتبين أننا لسنا ذواتاً إلا لأننا نوجد داخل حقل تذاوتي وليس العكس.

9 - De Coster, M., Introduction à la sociologie, 3 édition, De Boeck-Wesmael, s.a., 1992, p.10







مكثفةٍ ذاتِ طبيعة إثنوغرافية وملاحظةُ الممارسات داخل سياقها. وتم توظيفُ دراسةِ الحالات والاستعانةُ بالمقابلات وحكايات الحياة وتحليل الوثائق الشخصية (رسائل خاصة وجرائد...).

لكن هل يكفي، لكي نفسر هذا الإقبالَ المكثّفَ على أدواتِ وتقنياتِ التحليل الكيفي من طرف الجيل الأول لمدرسة شيكاغو، الاقتصارُ على كشف أفضال تلك التقنيات وملاءمتها لمعالجة الظواهر الحضرية الخاصة التي شدت انتباه هذا الجيل؟ ألا يتعلق الأمر بالأحرى بمنهجية وتقنيات وأدوات تحليل تنسجم ورؤية سوسيولوجية جديدة؟ *

يبدو أن التشديدَ على عنصرِ الملاءمة بين المنهجية وطبيعة الموضوع لتبرير هذا الإقبال المكثف من طرف الجيل الأول لمدرسة شيكاغو على استعمال المناهج الكيفية ينطوي على فهم مغلوط لفكرة الملاءمة. يتصل هذا الفهم بالنقاش الدائر حول علاقة الموضوع بالمنهج في السوسيولوجيا، ويفيد أن الاختلاف بين المقاربتين الكيفية والكمية إنما يعود في الأساس إلى اختلافٍ في طبيعة الظواهر المدروسة.



إن الطابعَ الكيفيَّ الذي ميز الدراسات والبحوث التي أنجزت في إطار مدرسة شيكاغو لا يعود في نظرنا إلى طبيعة الظواهر المدروسة، بقدر ما يعود إلى اختياراتٍ منهجيةٍ أساسيةٍ تتعلق بالأصول الفلسفية الفينومينولوجية للسوسيولوجيين الأمريكيين. فلا ينبغي أن ننسى أن «ألبيون سمول (1854-1926) الذي لعب دوراً حاسماً في توطين السوسيولوجيا بمدينة شيكاغو، بل وفي أرجاء الولايات المتحدة بأسرها، قد بدأ مشوارَه العلمي دارساً لعلم اللاهوت. وقد دعت

* في توطئته لكتاب «مدرسة شيكاغو : ميلاد الإيكولوجيا الحضرية» أعرب إيف غرافميير عن الطموح الذي كان يحدوه في تقديم هذا الكتاب للقارئ الفرنسي قائلا : «لقد كنا نرغب في إثارة الانتباه إلى تقليد في البحث يدرس الظواهر الحضرية انطلاقاً من رؤية مختلفة بشكل كبير عن الرؤية التي كانت سائدة عندنا آنذاك في فرنسا». انظر:

Grafmeyer, Y. et Joseph, I., L'Ecole de Chicago: naissance de l'écologie urbaine, Paris Flammarion, 2004.





الظروفُ إلى أن يتوجه إلى برلين لإتمام دراسته. وهناك التقي بجورج زيمل (Georg Simmel) الذي حظيت أعمالُه منذ صغى سنه بمكانةٍ رفيعةٍ داخل السوسيولوجيا الألمانية، أو بالأحرى داخل السوسيولوجيا الأوروبية على وجه العموم. وفي ليبتسيغ (Leipzig) ابتداء من 1879 حتى 1881 سوف يدرس ألبيون سمول التاريخ والفلسفة والسوسيولوجيا الألمانيتين، قبل أن يعود إلى الولايات المتحدة ليناقش أطروحةَ دكتوراه في التاريخ سنة 1889 بجامعة جونس هوبكينس (Johns Hopkins) ليصير بعد ذلك أستاذاً للتاريخ بجامعة كولبي (Colby College)، حيث سوف يستمر في التدريس إلى غاية 1892. هناك بدأ في تدريس السوسيولوجيا، وبالتحديد السوسيولوجيا الألمانية. وفي سنة 1890 تمكن ألبيون سمول من نشر كتابٍ من تأليفه سوف يدأب على قراءته جميعُ طلاب السوسيولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك لمدة تربو على العشرين عاماً.

وفي عام 1921، سوف يقتبس كلٌّ من روبير بارك وإرنست بورغيس (Robert Park et Ernest Burgess) عنوانَ كتابِ ألبيون سمول من أجل إخراج كتابهما **مدخل إلى السوسيولوجيا** إلى النور، ولكن مع تغييرٍ دالٍّ لمصطلح مجتمع (Society) بمصطلح سوسيولوجيا [10] (Sociology).

لقد كان طموحُ روبير بارك هو تأسيسُ إيكولوجيا حضرية تسمح باستيعاب مجموع العلاقات التي تجمع بين سكان المدن داخل بيئتهم. وكان هذا الطموحُ النظريُّ ذو النزعة الطبيعية• الواضحة يتوافق خطوةً بخطوةٍ مع النماذج العلمية التي كانت توفرها الإيكولوجيا النباتية والحيوانية، والتي كانت تدور آنئذ في فلك النظرية الداروينية. وهذا ما يفسر الانتشارَ الكبير من داخل

10 – Coulon, A., L'école de Chicago, Paris, PUF, coll. «Que sais-je», 1992.

• تفيد النزعة الطبيعية (le naturalisme) أن المدينة نتاج للطبيعة الإنسانية؛ فهي متجذرة في العمليات الحيوية للأفراد الذين يشكلونها.





مدرسة شيكاغو لمصطلحاتٍ من قبيل التنافس والهيمنة والاجتياح والاستخلاف والصراع والتآلف الخ.

ومن بالغ الأهمية الإشارةُ إلى أن مدينة بارك تمثل حالة روحية (Etat d'esprit) أكثرَ مما تمثل واقعاً مادياً. فهي برأيه أكثرُ من طرقٍ معبَّدةٍ وشوارعَ وعماراتٍ ووسائلِ نقلٍ وتجهيزاتٍ كبرى. إنها أعرافٌ وتقاليدُ وما يرتبط بها وينتظم حولها من مواقفَ ومشاعرَ وأذواقٍ. ومن ثمة فإن ما يدرسه بارك هو بالأحرى روح المدينة وليس المدينة. وفي هذا تتوافق أفكارُ كلٍّ من بارك (مدرسة شيكاغو) وباتسون (مدرسة بالو ألتو). ففي كتابه **نحو إيكولوجيا للروح**، يحدد باتسون موضوعَه في الطريقة التي تبرز بها تشكيلاتٌ متجانسةٌ من الأفكار والقوانين التي تتحكم في نشوئها وتطورها وضمورها. ولا يبدو لنا من الصعب أن نستشف أثرَ داروين في الأسئلة الإيكولوجية التي يطرحها باتسون وهي كالآتي: «كيف تؤثر الأفكارُ على بعضها البعض؟ هل تخضع حياةُ الأفكارِ إلى نوعٍ من الانتقاء الطبيعي الذي يحكم على بعضها بالبقاء والصمود وعلى أخرى بالضمور والانقراض؟ ما هو نوعُ الاقتصاد الذي يتحكم في الحدِّ من توالد نوعٍ من الأفكار داخل ضاحية من ضواحي الفكر؟ ما هي الشروطُ الضروريةُ التي تكمن خلف استمرار تشكيلةٍ متجانسةٍ من الأفكار أو تشكيلةٍ فرعيةٍ من هذا القبيل؟».[11]

يتبين مما سبق ذكره، سواء تعلق الأمر بالشهادة الأولى (ألكس ميكيلي وبيير بايي) أو الشهادة الثانية (مدرسة بالو ألتو) أو الثالثة (مدرسة شيكاغو)، أن الفكرةَ الأساسيةَ التي ينبغي أن نحتفظ بها ها هنا، هي أن الاختلافَ بين المقاربة الكيفية والمقاربة الكمية يتصل بقضايا المنهج في دلالاته العامة، ولا يقتصر على القضايا التي يطرحها اختلافُ العُدَّةِ العملية والأهداف المتعلقة بالدراسة

11 – Bateson, G., Vers une écologie de l'esprit, T1, traduit de l'Anglais par Ferial Drosso, Laurencine Lot et Eugène Simon, Paris, Editions du Seuil, 1977, pp. 13-14





الميدانية. فالاختلافُ على مستوى التقنيات وأدوات التحليل يجد جذورَه الأكثرَ غوراً في القضايا التي تطرحها الإبستيمولوجيا ونظرية المعرفة.

II. الفهم بدل التفسير

يتخذ التفسيرُ أكثرَ من دلالة واحدة؛ وذلك تبعاً لاختلاف الغايات التي نتوخاها من استعمال اللفظ وتباين سياقه التداولي. وتجدر الإشارةُ إلى أن لغةَ العلوم الإنسانية والاجتماعية ليست محضَ لغةٍ رمزيةٍ، فهي تشاطر الحسَّ المشتركَ استعمالَ اللغةِ الطبيعيةِ؛ ما يعني أن بعضَ المفردات داخل قاموس العلوم الإنسانية والاجتماعية قد تُستعمَلُ تارةً في دلالتها العامية المتداولة وتارةً أخرى بما يتوافق وشروط المفهمة، وهذا هو حالُ استعمالنا لمفهوم التفسير. فهو يستعمل في أحيان كثيرة خارج مقامِ المفهمة ولوازمها؛ أي بما يفيد الشرح والتوضيح، كأن نقول على سبيل المثال أن دوركايم أو فيبر –والأمر سيان بالنسبة لكليهما- قد فسر موقفَه أو رأيَه على نحوٍ معين. لكن عندما نخصّ دوركايم بالتفسير وفيبر بالفهم، فنحن نقصد المفردتين في بعديهما المفهومي الأكثرِ عمقاً، والذي يسمح لنا في نهاية المطاف بالحديث عن براديغم الفهم في مقابل براديغم التفسير، مع استحالةِ اختزالِ أحدهما إلى الآخر. وهذا يعني أننا سوف نعرض إلى الاختلاف في صورته الخالصة والمثالية، صارفين النظر عن مختلف إمكانيات التوفيق ومستوياته، وهي واردة على كل حال.

يمكن أن نحمل مفهوم التفسير على ثلاثة معان رئيسة: يحيل المعنى الأول على المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل المنهجية العلمية عموماً، والتي تبدأ بالوصف (جمع المعطيات وتسجيل البيانات) وتمر عبر الفهم (تصنيف معطيات الملاحظة وإعداد قوائم ببياناتها) ثم تنتهي بالتفسير (إيجاد علاقات ثابتة وانتظامات إحصائية بين مختلف الأصناف والقوائم التي تم إعدادها في مرحلة





الفهم وذلك بفضل المقارنة). وقد حدد كانط، في إطار تحليله لبنيةِ اشتغالِ العقل الإنساني، هذه المستوياتِ بدقةٍ، حيث أطلق على المستوى الأول اسمَ الحساسية وضمَّنه مقولتيْ الزمان والمكان باعتبارهما مقولتيْن قبليتيْن للحساسية، وأطلق على المستوى الثاني اسمَ الفهم وضمّنه اثنتيْ عشر مقولة تختزل مختلف أحوال الظواهر، ثم أطلق على المستوى الثالث اسمَ العقل؛ وهو ملكةُ المبادئ التي تسمح بالربط بين مقولات الفهم وتشكيل الأحكام الضرورية والأساسية للمعرفة.

ويبرز المعنى الثاني في إطار مقابلةِ المنطق العلمي الذي ينبغي أن يتقيد بالوصف - وفي أرقى الأحوال بالتمثيل (la représentation) - مع منطق الفلسفة والتيولوجيا الذي يتعدى الوصف إلى التفسير. ويعني التفسيرُ في إطار هذه المقابلة التحليلَ السّببيَّ للمعضلات التي تواجه الفكرَ بغية الإمساك بالأسباب الأولى والأساسية، التي تسمح بإدراج القوانين الخاصة ضمن قوانين عامة وأساسية.




وتجدر الإشارةُ إلى أن التفسيرَ في الفلسفة والتيولوجيا قد ارتبط بنزعة غائية (téléologique) ترفع دعوى مطابقةَ النماذجِ العقلية لحقيقة العالم، انطلاقا من التسليم بقدرة العقل على الصعود تدريجياً في اتجاه المطابقة التامة مع الخطة الإلهية، التي كانت في البدء وراء الخليقة. ويعتبر بيير دوهيم أوّلَ من أشار إلى أهمية هذا التمييز في بناء فيزياء نظرية بعيداً عن المصادرات الميتافيزيقية. يقول دوهيم: «التفسيرُ (Expliquer) كلمةٌ مشتقةٌ من أصلٍ لاتيني (Explicare) وتفيد النزع والتجريد؛ أي تجريد الواقع من مظاهره المحسوسة التي تحجبه عن ناظرينا. ومن ثمة فإن الغايةَ النهائيةَ من التفسير هي الوقوفُ أمام حقيقة الواقع وجها لوجه، بعدما نكون قد نجحنا في إزاحة كلِّ الحجب (المظاهر المحسوسة)... وبتمزيقها للحجب ونزعها للمظاهر المحسوسة، تكون النظريةُ قد توجهت صوب حقيقة الأشياء ذاتها...





لكن ما هي طبيعةُ العناصر التي تشكل الواقع المادي؟ وهل توجد حقيقةٌ ماديةٌ بمعزلٍ عن مظاهرها الحسية؟

تعتبر أسئلةٌ من هذا القبيل –يسترسل دوهيم- غريبةً عن المنهج التجريبي الذي لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يتخطى حدود المظاهر الحسية؛ لذلك فإن الجوابَ عنها يتعدى مناهجَ الملاحظة كما تستعملها الفيزياء ويتصل بموضوع الميتافيزيقا. وإذن، فحالما تتخذ النظرياتُ الفيزيائيةُ من تفسيرِ القوانين التجريبية غايةً لها، فإن الفيزياء النظرية تكف عندئذ عن أن تُعَدَّ علماً مستقلا عن الميتافيزيقا».[12]

أما المعنى الثالث والأخير فقد تبلور في سياق المواجهة الإبستيمولوجية والنظرية بين علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية. وقد أسفرت هذه المواجهةُ من داخل العلوم الإنسانية على بروز براديغمين أساسيين: التفسير والفهم.

فأما التفسيرُ فيجد جذورَه الفلسفيةَ في الفلسفة الوضعية كما بسط أسسَها أوغست كونت، وينطوي على مسلمة منهجية أساسية مفادها أن الظواهرَ الإنسانية والاجتماعية تسمح بأن نعالجها كما لو كانت أشياء*، فقط يتعين علينا أن نتقيد في بنائها بشروط الموضعة (l'objectivation) كما تطرحها علوم الطبيعة. وهذا يعني أن دعاةَ التفسير ينطلقون من قناعةٍ راسخةٍ بالوحدة العميقة للعلوم، ويعتبرون أن المنهجَ في دلالته العامة ينطبق على القضايا التي تطرحها العلومُ الإنسانية والعلومُ الطبيعية على السواء. وتتمثل الغاية النهائية من التفسير في الكشف عن القوانين

---

12 – Duhem, P., La théorie physique : son objet et sa structure, Paris, Chevalier & Rivière Editeurs, 1906, pp.6-10

* إن أولى القواعد الخاصة بملاحظة الظواهر الاجتماعية لدى دوركايم وأهمها هي القاعدة التي يدعو فيها إلى لزوم»اعتبار الظواهر الاجتماعية كما لو كانت أشياء». وتفيد هذه القاعدة أن على السوسيولوجي أن يسلك اتجاه الظواهر الاجتماعية المدروسة مسلكا خاصا بحيث يتمكن من خلق شروط مماثلة لتلك التي تجمع الفيزيائي بموضوعه: الأشياء.(أنظر : دوركايم، إيميل، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1974، ص.70)





الضرورية والحتمية التي تحكم مجرى الحياة الإنسانية، والتي تكون في الغالب، أو قل على الإطلاق، خارج إرادة الأفراد ووعيهم وتمارس عليهم قهرا.*

وأما الفهمُ فيجد جذورَه الفلسفيةَ في الفلسفة الفينومينولوجيا كما بسط أسسَها فيلهيلم ديلتي، وينطلق من مسلمة منهجية أساسية تفيد أن الظاهرة الإنسانية أو الاجتماعية تتمتع بقدر من الخصوصية قياساً إلى الظاهرة الطبيعية، تجعل من أي محاولة لمعالجتها كما لو كانت شيئاً من باب تشويه الظواهر الإنسانية والابتعاد عن حقيقتها. وكان ديلتي قد ميز بين علوم الطبيعة (Naturwiessenschaft) وعلوم الروح أو الثقافة (Geistwiessenschaft) على أساس الاختلاف الجذري بين موضوعيهما، قبل أن يتصدى فندلبند وريكرت إلى التمييزِ عينِه، لكن هذه المرة من جهة الاختلاف في المنهج والمقاربة لا في الموضوع والطبيعة. وتتمثل الغايةُ النهائيةُ من الفهم في إيضاح الطريقة التي يتبعها الناس في بناء المعاني والدلالات التي يحملونها على الأشياء داخل عالمهم المعيش.



إن التمييزَ بين مستويات الدلالة التي يتخذها مفهومُ التفسيرِ يسمح لنا برفع كثيرٍ من اللبس فيما يتعلق بالفرق بين المنهجين الكمي والكيفي؛ حيث يضعنا المستوى الأول من الدلالة أمام التفسير باعتباره الغاية القصوى التي من المفروض أن يتوخاها التحليل العلمي سواء كان كمياً أو كيفياً. فحتى أولئك الأنثروبولوجيون الذين قضوا أعواماً بين ظهراني «المجتمعات البدائية» يلاحظون سلوكات الأهالي، ويعدون قوائم بأعرافهم ومؤسساتهم بعيداً عن قواعد الإحصاء ومستلزمات التكميم، لا يحصرون مهمتَهم في الوصف والتصنيف

* راجع الفصل الأول من كتاب دوركايم قواعد المنهج في علم الاجتماع والذي يحمل عنوان: ما الظاهرة الاجتماعية؟». في هذا الفصل يعرف دوركايم الظاهرة الاجتماعية بخاصيتين أساسيتين هما الخارجية والقهرية. يقول: «إن الظاهرة الاجتماعية هي كل ضرب من السلوك، ثابتا كان أم غير ثابت، يمكن أن يباشر نوعا من القهر الخارجي على الأفراد، أو هي كل سلوك يعم في المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يتشكل بها في الحالات الفردية». (مرجع سابق، ص ص.68-69)





بل يمددونها إلى التفسير. يقول فسترمارك: «أن نجعل من التحليل الإثنولوجي للعلاقات الثقافية المهمةَ الرئيسةَ لتاريخ الحضارات كما يفعل بعضُ العلماء الألمان، يعني أن نحرم العلم من أهدافه العليا، وأن نلغي نتائجه الأكثر أهمية. فلا يجب علينا أن ننسى أبداً أن قدرتَنا على اكتشافِ علاقاتٍ قديمةٍ بين شعوب متماثلة من حيث أعرافها وتقاليدها، لا يعني في شيء أننا قد تمكننا من تفسيرِ أصل هذه الأعراف والتقاليد. فليس يكفي أن نقرر بأن عرفاً ما قد ورثناه عن الأجداد أو استمد من الجوار حتى ندعي أننا قد فسرنا أصله؛ إذ عندئذ لن نكون قد تجاوزنا بعد عتبة صياغة المشكلة».[13]

أما بالنسبة للمعنى الثاني، فلا أحد يمكن أن يجادل في كون العلم، سواء في صيغته الكمية أو الكيفية، قد حسم معركته مع الميتافيزيقا على قاعدة إخضاع النماذج النظرية إلى معطيات الملاحظة. وإذا كان يوهان كبلر• في علم الفلك وغاليلي* في علم الفيزياء هما أول من أخضع النماذج النظرية إلى معطيات الملاحظة، فإن سان سيمون كان أول من قرر دراسة المجتمع انطلاقا من ملاحظة الوقائع بغية استخراج قوانين عامة. وكان راد-كليف براون قد دعا الأنثروبولوجيين إلى تغيير وجهتهم بالإقلاع عن إخضاع الوقائع الملاحظة إلى مقتضيات التناسق المنطقي كما كان يفعل دعاة منهج التاريخ الافتراضي أو

13 – Westermarck, E., Histoire du mariage: la promiscuité primitive et la valeur de la virginité, t. I, traduit par Arnold van Gennep, Paris, Payot, pp. 11-12.

• في معرض حديثه عن إنجازات يوهان كبلر وقوانينه الرياضية المتعلقة بالشكل الإهليليجي لحركة الكواكب، قال جرمين بيزر: « إننا الآن بصدد منعطف في تاريخ العلم. وهو، بشكل من الأشكال، أهم من قوانين كبلر نفسها... فعوضا عن تنقيح المعطيات حتى تتلاءم مع النظرية كان كبلر ينقح النظرية حتى تتلاءم والمعطيات. لقد كان ذلك إيذانا بمطلع فجر العلم الحديث». انظر:

Beiser, G., La gravitation de Copernic à Einstein, Paris, Nouveaux horizons, 1975, p.31

* يقول جرمين بيزر في نفس الكتاب: «يوجد فرق ملحوظ بين غاليلي وفلاسفة الطبيعة الذين سبقوه؛ فقد كان غاليلي على علم بأن الاقتناع الذاتي لا يغني أبدا عن ضرورة التحقق من حقيقة حدوسنا بفضل التجريب...فإذا كان من المذهل أن يكيف كبلر نظريته مع الملاحظات التي سجلها تيكو براهي، فإنه من المذهل أكثر- خلال تلك الحقبة- أن ينشئ المرء تجربة ويبنيها عن قصد بغية التحقق من صحة نظرية أو بطلانها؛ لهذا السبب نطلق على غاليلي في بعض الأحيان لقب أب العلم الحديث». (Beiser, G., op., cit., p. 46)





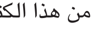
التخميني (la méthode de l’histoire conjecturale) والالتزام بقواعد الاستقراء وما تقضي به من ضرورة الانطلاق من معطيات الملاحظة.

إذا كنا إلى غاية الآن لم نسجل أيَّ فرقٍ جوهريٍّ بين الدراسات الكيفية والدراسات الكمية•، فذلك يرجع، في نظرنا، إلى أننا لم نعلق الشرط الإبستيمولوجي في اشتغالنا على تقدير الفرق بين الفهم والتفسير؛ حيث أخذنا الفهمَ كمشكلةٍ إبيستمولوجيةٍ وكمنهجٍ خاصٍّ بالعلوم الإنسانية، ولم نتعامل معه كشكلٍ خاصٍّ من المعرفة التلقائية والمباشرة، أو كمعرفةٍ مستقاةٍ من التجارب اليومية التي تشمل مختلفَ الأنشطة الإنسانية. وهذا يعني أن السؤال الذي شد انتباهنا إلى غاية الآن هو : ما شروطُ إمكان معرفة علمية تقوم على أساس الفهم؟



لقد كان فيبر نفسُه -وهو عالم الاجتماع الذي ارتبط اسمه بالفهم أكثر من غيره- يستعمل الفهمَ تارةً كمنهجٍ خاصٍّ بالعلوم الإنسانية وتارةً أخرى كضربٍ من ضروب المعرفة اليومية؛ لذلك فإن لَبساً ظلّ يعتري أيَّ نقاشٍ يدور حول شروط العلمية ودعاوى الصلاحية التي يمكن أن ترفعها العلومُ الإنسانيةُ مستندةً إلى الفهم كاختيارٍ إبيستمولوجيٍّ ومنهجيّ. ولعل هذا ما دفع بألفريد شوتس إلى التشديد على التمييز بين الدلالتين المذكورتين معتبراً إياه حاسماً في إجلاء اللبس عن أحد النقاشات الأساسية التي احتضنت نشأةَ السوسيولوجيا وساهمت في تطورها. وعليه، فعندما يتعلق الأمرُ بالفهم باعتباره منهجاً خاصاً بالعلوم الإنسانية، يقرر شوتس أن النظريات في العلوم الإنسانية يلزم أن تستجيب لنفس معايير الصلاحية التي تخضع لها النظريات في العلوم التجريبية؛ فبالرغم من التميز الجلي للمواضيع التي تنكب العلوم الإنسانية على دراستها بالمقارنة مع تلك التي تشكّل موضوعَ دراسة العلوم التجريبية، فإن نظرياتها عموما ينبغي

• ليس هذا هو هدفنا في هذا التقديم الإبستيمولوجي للبحث الكيفي في العلوم الاجتماعية. سيجد القارئ الذي يريد أن يطلع على الفروق بين البحث الكيفي والبحث الكمي معطيات مفصلة حول الموضوع في الفصل الثاني من هذا الكتاب.







أن تتقيد، مثلها مثل نظريات العلوم التجريبية، بنفس معايير الصلاحية؛ أي أن نتمكن بفضلها من صياغة علاقاتٍ واضحةٍ ومحدَّدةٍ بين مجموعةٍ من المتغيرات والتعبير عنها في مفردات وعبارات تسمح لنا بإبراز الانتظام بين الظواهر وإخضاعه للاختبار بهدف التحقق من صدقه أو بطلانه.

لكن شوتس على ما يبدو لا يحتفظ بنفس الموقف حينما يتعامل مع الفهم كشكل خاص من المعرفة التلقائية والمباشرة؛ فهو يؤكد على الاختلاف الأساسي الموجود بين مواضيع التفكير المتعلقة بالظواهر الإنسانية والاجتماعية من جهة، والإنشاءات الذهنية (المفاهيم) التي يتم بناؤها للتعبير عن معطياتٍ طبيعية وفيزيائية من جهة أخرى.

إن عالَمَنا المعيشَ هو حصيلةُ تفاعلاتنا وعلاقاتنا الاجتماعية؛ لذلك فإنه يظل حاملا للمعنى مهما بلغت درجةُ تنبهنا الإبستيمولوجي، وزاد حرصنا على الالتزام بشروط الموضوعية. أما العالمُ الغُفْلُ المحايدُ قيمياً، والذي يمكن أن يشكّلَ خلفيةً ماديةً لوجود المعاني المشتركة، لا يعدو أن يكون مجرد خيالٍ من إبداعِ ذهنٍ لا يرى أي إمكانيةٍ للعلم خارج ثنائية ذات/موضوع، ودون طرد الوعي من حظيرة المادة. إن المعرفةَ التي تتشكل لدينا حول أمثالنا من الناس تختلف جذرياً عما نعرفه عن أشياء العالم. إذ نحن نعرف ما يفعله الآخرون ودوافعَ فعلهم ولماذا يفعلون ما يفعلونه في زمانٍ معينٍ وفي ظروفٍ معينة. وهذا يعني أننا نجرب ونختبر الفعلَ الذي يقوم به أمثالُنا حسب دوافعهم وأهدافهم، وهذا ما لا نفعله إزاء أشياء العالم.




يبدو إذن أن المستوى الثالث من الدلالة التي يتخذها مفهومُ التفسير هو الذي يسمح لنا بتعيين الفروق التي تفصل بين التحليل الكيفي والتحليل الكمي، ورصد درجة التباعد فيما بينهما. ولعل أهمّ موقفٍ على الإطلاق يسمح بتمييز الفهم عن التفسير هو ذلك الذي يقرن العلمَ ضرورةً بتعطيل الإرادة والوعي الإنسانيين لدى دعاة التفسير، هذا بينما نجد لدى دعاة الفهم موقفاً





مبدئياً مغايراً تماماً، يكمن في بناء شروط جديدة للعلمية على أساس الخصائص الأساسية المميزة للإنسان عن باقي الموجودات، وفي مقدمتها الوعي والإرادة؛ فالإنسان كائن رامز وخالق للدلالة والمعنى لا مجرد منفعل بقوانين محددة سلفاً وخارجة عن إرادته. هذا هو الفرق الجوهري بين الفهم والتفسير ومنه تتفرع اعتباراتٌ إبيستمولوجيةٌ كثيرةٌ أهمّها طبيعةُ العلاقةِ التي من المفروض أن تجمع الباحث بالمبحوث. فإذا كانت التمثلات والمعاني التي تعج بها حياتنا اليومية تمثل عائقاً إبستيمولوجياً بالنسبة لدعاة التفسير، مما يعني أن العلم يتقدم تدريجياً كلما ابتعد الباحث عن الدلالات اليومية المتداولة بين الناس مبيناً محدوديتَها بل وزيفَها أيضاً، فإنها بالنسبة لدعاة الفهم المادةُ الأساسيةُ التي يدور حولها التحليل، على اعتبار أن «الوجه الاجتماعي للعالم الخارجي لا يمثل حقيقةً في ذاته؛ ومن ثمة فلا جدوى من أيِّ محاولةٍ لتفسير القوانين التي تُسيِّرُ هذا العالمَ بناءً على جملةٍ من القنوات الميتودولوجية التي تتمتع في نظرنا بالمتانة. إن السيرورات الاجتماعية، حسبما يذهب بعض الباحثين من ذوي التوجه الفينومينولوجي التأويلي، هي ظواهرُ عرضيةٌ زائلةٌ وديناميةٌ لا وجود لها باستقلال عن التأويلات والتوصيفات التي يمنحها إياها الفاعلون الاجتماعيون».[14]



هناك عبارة قوية ومأثورة لألفريد شوتس توجز الموقف الذي يتبناه دعاةُ الفهم فيما يخص طبيعةَ العلاقةِ التي يجب أن تجمع الباحثَ بالمبحوث ومفادها «أننا جميعاً سوسيولوجيون أثناء الممارسة»، ونفسُه الوفاءُ لفحوى هذه العبارة ما يجعل «دعاةَ النزعة الـتأويلية في كلّ أرجاء العالم يؤكدون أن الباحثين لا يكونون في حالٍ أفضل من المبحوثين فيما يخص عملية فك الارتباط مع الظواهر التي يدرسونها»[15]. في نفس الاتجاه، وحرصاً منه على الابتعاد عن العبارات

14 – Miles, M. B. et Huberman, A. M., Analyse des données qualitatives, 2e édition, De Boeck & Larcier s.a, 2003, p.13

15 – Ibidem, p.22







التي تحيل إلى القطيعة والانفصال، يدرج روبير عزرا بارك عملَ السوسيولوجي وعملَ الصحفي ضمن نفس الجنس معتبراً السوسيولوجيا شكلا من أشكال الصحافة الراقية. باختصار يمكن أن نعرف الموقفَ المنهجيَّ العامَّ الذي يميز دعاةَ الفهم من خلال التماس عبارات ألان كولون في تقديمه لمناهج البحث كما طرحها رواد مدرسة شيكاغو؛ ففي الفصل الرابع الذي كرسه للتعريف بطرائق البحث، يذكّر ألان كولون بالتقديم الذي خصه بيكير لكتاب كليفورد شو «النشال»؛ حيث يلخص بيكير آفاق البحث الميداني الذي طورته مدرسة شيكاغو كالآتي: «من أجل فهم سلوك الفرد، ينبغي معرفة كيفية تصوره للوضع، والعقبات التي يفترض أن من واجبه مواجهتها، والبدائل التي تلوح أمامه في الأفق. ولا يمكن أن نفهم مجال الإمكانات وما يرتبط بالجنوح من ثقافات فرعية وقوانين المجتمع وتفسيرات سلوكية أخرى جرى ذكرها على نحو مشترك، ما لم ننظر إليها من منظور الفاعل نفسه».[16]

خلاصة

يبدو من خلال ما سبق ذكره أن أصالةَ المناهج الكيفية تتصل بموقفٍ فلسفيٍّ عامٍّ أكثر من اتصالها بطبيعة الموضوع المدروس، وشروط الدقة أو الأمانة التي يلزم على الباحث أن يتقيد بها أثناء إنجازه بحثاً ميدانياً. ولعل أهمَّ ما ينطوي عليه هذا الموقفُ هو إبعادُه فرضيةَ اللاشعور التي تحوّل الأفرادَ إلى ما يشبه كراكيز تحركها أياد خفية، وتسمو بالباحث إلى مرتبة رفيعة باعتباره مالك مفاتيح اللاشعور الجمعي.

كلنا سوسيولوجيون أثناء الممارسة، وما على الباحث إلا أن يعمل جاهداً من أجل فهم سوسيولوجيا الحس المشترك. هذا هو المبدأ الذي يتعين على الباحث أن يستند إليه في تأويله للمعاني والدلالات التي يحملها الأفراد على أفعالهم

16 – Coulon, L’école de Chicago, op. cit.





الاجتماعية. وحينما يتقيد به، تصير سوسيولوجيته شكلا من أشكال العقلانية، لا يحظى بأي امتياز قياساً إلى عقلانيات المبحوثين. إن الفيصل في التمييز بين مختلف العقلانيات يعود إلى الوضعية أو المقام التفاعلي، ولا وجود لعقلانية عابرة للوضعيات تعتبر بمثابة المقام المرجعي لكل تأويل.









الفصل الثاني

تعريف البحث الكيفي




I. ما هو البحث الكيفي

II. خصائص البحث الكيفي

III. البحث الكيفي والبحث الكمي: أية فروق؟



I. ما هو البحث الكيفي؟

دعنا نبدأ بالمثال الذي قدمّه يان دي[1] في كتابه المتعلق بتحليل المعطيات الكيفية؛ إذ يدعونا إلى مقارنة التقريرين التاليين المتعلقين بلعبة كرة قدم:

ويمبولون 0 – 0 ليفيربول	كان الحماسُ في المدرجاتِ أكبرَ ممّا كان على أرض الملعب

نلاحظ هنا أن التقريرَ الأوّلَ يقدم نتيجةً كميةً للمقابلة، بينما يقدم الثاني تقييماً كيفياً لنفس المباراة. بماذا نهتم أكثر، بالنتيجة أم باللعبة؟ بالأهداف أم بالأجواء؟ إن ما نراه أكثرَ أهميةً يتوقف على الشيء الذي يهمنا. فإذا كنتُ مسيّراً للفريق أو مشجعاً متعصباً له سأنشغل أكثر بالنتيجة، وإذا كنتُ متفرجاً محايداً سأهتم أكثر بجودة المقابلة. هكذا هي الأمورُ في العلوم الاجتماعية كما في الحياة اليومية: تعكس تقييماتُنا للمعطياتِ الكمّيةِ والكيفيةِ الاهتمامَ الذي نوليه لها وماذا نريد أن نصنع بها.



نستخدم المعطياتِ الكميةَ في فئةٍ واسعةٍ جداً من أنشطتنا اليومية، كالتسوق والطبخ والسفر ومعرفة الوقت وتقييم إنجازات الحكومة. فنحن دائماً نطرح أسئلةً من قبيل كم من الوقت؟ كم من مرة؟ كم الثمن؟ ونجيب عنها باستعمال معطيات كمية.

1 – Dey, I., Qulaitative DataAnalysis. A User–Friendly Guide for Social Scientists, London and New York : Routledge, 2005, p. 10–11.







افرض أنني أقطع 5 كيلومترات في 30 دقيقة لأصل إلى السوق وأصرف 30 درهماً على لتر من العصير و100 غرام من الجبن.إن الكيلومترَ والدقيقةَ والدرهمَ واللترَ والغرامَ وحداتٌ لقياسِ الكمية. إننا نتوفر على أجهزةِ قياسٍ (الساعة للوقت، الميزان للكتلة) يمكنها أن تعبّر عن تَغْيُّرَاتِ الكميةِ من خلال مقياسٍ من وحداتٍ قياسيةٍ. لكن ما الذي يتغير؟ إننا نستعمل الدقائقَ لقياس الزمن، والكيلومترَ لقياس المسافة، والدرهمَ لقياس الثمن، واللترَ لقياس الحجم، والغرامَ لقياس الكتلة. إننا نستعمل هذه المتغيرات لقياسِ الفروقِ الرقميةِ من خلال قِيَمِهَا. ويكون ذلك ممكناً لأننا نستعمل وحدةَ قياسٍ متفقٍ عليها كمعيارٍ مشتركٍ قابلٍ للتكرار، بمعنى يمكن تطبيقُه مراتٍ عديدةً ويعطي نفسَ النتائج.[2]

تخترق «الكمياتُ» حياتَنا اليوميةَ برمتها، وتُستعمَلُ بشكل واسع في السياقات المادية والبيولوجية بواسطة وحداتِ قياسٍ قائمةٍ وممأسسةٍ. فنحن نقبل بسهولة المقاييسَ المتفقَ عليها للزمن والمكان والكتلة. كما أننا نصيغ تقييماتٍ كيفيةً في السياق المادي: هل هذه الملابس وسخة؟ هل الوجبة لذيذة؟ هل المنظر جميل؟ ومن المعروف أننا لا يمكن أن نستعمل في تقييماتنا الكيفية مفاهيمَ قابلةً للقياس بمعايير كمية. وتُستعمَلُ التقييماتُ الكيفيةُ بشكل كبير في السياقات النفسية والاجتماعية: هل هذا الشخص لطيف؟ هل وجدتَ المدينةَ مثيرةً؟ هل هذا الكتاب مفيد؟ وتعتبر هذه مجالاتٌ نميل فيها إلى اعتماد الأحكام الكيفية وليس التقييمات الكمية.

يشير دابس[3] إلى أن فكرةَ **الكيف** (qualité) أساسية جداً في تحديد طبيعة الأشياء، بينما تعني فكرةُ **الكمّ** (quantité) مقدارَ أو حجمَ شيءٍ ما. يحيل «الكيفُ» إلى أسئلة ماذا وكيف ومتى وأين المتعلقة بشيء ما، بمعنى بجوهره وبيئته. وعلى هذا الأساس، يحيلُ البحثُ الكيفيُّ إلى معاني الأشياء ومفاهيمها

2 – Blalock, H. M., Social Statistics, London: McGraw-Hill, 1960.

3 – Dabbs, J.M, Jr., «Making Things Visible»... op. cit., p. 32.





وتعريفاتها وخصائصها واستعاراتها ورموزها ووصفها. وبالمقابل، يحيل البحثُ الكمي إلى عدِّ شيءٍ ما وقياسِه.

مقارنةً بالكميات، تبدو الكيفياتُ مراوغةً وأثيريةً. فنحن نستعمل «الكيف» (أو النوع) دائماً كمقياسٍ للقيمة النسبية لشيء ما، كما هو الحال عندما نقول «جودة الأداء» أو «شخص جيد» أو عندما نتساءل عما إذا كان شيءٌ ما ذا طبيعةٍ جيدة. افرض أنني شاهدتُ شريطا سينمائيا وسَأَلْتَنِي عن رأيي فيه: كيف كان الفيلم؟ سيحيل تقييمي إلى كيفياتِ الفيلم: هل كان مسلياً، عميقاً، سطحياً، مضحكاً، حزيناً؟ هل كانت الحبكةُ منطقيةً؟ هل كانت الشخصياتُ مقنعةً؟ هل كان التمثيلُ جيداً؟ هل كان السيناريو مقنعاً؟ لا يمكن فصلُ تقييمي للفيلم عن كيفية فهمي وتأويلي له. إن الكيفَ هو ما تقاس به القيمةُ النسبيةُ، لكنها تقوم على تقييمٍ للخاصية العامة أو الطبيعة الداخلية للشيء الذي نقيّمه: ما هي قصةُ الفيلم؟ ما هي الرسالةُ التي كان الفيلم يهدف إلى تمريرها؟ ما هي القيمُ التي يعبر عنها؟ وباختصار، **ماذا يعني الفيلم بالنسبة لي؟** فبينما تتعلق المعطياتُ الكميةُ بالأرقام، تتعلق المعطياتُ الكيفية بالمعاني. والوسيط الذي ينقل هذه المعاني أساساً هي اللغة والأفعال.





يحيل مصطلحُ «البحث الكيفي» إلى المناهج التي تنتج معطياتٍ وصفيةً انطلاقا من كلمات الناس المنطوقة أو المكتوبة وسلوكاتهم الملاحظة. إنه بحثٌ يقوم على جمعِ نصوصٍ وتحليلها وتأويلها بهدف اكتشافِ أنماطٍ ذاتِ دلالةٍ تصف ظاهرةً معينةً. غير أنه ينبغي التنبيهُ منذ البداية إلى أن المناهجَ الكيفيةَ، مثل المناهج الكمية، هي أكثرُ من مجرد مجموعةٍ من التقنيات لجمع المعطيات. إنها طريقةٌ في مقاربة العالم الاجتماعي.

يعرّف دينزن ولينكولن البحثَ الكيفيَّ كما يلي: إنه «نشاطٌ في وضعيةٍ معينةٍ يحدّد موقعَ الملاحِظِ في العالم. ويتكون من مجموعةٍ من الممارسات الفكرية والمادية التي تجعل العالمَ مرئياً. هذه الممارسات تحوّل العالمَ إلى سلسلاتٍ من التمثلاتِ





التي تشمل الملاحظات الميدانية والمقابلات والمحادثات والصور الفوتوغرافية والتسجيلات الصوتية والمرئية والمذكرات الشخصية. ويستند الباحثون الكيفيون في هذا المستوى إلى مقاربةٍ تأويليةٍ وطبيعانيةٍ للعالم. ويعني هذا أن الباحثين الكيفيين يدركون الأشياءَ في بيئاتها الطبيعية، في محاولةٍ لفهم الظواهر وتأويلها من خلال المعاني التي يحملها الناسُ عنها»[4].

نلاحظ في هذا التعريف أن المؤلفيْن يحددان البحثَ الكيفيَّ بخاصيتين أساسيتين تحظيان بإجماع المنظرين، وهما: 1) إن البحثَ الكيفيَّ مقاربةٌ طبيعانيةٌ وتأويليةٌ، 2) تهتم بفهم المعاني التي يسندها الناس إلى الظواهر (أفعال، قرارات، اعتقادات، قيم، الخ) الموجودة في عالمهم الاجتماعي. وفي هذا السياق يقول برايمان: «إن الطريقةَ التي يفهم بها الناسُ واقعَهم الاجتماعي ويؤولونه واحدةٌ من الدوافع الأساسية للبحث الكيفي»[5].

وركز الباحثون من جهة أخرى على الأبعاد المنهجية كخصائص يتم بواسطتها تعريفُ البحث الكيفي. وتشمل هذه الأبعادُ الأساسيةُ: المنظورَ الشاملَ للبحث وأهميةَ الإطارات المرجعية للباحثين؛ الطبيعةَ المرنةَ لمخطط البحث؛ حجمَ وغنى المعطيات الكيفية؛ المقارباتِ النوعيةَ المتعلقةَ بالتحليل والتأويل؛ نوعَ المخرجات التي يتم استخلاصُها من البحث الكيفي. كما يتم تحديدُ طبيعةِ البحث الكيفي من خلال طرائق البحث التي يستعملها: الملاحظة، المقابلة المعمقة، المقابلات الجماعية، المنهج السردي كالبيوغرافيا وسير الحياة، وتحليل الوثائق السمعية البصرية والنصوص*.

4 – Denzen N. and Lincoln Y. (eds.), Handbook of Qualitative Research, 2nd ed., Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2000, p. 3.

5 – Bryman, A.,Quantity and Quality..., op. cit., p. 8.

* – انظر الفقرات الموالية في هذا الفصل المتعلقة بخصائص البحث الكيفي.





ومن جهة أخرى، يقدم بعضُ الباحثين تعريفاتٍ سلبيةً للبحث الكيفي، بمعنى أنهم يعرفونه بما ليس يمثله. وكمثال على هذه التعريفات، يقدم شتراوس وكوربان البحثَ الكيفيَّ كبحث لا يرتكز بالأساس على عدّ وتكميم المعطيات التجريبية: «نقصد بمصطلح 'البحث الكيفي'، كلَّ نوعٍ من البحث لا ينتج نتائجَ بالاعتماد على إجراءاتٍ إحصائيةٍ أو وسائلِ تكميمٍ أخرى»[6].

تنبثق النتائجُ الكيفيةُ من ثلاثة أصنافٍ من طرائق جمع المعطيات: 1) المقابلات؛ 2) الملاحظة المباشرة؛ 3) الوثائق. **فالمقابلات** تنتج شهادات مباشرة من الناس حول تجاربهم وآرائهم ومشاعرهم ومعرفتهم. وتتكون المعطيات المحصل عليها **بالملاحظة** من وصفٍ دقيقٍ لأنشطة الناس وسلوكاتهم ومجموع التفاعلات التذاوتية والعمليات التنظيمية التي تشكل جزءاً من التجربة البشرية القابلة للملاحظة. وتشمل **الوثائق** مقتطفاتٍ أو مقاطعَ كبيرةٍ من وثائق تنظيمية أو إكلينيكية.



يربط بعضُ الباحثين البحثَ الكيفيَّ بتقنية الملاحظة بالمشاركة وحدها، بينما يوسعه بعضهم الآخر ليشمل المقابلة أيضاً. وتضيف بحوثٌ كيفيةٌ مشهورةٌ مناهجَ أخرى كملاحظة الوضعيات الطبيعية التجريبية وتقنيات التصوير الفوتوغرافي (بما فيها التسجيل بالفيديو) والتحليل التاريخي وتحليل الوثائق والقياس الاجتماعي (السوسيومتري) والدراما الاجتماعية والتجريب الإثنوميتودولوجي والبحث الإثنوغرافي وتقنيات أخرى عديدة.

وإجمالا، وتبعاً لجين لويس، يقوم البحث الكيفي بأربع وظائف رئيسية هي[7]:

---

6 – Strauss, A. and Corbin, J.,Basics of Qualitative Research: Techniques and Procedures for Developing Grounded Theory, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1990, p. 11.

7 – Ritchie, J., «The Applications of Qualitative Methods to Social Research», In J. Ritchie and J. Lewis (eds.), Qualitative Research Practice. A Guide for Social Science Students and Researchers, Thousand Oaks, CA: Sage, 2003: 24–64, p. 27–31.





1. دراسة السياق: أي وصفُ شكلِ وطبيعةِ ما يوجد. ومعنى ذلك أن البحث الكيفي يهتم بتحديد ما يوجد في العالم الاجتماعي والطريقة التي يتمظهر بها. فمن أهم أدوار البحث الكيفي وصفُ وعرضُ الظواهر كما يعيشها الناس بتفاصيلها وانطلاقاً من لغتهم. كما أنه يُستعمَلُ لفتح القضايا ورؤية ما بداخلها واستكشاف كيف يدركها الأشخاص الذين لهم علاقة بها. ويمكن استعمال البحث السياقي للأغراض التالية:

- تحديدُ مجموعِ العناصر والأبعاد والفئات والمواقف داخل ظاهرة اجتماعية معينة، مثلا: كيف يعرّف الآباءُ 'السلوكَ الجيدَ' بالنسبة لأطفالهم؛ كيف يعرفه أبناؤهم؟ ما هي تمثلات الشباب للسياسة؟ ما هي أبعاد 'الحياة الجيدة'؟

- عرضُ طبيعةِ ظاهرةٍ معينةٍ وخصائصها، مثلا: كيف تتمظهر العنصرية؟ كيف يعيش الناس العزلة الاجتماعية؟ ماذا تعني المشاركة في تدبير الشأن العام؟





- وصفُ المعنى الذي يسنده الناسُ لتجربةٍ أو حدثٍ أو وضعيةٍ أو أي ظاهرة أخرى، مثلا: ماذا تعني تجربةُ أن يكون الإنسان جَدّاً؟ ما هو الشعور الذي يترتب عن توفر شخص ما عن سجل جنائي؟ ما هي دلالة السجن بالنسبة لأشخاص عاشوا هذه التجربة؟

- تحديد النماذج والأنماط، مثلا: ما الذي يميز جماعاتٍ مختلفةً تعيش الإقصاء الاجتماعي؟ ما هي مختلفُ نماذجِ تنظيمِ جماعاتِ 'المساعدة الذاتية'؟ ما الذي يحدد مختلف مقاربات الإرشاد المهني للشباب العاطل؟

تعتبر هذه الوظائفُ الوصفيةُ خصائصَ أساسيةً للبحث الكيفي. ويتمثل هدفُها الرئيسي في استكشاف ووصف كيف يفهم المبحوثون ويؤولون الظواهرَ الاجتماعيةَ، وذلك من أجل تعيين طبيعتها الداخلية.





2. **التفسير:** أي دراسةُ أسبابِ ما يوجد أو دراسة العلاقات القائمة بين الموجودات. ومعنى ذلك أن البحث الكيفي يهتم بسؤال لماذا تحدث الظواهر الاجتماعية بالطريقة التي تحدث بها، وبالقوى والتأثيرات التي تؤدي إلى حدوثها. إن من شأن اهتمام البحث الكيفي بعمق المواضيع أن يزودنا بأداة لدراسة الأسس التي تقوم عليها قراراتُ الناس واتجاهاتهم وسلوكاتهم وكذا ظواهر أخرى عديدة. فضلا عن ذلك، يساعد البحثُ الكيفيُّ في الإمساك بما يحدث من ترابطاتٍ بين أفكار الناس وأفعالهم، مما يسمح لنا بتفسيرها. ويمكن استخدام البحث التفسيري لتحقيق الأهداف التالية:



- تحديد العوامل التي يقوم عليها اتجاهٌ أو موقفٌ أو اعتقادٌ أو تمثلٌ، مثلا: ما هي العوامل التي تؤدي إلى المواقف العنصرية؟ ما الذي يؤثر في تصورات الناس لحماية البيئة؟ ما الذي يشكل اعتقادات الناس المتعلقة بداء السرطان؟

- تحديد الدوافع التي تؤدي إلى اتخاذ القرارات أو الأفعال أو الإمساك عن الفعل، مثلا: لماذا يمارس الناسُ ألعابَ الرهان؟ لماذا يقرر الناسُ عدمَ الإنجاب؟ ما الذي يدفع الناس إلى الانخراط في الأنشطة التطوعية؟

- تحديد مصادر الأحداث والتجارب، مثلا: ما سببُ ظاهرةِ التشرد؟ كيف تطورت أساليبُ تدبيرِ الميزانيات المنزلية؟ ما هي العوائق التي تحول دون استعمال وسائل الوقاية من الأمراض المتنقلة جنسياً؟

- تحديد السياقات التي تحدث فيها الظواهر، مثلا: في أي ظروف تتم الهجرة؟ ما هي الشروط التي تؤدي إلى استمرار العلاقات الزوجية؟

يتفق الكثيرُ من الباحثين الاجتماعيين على دورِ البحث الكيفي في تفسيرِ الظواهر الاجتماعية. لكن هناك نقاشاً حول ما إذا كان من الممكن تحديدُ «أسباب» هذه الظواهر. حيث حاجج البعضُ على أن علاقةَ السبب بالنتيجة في العلوم الاجتماعية تبقى علاقةً حدسيةً. وحتى في حالة الموافقة على هذا





الرأي، يظل للبحث الكيفي دورٌ حاسمٌ في تحديد المؤثرات الرئيسية وفي توليد فرضيات تفسيرية.

3. **التقييم:** أي تقييمُ فاعليةِ ما يوجد. ومعنى ذلك أن البحثَ الاجتماعيَّ يعنى بالكشف عن أفضل الطرق لتنفيذ المشاريع، وهو أمرٌ جوهريٌّ بالنسبة للبحوث المرتبطة بالسياسات. إن الطابعَ المرنَ للبحث الكيفي يؤهله لتسليط الضوء على كيف تحدث الأشياء. كما يمكنه أن يساهم في فهم النتائج من خلال تحديد مختلف أنواع المفاعيل التي يمكن أن تؤدي إليها سياسةٌ معينةٌ، ومختلف أساليب حدوثها. ويمكن للبحث التقييمي أن يستعمل في:





- تحديد العوامل التي تساهم في نجاح أو فشل برامج الخدمات أو التدخل، مثلا: أي عوامل تساهم في نجاحِ إعادةِ توطين الناس الذين لا سكن لهم؟ ما هي العوامل المؤسساتية التي تؤدي إلى الهدر المدرسي؟ ما الذي يجعل برنامجاً للإدماج المهني «مهماً» أو «مملا» بالنسبة للمشاركين فيه؟

- تحديد مفعول المشاركة في برنامج أو مبادرة على المشاركين وكيف ينتج هذا المفعول، مثلا: ما هو تأثيرُ برنامج الإدماج المهني على النشاط المهني للمشاركين فيه؟ كيف تغير مخططاتُ حمايةِ البيئةِ سلوكات الأفراد؟ ما هي الآثارُ النفسيةُ لمخططات احتجاز القاصرين في مراكز الإيواء؟

- فحص طبيعة متطلبات مختلف المجموعات داخل ساكنة مستهدفة، مثلا: ما هي حاجيات مختلف المجموعات الإثنية فيما يتعلق ببرامج الرعاية الصحية؟ كيف يستجيب الأشخاص المسنون لمبادرات الحماية؟ ما هي متطلبات مختلف المجموعات التي تشارك في مخططات محو الأمية؟

- استكشاف مجموعة من الأبعاد التنظيمية لبرنامجِ خدماتٍ، مثلا: ما هي متطلباتُ أخصائيي الاستشارة الشخصية لتقديم مشوراتٍ لزبناء الوكالات البنكية؟ كيف يجب استخدام صناديق الدعم بفعالية في مخططات التنمية المحلية؟





• استكشاف السياقات التي تتم فيها الاستفادةُ من التدخلات وتأثيرها ونجاعتها، مثلا: كيف تؤثر الظروفُ الشخصيةُ للأمهات العازبات في مشاركتهن في برامج التشغيل؟ كيف تؤثر طبيعة العلاقات المنهارة في استقبال خدمات الوساطة الأسرية؟

يميز مايكل سكريفن في البحث التقييمي بين نمطين من الدراسة: التقويمية والنهائية[8]. باختصار، تخصص التقييماتُ التقويميةُ لتوفير معلوماتٍ تساعد على تغيير أو تحسين برنامج أو سياسة، سواء أثناء تنفيذها أو عندما تظهر بعض المشكلات التي تعترض نجاحها. أما التقييم النهائي، فإنه يهتم بتأثيرِ تدخلٍ أو سياسةٍ من حيث الفعالية ومختلف النتائج التي تحققت. ويتفق معظمُ الباحثين على أن الدراسةَ الكيفيةَ يمكنها أن تساهم فقط في البحث التقويمي. بيد أن هناك خلافاً حول هذه النقطة، كما يشهد على ذلك موقف ريست الذي قام بجردٍ لعددٍ من الطرق التي يمكن بها للبحث الكيفي أن يعالج بعضَ المسائل التي تظهر أثناء تقييم آثار ونتائج سياسة أو برنامج ما[9].





4. **التوليد:** أي المساعدة على بناء النظريات والاستراتيجيات والتدخلات الاجتماعية.ينصب اهتمامُ البحث التوليدي على إنتاجِ أفكارٍ جديدةٍ سواء للمساهمة في تطوير نظرية اجتماعية أو صياغة حلول سياسية. ومادام البحث الكيفي يسعى إلى الإمساك بالمفاهيم المنبثقة وليس محدَّداً كليّاً منذ البداية، فإن له قدرةً كبيرةً على إنتاج أفكار أو مقترحات أصيلة وخلاقة. وهو يسمح أيضاً للأفكار بأن تنبثق من خلال السياقات الواقعية. ويُستعمَلُ البحثُ التوليدي من أجل:

8 – Scriven, M., «The Methodology of Evaluation», in R.W. Tyler, R.M. Gagne andM. Scriven (eds),Perspectives on Curriculum Evaluation, Chicago: Rand McNally, 1967.

9 – Rist, R.C., «Influencing the Policy Process with Qualitative Research», inN.K. Denzin and Y.S. Lincoln (eds),Handbook of Qualitative Research,2nd edition, Thousand Oaks, CA: Sage, 2000.





• بناء تصوراتٍ جديدةٍ وفهمٍ جديدٍ للظواهر الاجتماعية، مثلا: طبيعة «الإقصاء الاجتماعي»، النماذج الاجتماعية للإعاقة، التمثلات المتغيرة للأسرة والعلاقات الأسرية؛

• صياغة فرضيات حول طبيعة العالم الاجتماعي وكيفيات اشتغاله، مثلا: دور الصراع الديني في التوترات العرقية، طبيعة الأدوار الوالدية في العصر الرقمي، طبيعة البنيات الاجتماعية التي تؤدي إلى البطالة؛

• توليد حلول جديدة للمشاكل الاجتماعية المزمنة، مثلا: المخططات الجديدة لتقديم دعمٍ حقيقيٍّ للأشخاص المسنين الذين يعيشون لوحدهم، أساليب القضاء على دورات الأزمة الاقتصادية، تحديد طبيعة التدخلات للقضاء على العنف المدرسي.



• تحديد استراتيجياتٍ للتغلب على ظواهرَ أو مشاكلَ جديدةٍ، مثلا: التخفيف من ردود الفعل المبالغ فيها إزاء تهديدات الحرب البيولوجية، طرق إنعاش الاقتصاد الزراعي المأزوم، آليات تشجيع الحفاظ على الموارد البيئية النادرة.

• تحديد التدخلات الضرورية للرفع من نجاعة البرامج والسياسات والخدمات، مثلا: التغييرات الضرورية للمساعدة على التقليص من عدد المسجلين في لائحة الانتظار بالمستشفيات، طرق تشجيع مالكي السيارات على استعمال وسائل النقل العمومية، آليات للكشف المبكر عن استغلال الأطفال.

II. خصائص البحث الكيفي

هناك اختلافٌ حول كيفية تعريف البحث الكيفي. وأعتقد أن أسهل طريقة للقيام بذلك هي البدء بما يفعله المختصون في هذا النوع من البحث، وكيف يميزهم ذلك عن باحثين آخرين يستعملون مقاربات أخرى. وانطلاقا من هذا







المنظور، يمكن تحديدُ مجموعةٍ من الخصائص تشكّلُ القاسمَ المشتركَ بين مناهج البحث الكيفية، كالمقابلة المعمقة والملاحظة بالمشاركة والبحث الإثنوغرافي وتحليل الوثائق المكتوبة والسمعية البصرية والمجموعات البؤرية:

1. يهتم البحث الكيفي بالمعاني التي يضفيها الناس على الأشياء في حياتهم اليومية.[10] والمقصود بذلك أنه يسعى إلى فهم الحياة الاجتماعية للناس انطلاقاً من إطاراتهم المرجعية وتجاربهم المعيشة. لذلك يعمد الباحثون الكيفيون إلى التعاطف مع الناس الذين يدرسونهم ومحاولة التماهي معهم من أجل فهم كيف ينظر هؤلاء الناس إلى الأشياء. هذا الإجراء يصفه هوبيرت بلومر، أحد علماء الاجتماع التفاعليين الكبار، كما يلي: «أن يسعى الباحث إلى الإمساك بالعملية التأويلية [للفاعلين] انطلاقاً من موقع ما يسمى بـالملاحظ «الموضوعي» غير المتعاطف الذي يرفض أن يضع نفسه في مكان الفاعل، معناه أنه يخاطر بأسوأ أنواع الذاتية- فمن الأرجح أن يدخل الباحث إلى العملية التأويلية بتخميناته الخاصة بدلا من أن يمسك بالعملية كما تحدث فعلياً في تجربة الفاعل الذي يستعملها»[11].

غالبا ما يتمّ ربطُ البحث الكيفي بالمنظور التأويلي في العلوم الاجتماعية الذي لا يكون فيه منطقُ البحثِ هو اختبارُ نظرياتٍ معينةٍ حول ما يتحكم في السلوكات الاجتماعية، بقدر ما هو تقييمُ الدوافع الضمنية التي تحثّ الأفراد إلى فعل ما يفعلون. يرتكز البحث الكيفي إذن على مسلمةِ أن فهمَ الباحثِ للسلوكات الاجتماعية مشروطٌ بفهمه أولا للمعاني التي يحملها الناس عن العالم المحيط بهم، نظراً لأن هذه المعاني تميل إلى التحكم في سلوكاتهم. لذلك نلاحظ أن علماء المجتمع الذين يستخدمون البحثَ الكيفيَّ في دراسة الظواهر الاجتماعية يركزون

10 – Taylor, S.J., Bogdan, R. and DeVault, M.,Introductive to Qualitative Research Methods. A Guidebook and Resource, New Jersey: Wiley, 2016, p. 7.

11 – Blumer, H., Symbolic Interactionism: Perspective and Method, Englewood Cliffs,NJ: Prentice Hall, 1969, p. 86.







على فحص منظورات (آراء، اتجاهات، دوافع، مقاصد) الأفراد والجماعات الذين لهم صلة بتلك الظواهر[12].

وبصيغة أخرى، يهتم البحث الكيفي بدراسة كيف يفكر الناس ويتصرفون في حياتهم اليومية. وقد وصف الباحثون البحث الكيفي بأنه بحث طبيعي[13]، أي إن الباحثين ينهجون استراتيجياتٍ تقتدي بالطرق التي يتصرف بها الناس في مجرى حياتهم العادية، حيث يتفاعل الباحث مع مخبريه ومبحوثيه بطرق طبيعية وبشكل مستتر. ففي البحث المعتمد على الملاحظة بالمشاركة، يحاول معظمُ الباحثين أن يتقمصوا أدوار المبحوثين ويتقاسمون معهم حياتهم اليومية، على الأقل إلى أن يتوصلوا إلى فهم الوضعية. كما أن الباحثين الذين يستعملون المقابلات يقومون بنمذجتها في شكل محادثاتٍ تشبه المحادثات في الحياة العادية، وليس في شكل حوارٍ يعتمد السؤال والجواب.

كما يهدف البحث الكيفي إلى وصف التجارب الاجتماعية والنفسية للأفراد والجماعات «من الداخل»، أي انطلاقاً من وجهاتِ نظرِ الناس المشاركين في الدراسة كمبحوثين. وهو يسعى بذلك إلى بلوغِ فهمٍ أفضل للوقائع الاجتماعية وتسليط الضوء على العمليات الاجتماعية وأنساق المعنى والخصائص البنيوية.

في دراسةٍ كيفيةٍ كلاسيكيةٍ لسلوك وتجارب جماعةٍ من تلاميذ المدارس، طرح بول ويليس[14](Willis) سؤال: لماذا يميل أبناءُ الطبقة العمالية إلى دخول مهنِ الطبقة العاملة عندما يغادرون المدرسة؟ وبعد فترة من الملاحظة المكثفة والمطولة لعملية التمدرس ولسلوكات التلاميذ داخل الفصل وخارجه، فضلا عن إجراء

12 – Henn, M., Weinstein, M. and Foard, N.,A Short Introduction to Social Research, London, Thousand Oaks and New Dalhi: Sage Publications, 2006, p. 150.

13 – Taylor, Introductive to Qualitative Research Methods..., op. cit., p. 9.

14 – Willis, P.,Learning to Labour, Farnborough: Saxon House, 1977.





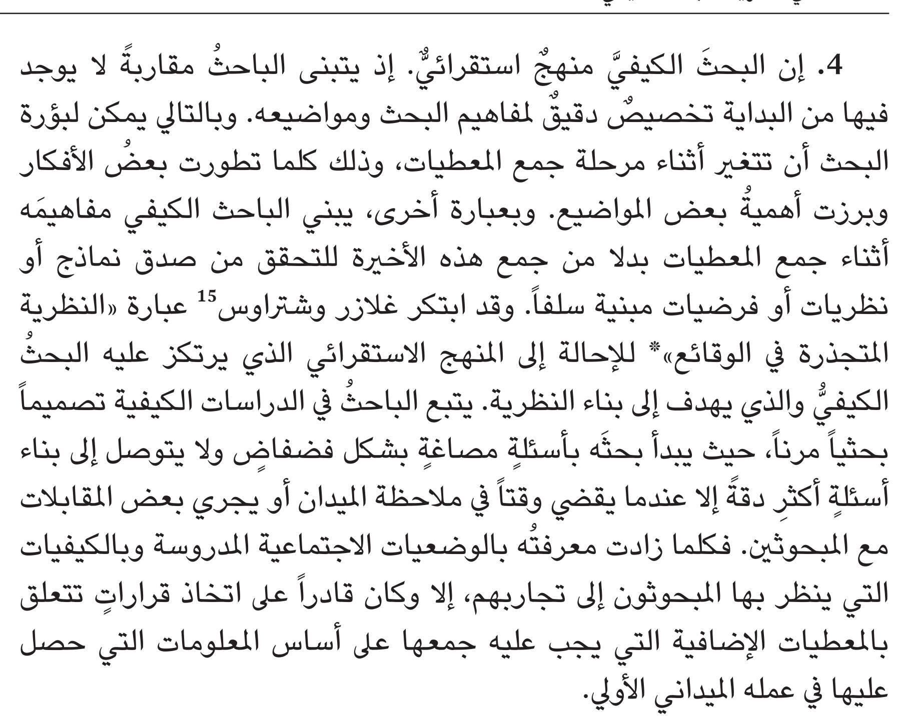
العديد من المقابلات (غير الرسمية)، بدأ ويليس يتوصل إلى فهمٍ تقمصيٍّ لتجارب التمدرس المشتركة بين التلاميذ. واستخلص أن المسارات التربوية التي سلكها هؤلاء التلاميذ محدَّدة جزئياً بهذه التجارب المشتركة. وكشفت له نتائجُ بحثِه عن وجودِ ثقافةٍ ضد مدرسية يرفض فيها التلاميذ التمدرس كعملية. هكذا، فإن سلوكَهم كان مبنيّاً من خلال تأويلاتهم المشتركة للتمدرس ولمكانتهم الخاصة داخل المدرسة.

2. يجري البحثُ في وضعياتِ «الحياة الواقعية». فلكي يفهم الباحثُ كيف يجرّب الناسُ العالمَ المحيطَ بهم، ولكي يحدد ما يوجّه سلوكهم، يحاول دراسةَ الفعل والكلام كما يحدثان بشكلٍ طبيعيّ، حارصاً على ألا يعرقل حياةَ الناسِ قدر الإمكان. يتجنب الباحث الكيفي المناهج الكمية، كاستمارات المسح والتجريب، نظراً لأنها تخلق وضعياتِ بحثٍ مصطنعةٍ نسبياً لا يمكن للباحث أن يدرس فيها وجهات النظر «الواقعية» والسلوكات «الواقعية». ولكي ينجح الباحث الكيفي في مقاربة الوضعيات الواقعية للناس، يكون مضطراً إلى النظر إلى هذه الوضعيات ولهؤلاء الناس بشكل شمولي، أي ككل، حيث لا يختزل الوضعيات والمبحوثين في متغيرات.



3. إن الهدفَ هو الحصولُ على وصفٍ دقيقٍ لسلوكات الناس وأفكارهم لتسليط الضوء على معانيها الاجتماعية. ويقتضي هذا الهدفُ من الباحث أن يتبنى منظورَ بحثٍ داخليٍّ يكون فيه من المحتمل جداً حدوثُ ألفةٍ وتقاربٍ بين الباحث والمبحوثين، وذلك بدلا من علاقة لاشخصية ومتباعدة. مثلا، يمكن لدراسة التغيب عن العمل أن تستلزم من الباحث أن يقضي وقتاً كبيراً في مقر العمل، يلاحظ كيف ينتظم العملُ والعلاقاتُ بين الفاعلين دون أن يشعر هؤلاء بأن حضوره يشكل خطرا عليهم. انطلاقاً من هذا الموقع الممتاز، سيهدف الباحث إلى تطوير علاقةٍ مع العاملين (لكسب ثقتهم) قصد تشجيعهم على الحديث بإسهاب وبصراحة حول المسائل التي يمكن أن تكون لها علاقةٌ بالتغيب عن العمل.





4. إن البحثَ الكيفيَّ منهجٌ استقرائيٌّ. إذ يتبنى الباحثُ مقاربةً لا يوجد فيها من البداية تخصيصٌ دقيقٌ لمفاهيم البحث ومواضيعه. وبالتالي يمكن لبؤرة البحث أن تتغير أثناء مرحلة جمع المعطيات، وذلك كلما تطورت بعضُ الأفكار وبرزت أهميةُ بعض المواضيع. وبعبارة أخرى، يبني الباحث الكيفي مفاهيمَه أثناء جمع المعطيات بدلا من جمع هذه الأخيرة للتحقق من صدق نماذج أو نظريات أو فرضيات مبنية سلفاً. وقد ابتكر غلازر وشتراوس[15] عبارة «النظرية المتجذرة في الوقائع»* للإحالة إلى المنهج الاستقرائي الذي يرتكز عليه البحثُ الكيفيُّ والذي يهدف إلى بناء النظرية. يتبع الباحثُ في الدراسات الكيفية تصميماً بحثياً مرناً، حيث يبدأ بحثَه بأسئلةٍ مصاغةٍ بشكل فضفاضٍ ولا يتوصل إلى بناء أسئلةٍ أكثرِ دقةً إلا عندما يقضي وقتاً في ملاحظة الميدان أو يجري بعض المقابلات مع المبحوثين. فكلما زادت معرفتُه بالوضعيات الاجتماعية المدروسة وبالكيفيات التي ينظر بها المبحوثون إلى تجاربهم، إلا وكان قادراً على اتخاذ قراراتٍ تتعلق بالمعطيات الإضافية التي يجب عليه جمعها على أساس المعلومات التي حصل عليها في عمله الميداني الأولي.

لا يكون من يجري بحثا كيفيا في حاجة سوى إلى حدٍّ أدنى من البناء المسبق للمعطيات التي تمّ جمعُها. لهذا السبب غالبا ما يُطلَقُ على الملاحظات والمقابلات المستعملة في البحوث الكيفية نعتُ «غير المبنينة». ينطلق الباحث الكيفي من ملاحظاته ويدوّن ملاحظاتٍ ميدانيةٍ يحاول أن يصف فيها ما رآه وما سمعه بالتفصيل، بدلا من دخول الحقل بمجموعة من المقولات المعدة سلفاً ووضع علامة عليها كلما لاحظ حالةً تتعلق بها.

---

15 – Glaser, B.G. and Strauss, A.L.,The Discovery of Grounded Theory: Strategies for Qualitative Research, Chicago: Aldine Transaction, 2012.

* – توجد تفاصيل أوسع حول النظرية المتجذرة في الوقائع في الفصل الثامن الذي يعرض تطبيقات تحليل المعطيات الكيفية.





لكن تجدر بنا إثارةُ انتباهِ الباحثِ إلى أن الاستقراءَ الخالصَ مسألةٌ مستحيلةٌ في الممارسة العلمية.فلابد للباحث الكيفي أن يشتغل داخلَ إطارٍ نظريٍّ معين[16]. فلا أحد يمكنه أن يشرع في البحث من فراغ، وإنما لابد أن يدشنه وهو يحمل في ذهنه أهدافاً وأسئلةً معينةً. بل لابد لقدرٍ من الاهتمامِ بالمعاني الاجتماعية أن يوجه انتباهنا إلى بعض أبعادِ الكيفية التي يفكر بها الناس ويتصرفون في وضعيةٍ معينةٍ وليس إلى أبعاد أخرى.

وفي هذا السياق تنبه مارجوري ديفولت[17] إلى أنه لا ينبغي أخذُ «النظرية المتجذرة» لغلازر وشتراوس بشكلٍ حرفيٍّ. وأشارت في نفس المقال إلى أن المعطيات المفقودة يمكن أن تكون بالنسبة للتنظير بنفس أهمية المعطيات المتوفرة. ووفقاً لأهداف الاستدلال الاستقرائي، يبدو أنه من الأهمية بمكان أن ينتبه الباحث إلى المفترضات غير المعلن عنها والمعاني غير المنطوقة.

5. يقومُ البحثُ الكيفيُّ على مبدأ **بناء النظرية وليس اختبار النظرية.** فالأفكارُ النظريةُ تصدر عن جمع المعطيات الأولية، ثم تستمر بعد ذلك في التأثير على الجمع اللاحق للمعطيات- إن هناك علاقةً حلزونيةً تراكميةً بين التأطير النظري وجمع المعطيات.إذ تُبْنَى بؤرةٌ أولى واسعةٌ منذ البداية، بدلا من اختبارِ فرضياتٍ محددةٍ بدقة. وإذا أردنا ترجمةَ هذا المبدأ إلى إجراء عملي، سنقول إن الباحثين في حقلِ البحوث الكيفية لا يبدؤون بأكثر من اهتمامٍ عامٍّ بنوعٍ معين من الظواهر أو المواضيع الاجتماعية، أي إنهم يبدؤون في صياغة نظرياتهم وفرضياتهم واختبارها أثناء جمع المعطيات وتحليلها، حيث يقومون بتدقيقٍ

16 – Ritchie, J., Lewis, J., Nicholls, C. M., and Ormston, R. (eds.), Qualitative ResearchPractice: A Guide forSocial Science Students and Researchers, (2nd ed.), London: Sage Publications, 2013.

17 – DeVault, M. L., «Ethnicity and Expertise: Racial-Ethnic knowledge in SociologicalResearch »,Gender & Society, 9, 1995: 612–631.







يزداد تدريجياً لمشكلة بحثهم. ويمكن أن نرجع هذا التصورَ المنهجيَّ إلى «النظرية المتجذرة» التي ابتكرها كل من غلازر وشتراوس والتي تقتضي من الباحث أن يبدأ بحثَه بمشكلةٍ عامّةٍ يريد استكشافَها، ثم يجري بحثَه الميداني ويدرس تلك المشكلةَ العامةَ من خلال التنقيب في المعطيات الميدانية عن العلاقات والأنماط، وبعد ذلك ينتقل إلى بناءِ النظريةِ من أجل تفسيرِ الأنماط. يبدو واضحاً، حسب النظرية المتجذرة، أن النظريةَ تنبثق من المعطيات الميدانية.

وعلى نفس النحو، إن الأسئلةَ التي يطرحها الباحثُ عادةً ما تكون أسئلةً مفتوحةً. ويجب على الباحث أن يدوّن ما يقوله مخبروه ومستجوَبوه بدقة بدلا من أن يقوم بتأويل إجاباتهم في ضوء أجوبة محدَّدة سلفاً تعرضُ عليهم لاختيار واحدةٍ منها. وباختصار، يتم في البحث الكيفي تطويرُ مقولاتِ بناءِ وتحليلِ المعطيات أثناء عملية جمع المعطيات وتحليلها وليس قبل ذلك.

6. دراسة حالةٍ واحدةٍ أو عددٍ قليلٍ جداً من الحالات، وفي الغالب في مدة زمنية طويلة (في الغالب بضعة أيام، لكنها يمكن أن تدوم سنوات، كما هو الحال بالنسبة لدراسة بايكر لجماعة توحيد الكنيسة)[18]. ففي علم اجتماع التنظيمات مثلا، تركز الدراساتُ عادةً على مؤسسة واحدة، أو على عدد قليل من الأقسام أو من المستخدمين. وفي علم اجتماع التربية، ينبغي التشديد على مدرسة واحدة، أو ربما على عدد قليل من الفصول الدراسية والمدرسين و/أو التلاميذ داخل مدرسة معينة. في هذا السياق، فإن ما يميز عملية جمعُ المعطيات هو أنها تكون مكثفة؛ فالدراسة الكيفية تقتضي جمعَ كمياتٍ كبيرةٍ من المعطيات من عددٍ صغيرٍ من المخبرين والوضعيات.

7. بخلاف الدراسة الكمية التي تستند إلى نوعٍ واحدٍ من المعطيات هي

18 – Henn, M., Weinstein, M. and Foard, N.,A Short Introduction to Social Research, op. cit., p. 156–159.





المعطيات الرقمية، يستعمل البحثُ الكيفيُّ قائمةً من أنواعِ المعطيات وليس نوعاً واحداً فقط. أكيدٌ أن المصدرَ الأساسي للمعطيات يكون في الغالب هو الملاحظات والمقابلات غير المبنينة، لكن يمكن للباحث أن يستعمل وثائقَ عامّةً وخاصّةً وإحصائياتٍ رسميةً والمعطيات المحصل عليها بالاستمارة. إن المبدأ التوجيهي هنا هو أن استعمالَ هذه المجموعة المتنوعة من المناهج والمعطيات يضع الباحث في موقعٍ قويٍّ لتطوير مقاربةٍ كشفيةٍ للموضوع.

يتم إيراد معطيات البحث الكيفي عموما في شكل عملياتِ وصفٍ وتفسيرٍ لفظيةٍ، ويحتل التكميمُ والتحليلُ الإحصائيُّ دوراً ثانوياً. وعادةً ما يستعمل الباحثون بعضَ «الاستشهادات» المباشرة لتسليط الضوء على القضايا التي تم تناولها في التعليق، فضلا عن الاستعمال الحر لهذه الاستشهادات.

8. لا يميز البحث الكيفي بين المواضيع من حيث الأهمية. إذ يرفض ما أطلق عليه هوارد بيكر «تراتب المصداقية»، أي افتراضَ أن وجهات نظر الناس الأقوياء أكثرُ مصداقية من وجهات نظر الضعفاء. فهدفُ البحث الكيفي هو دراسةُ كيف تبدو الأشياءُ من زوايا نظر مختلفة، أي انطلاقاً من وجهاتِ نظرٍ وتمثلاتِ أشخاصٍ يختلفون من حيث الوضعيات والأدوار والمكانات الاجتماعية. إن لرأي الطالب ورأي الأستاذ نفسَ القدر من الأهمية؛ نفسُ الشيء ينطبق على وجهات نظر الحدث المنحرف والقاضي والمساعد الاجتماعي؛ ومنظوريْ الطبيب النفسي والإنسان المصاب بالذهان؛ ورأييْ الباحث والمبحوث، الخ. ففي الدراسات الكيفية، غالباً ما يحظى الفقير والمنحرف بفرصتيهما للإدلاء بوجهتي نظرهما. وقد كتب أوسكار لويس الذي اشتهر بدراسته للفقراء في أمريكا اللاتينية: «لقد حاولت أن أعطي صوتاً للأشخاص الذين نادراً ما يُنْصَتُ إليهم»[19].

19 – نقلا عن:

Taylor, Introductive to Qualitative Research Methods..., op. cit., p. 10.







III. البحث الكيفي والبحث الكمي: أي فروق؟

قال ألبيرت إنشتاين يوماً: «ليس كلُّ ما يمكن عدّه مهمّاً، وليس كلُّ مهمٍّ يمكن عدّه». فالعلاقة بين الطبيعة النوعية للأشياء ودرجة أهميتها لا تتوقف على قابليتها للتكميم. ذلك أن هناك أسئلة تحتاج إلى إجابات رقمية، وأخرى لا تحتاج إليها. وعلى هذا الأساس، ينبغي للباحث أن يراعي معاييرَ دقيقةً في اختيار منهج البحث، وهي معايير ترتبط أساساً بأهداف البحث التي تقيم علاقةً وطيدةً بالإشكالية (أو الإشكاليات) المطروحة. فإذا كان الباحثُ يريد أن يعرف وزن الأفراد، عليه أن يستعمل مقياساً كميّاً. إذ يجب عليه أن يزن أجسادَهم، آخذاً بعين الاعتبار علاقةَ الوزن بالطول، وأن يقيسها على المعايير العادية إذا كان يرغب في معرفة ما إذا كانوا يعانون من السمنة أم لا. لكن إذا كان يريد أن يعرف ما تعنيه السمنة بالنسبة لهم، وكيف تؤثر على علاقاتهم الاجتماعية، وكيف يتصرفون للتكيف معها، فعليه أن يطرح عليهم أسئلةً حول تجربتهم مع السمنة، وأن يستمع إليهم.

تمكّن المناهجُ الكيفيةُ من دراسة الظواهر الاجتماعية دراسةً عميقةً ومفصّلةً. إنّ خوضَ الباحث للعمل الميداني دون أن يكون مكرهاً بمقولاتِ تحليلٍ محدَّدةٍ سلفاً يساهم في القيام ببحثٍ كيفيٍّ عميقٍ ومفتوحٍ ومفصّلٍ.

وجد الباحثون في العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، علم النفس، الخ) المهتمون بدراسة السلوك البشري والعالم الاجتماعي الذي تسكنه الكائناتُ الاجتماعيةُ صعوبةً متزايدةً في تفسير السلوك البشري بالاعتماد على إجراءات القياس الكمي. ذلك أن هذا النوعَ من القياس يقدم لنا معلومات عن عددِ الناسِ الذين قاموا بسلوكٍ معينٍ أو كم مرةً قاموا به؛ لذا إذا اقتضى البحثُ معرفةَ كم مرةً حدث شيءٌ ما أو كم عددُ من قام به، فمن الملائم استعمالُ المناهج الكمية. أما البحثُ الكيفيّ فإنه يحاول توسيعَ و/أو تعميقَ فهمنا للكيفية التي تحدث بها الأشياءُ كما تحدث في عالمنا الاجتماعي. فإذا كان سؤالُ البحث يقتضي دراسةَ كيف يختبر الناسُ شيئاً معيناً، أو ما هي وجهةُ نظرهم في هذا الشيء، أو





دراسةَ مجالٍ جديدٍ لم يتم فيه بعدُ التوصلُ إلى فهمٍ أو تحديدِ بعض القضايا (أي قبل بلورة الاستمارة)، أو دراسةَ موضوعٍ حسّاسٍ يحتاج إلى مرونة كبيرة لتجنب إثارةِ حساسيةٍ لدى المبحوثين، فإن المنهجيةَ الكيفيةَ تبدو أكثرَ ملاءمةً، وبالتالي الأكثرَ مردوديةً.

إن كلَّ بحثٍ، سواء كان ذا طابع كمي أو كيفي، يجب أن يقتضي مقاربةً صريحةً (بمعنى ليست فيها جوانبُ صوفيةٌ تتطلب قدراتٍ وكفاءاتٍ فوقَ طبيعية) ومنهجيةً (أي تتبعَ خطوات مضبوطة ومترابطة فيما بينها) للكشف عن بعض الأشياء، وذلك باستعمال المنهجِ الأنسبِ للسؤال المطروح. ولا ينبغي أن تغيب عن ذهن الباحث فكرةُ أنه ليست هناك طريقةٌ جيدةٌ واحدةٌ لجمع المعطيات وتحليلها؛ ذلك أن أسلوبَ البحث الذي يتم اعتمادُه يتوقف على طبيعة الإشكالية (أي أسئلة البحث المطروحة) التي يريد الباحث الإجابةَ عنها. علماً أن هدفَ كلِّ أنواعِ البحث السوسيولوجي والأنثروبولوجي هو إنتاجُ معطياتٍ صحيحةٍ وذاتِوجاهة ومصداقية، أي تقديمُ أجوبةٍ صحيحةٍ على الأسئلة المطروحة، التي يمكن استعمالها للخروج باستنتاجات صادقة.




يميل المنهج الكيفي إلى التركيز على ما يفسّر اختلافَ وجهاتِ النظرِ والتمثلات والرؤى التي يحملها الأفرادُ والجماعاتُ عن الواقع الاجتماعي؛ هذا بينما يميل البحثُ الكميُّ إلى التركيز على طرق وصف وفهم الواقع من خلال اكتشاف «قوانين» عامة تضبط الأشياءَ الاجتماعية. كما أن البحثَ الكيفيَّ قادرٌ على الإحاطة بتعقد السلوكات الاجتماعية المدروسة من خلال مقاربةِ السياقاتِ التي تجري فيها هذه السلوكات، إذ يمكنه أن يأخذ وجهاتِ نظرٍ مختلفةً بعين الاعتبار. زد على ذلك أن البحثَ الكيفيّ يدرس السلوكاتِ في مجالها الطبيعي أو يتخذ من تقاريرِ الناس عن الوقائع معطياتٍ وجيهةً. فضلا عن ذلك، فإن البحثَ الكيفيّ يركز على الوصف والتأويل ويؤدي إلى تطوير مفاهيم أو نظريات جديدة، أو إلى تقييم عملية تنظيمية معينة. وأخيراً، يتميز البحثُ الكيفيّ عن البحث الكميّ



بكونه يستعمل بروتوكولَ بحثٍ مرنٍ يمكنه التكيفُ مع تغيّر الوضعيات وانبثاق إحداثيات جديدة في وضعية البحث، لكنه يبقى مع ذلك بروتوكولاً منهجياً ونسقياً.

وخلاف ا لفكرة مغلوطةٍ رائجةٍ في أوساط طلاب العلم الاجتماعي، بل وبين الباحثين المحترفين، يعنى البحثُ الكيفيُّ أيضاً بتطويرِ تفسيراتٍ للظواهر الاجتماعية. فعلى الرغم من أن الاستقراءَ عادةً ما يتم ربطُه بالاستكشاف والوصف كأهدافٍ بحثيةٍ، فإنه ينبغي بلوغُ تفسيرِ الواقع الاجتماعي أثناء القيام بالبحث[20]. وبهذا المعنى، يهدف البحث الكيفي الاستقرائي إلى مساعدتنا على فهمِ العالم الاجتماعي الذي نعيش فيه، وكذا على معرفة لماذا تحدث الأشياء بالطريقة التي تحدث بها. إنه يهتم بالأبعاد الاجتماعية لعالمنا ويسعى إلى الإجابة على الأسئلة التالية: لماذا يتصرف الناس بالطريقة التي يتصرفون بها؟ كيف تتشكل الآراء والاتجاهات؟ كيف يتأثر الناس بالأحداث التي تجري حولهم؟ كيف ولماذا تطورت الثقافات والممارسات بالطريقة التي تطورت بها في الواقع؟

الجدول رقم 1: **الفروق الجوهرية بين البحث الكيفي والبحث الكمي**

	البحث الكيفي	**البحث الكمي**
أهداف الدراسة	الكشف عن وجهات نظر الأفراد أو الجماعات وتمثلاتهم حول الواقع الاجتماعي، ومشاعرهم، وتجاربهم (الاستكشاف، الاكتشاف، البناء)	اكتشاف "القوانين العامة" التي تنتظم الحياة الاجتماعية للبشر وفقا لها (الوصف، التفسير، التنبؤ)
البؤرة	عدسة واسعة الزاوية: يدرس اتساع الظاهرة وعمقها	عدسة ضيقة الزاوية: يختبر فرضيات محددة سلفاً

20 – Ibid., p. 25.



منهج الدراسة	التأويل (البحث عن المعاني)	التفسير (التركيز على علاقة الأسباب بالنتائج) والتنبؤ
المنهج العلمي	استكشافي أو تصاعدي: يستخرج الباحث فرضيات جديدة والنظرية من المعطيات التي جمعها (توليد الفرضيات)	إثباتي أو تنازلي: يختبر الباحث الفرضيات والنظرية بواسطة المعطيات (اختبار الفرضيات)
الجماعة المدروسة	صغيرة ومنتقاة بشكل غير عمدي	كبيرة ومنتقاة بشكل عشوائي
الوضع الإبستيمولوجي	الاستقراء	الاستنباط
المعطيات	كيفية وكمية (كلمات، صور، أشياء، سلوكات)	كمية (أرقام وإحصاءات)
تحليل المعطيات	تحديد الأنـمـاط، الخصائص، المواضيع	تحديد الترابطات الإحصائية
طبيعة الواقع المدروس	واقع متعدد وذاتي	واقع واحد وموضوعي
الموضوعية والذاتية	الذاتية مرغوب فيها	الموضوعية أمر بالغ الأهمية
النتائج	نتائج خاصة وأقل قابلية للتعميم	نتائج قابلة للتعميم على مجتمعات إحصائية مشابهة
النظرة إلى السلوك البشري	ديناميكي، مموضع، اجتماعي وشخصي	منتظم وقابل للتنبؤ
العينة	غير احتمالية	احتمالية
التقرير النهائي	تقرير سردي يتخلله وصف السياق واستشهادات مباشرة وحرفية من المعطيات الخام	تقرير إحصائي تتخلله ترابطات ومقارنات بين الوسائل والدلالة الإحصائية للنتائج



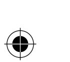





الفصل الثالث

العينة

I. حجم العينة
II. معايير التشبع
III. اختيار العينة



قبل الشروع في مناقشة العينة وحجمها وطبيعتها في البحوث الكيفية، نودُّ الإشارةَ إلى أن الباحثين المبتدئين كثيراً ما يطرحون أسئلةً تتعلق بالمدة التي يجب أن تستغرقها المقابلةُ الواحدةُ وكم من المقابلات ينبغي إجراؤها مع المبحوث الواحد. ورداً على هذه الأسئلة المشروعة والحاسمة في البحوث الكيفية، سنورد التقديرَ الذي قدمته راثلين جوسيلسون في كتابها **المقابلة في البحث الكيفي: مقاربة علائقية**[1]. تدوم معظمُ المقابلاتِ على الأقل ساعة واحدة، لكنها يمكن أن تصل إلى أربع ساعات (مع استراحة أو استراحتين)، تبعاً لما إذا كان من المعقول برمجةُ مقابلةٍ ثانيةٍ مع نفس المبحوث. يستحسن عموماً أن يبرمج الباحثُ مقابلاتٍ لمدة ساعتين، وأن يخبر المبحوثَ بأنه من الصعب التنبؤ بالمدة التي يمكن أن تستغرقها المقابلةُ بالضبط. ويجب على الباحث ألا يتسرع في إجراء المقابلة. فإذا قطع المبحوثُ مسافةً طويلةً من أجل إجراء المقابلة، تنبغي برمجةُ وقتٍ إضافيٍّ حتى يتمّ إتمامُ المقابلة في لقاء واحد. وإذا كان الباحثُ يقيم على مقربة من المبحوث، فمن الممكن توقيف المقابلة وتحديد موعد آخر لإنهائها. يمكن للمقابلة الأولى أن تستمر إلى أن يتعب الباحثُ أو المبحوث، ومن المرجح أن يكون هو الباحث، نظراً لأن المبحوثَ يشعر بطاقة كبيرة للكلام وبسعادة للاستمرار في الحديث. بيد أن التركيزَ الذهنيَّ للباحث على تفاصيل كلام المبحوث عملٌ مُتعِبٌ جداً، ويجب على الباحث ألا يتحدى قدرتَه على التحمل.

1 – Josselson, R., Interviewing for Qualitative Inquiry. A Relational Approach, New York & London: The Guilford Press, 2003, p. 52-53.









يمكن للباحث برمجةُ أكثرِ من مقابلة واحدة مع المبحوث الواحد تبعاً لموضوعه ونطاق المواد التي يرغب في تغطيتها. وتتمثل مزايا المقابلة الثانية في كون المبحوث يكون قد فكر فيما قاله في المقابلة الأولى، وبالتالي فإن موادَ جديدةً تنبثق في ذهنه ويريد التصريح بها. لكن هذه المقابلة الثانية ليست ضروريةً لأنه يمكن للبحث الكيفي الجيد أن يُنجَزَ بواسطة مقابلةٍ واحدةٍ مع المبحوث الواحد أو بواسطة مقابلتين معه.

I. حجم العينة

وعلى صعيد آخر، اعتدنا طوال سنواتٍ من التدريس على تلقي أسئلةٍ من طلبتنا تتعلق بعدد المقابلات التي ينبغي إجراؤها على العموم. وكان ردّنا هو أنه يجب على الباحث في العلوم الاجتماعية أن يستعمل اللغةَ التقنيةَ الخاصّةَ بالبحث السوسيولوجي، ولذلك ينبغي له أن يسمي العمليات المنهجية بمسمياتها التقنية المتفق عليها بين المنظرين لمناهج البحث الاجتماعي. وعوض أن يسأل «ما هو عدد المقابلات الضروري في البحث الكيفي»، يجب عليه أن يطرح السؤال بالصياغة التالية: «ما هو حجمُ العينة من المقابلات (فردية أو جماعية، مبنينة أو غير مبنينة، معمقة أو إثنوغرافية...) أو الوثائق الضروريُّ للبحث الكيفي؟».

ونود هنا أن نثير انتباهَ طلاب العلوم الاجتماعية والباحثين إلى أن المكانةَ المركزيةَ التي يشغلها حجمُ العينة في البحوث الكيفية دفعت الجامعات الخمسين التي تحتل أولى المراتب في تصنيف الجامعات في العالم إلى وضع هذه النقطة ضمن شروط التسجيل في مسالكها الاجتماعية: ذلك أنها أصبحت تشترط من الراغبين في التسجيل توثيقَ حجم العينة التي ينوي استعمالَها في بحثه، أي أن يحدد عددَ الوثائق أو المقابلات أو المجموعات البؤرية التي سينجزها ولماذا[2].

2 – كمثال على ذلك، نقدم رابط جامعة طورونطو:

http://www.qualitative-research.net/index.php/fqs/article/viewArticle/1428/3027#footnote_3







يتأثر حجمُ العينة في البحث الكيفي بالعديد من العوامل. أول هذه العوامل هو نطاقُ البحث: إذ تنبغي مراعاةُ حجم المجتمع الإحصائي المدروس، وبالتالي يكون من المنطقي الزيادةُ في عدد المبحوثين تساوقاً مع اتساع نطاق البحث. والهدف من ذلك هو إجراء لقاءات مع مبحوثين يغطّون النطاقَ كلَّه. ويتوقف حجمُ العينة الكيفية أيضاً على طبيعة المقاربة المنهجية والتحليلية، كما هو الحال مثلا في النظرية الفينومينولوجية التي تحتاج إلى عددٍ صغيرٍ من المقابلات المعمّقة والطويلة نظراً للهدف المرتبط بهذه النظرية، وهو استكشافُ التجارب الذاتية للمبحوث وعوالمه المعيشة، أي كيف تنعكس عوالُمه في وعيه المباشر. كما يتوقف حجمُ العينة على ما إذا كان الباحث يجمع معطياتٍ أخرى: كأن يجمع في نفس الوقت معطياتٍ كميةً أو معطياتٍ كيفيةً أخرى بوسائل كيفية أخرى كالملاحظة بالمشاركة مثلا، الشيء الذي يبرر حجمَ العينة الصغير من المقابلات. فضلا عن ذلك، يجب على الباحث وهو يحدد حجمَ عينته أن يأخذ بعين الاعتبار درجةَ الخبرة التي يتوفر عليها المستجوَبون بخصوص الموضوع المدروس: فكلما زادت خبرتهم بالموضوع إلا وتقلص عدد حجم العينة، وكلما كانت خبرتهم بالموضوع ضعيفة كلما كان الباحث ملزماً بالرفع من عدد مستجوَبيه. وتبعاً لهذه العواملِ كلِّها، دافع بعضُ الخبراء على حجمٍ ضيقٍ من الحالات، مثل غيس وزملاؤه[3] الذين حددوا هذا الحجم في عدد يتراوح بين 6 و12، مشددين على أن «التشبع»[4] يتحقق في الحالة 12 على أكبر تقدير، وعلى أن وضوحَ المواضيعِ الأساسيةِ يبدأ في التحقق بعد المقابلة السادسة، لاسيما إذا كان نطاقُ البحث ضيقاً والجمهورُ المستهدف متجانساً. هذا بينما حدد برانين[5] وزملاؤه حجم العينة الكيفية بين 1 و260




3 – Guest, G., Bunce, A. and Johnson, L., «How manyinterviews are enough? An experiment with data saturationand variability»,Field Methods, 18 (1), 2006: 59–82.

4 – قدمنا عرضاً مفصلاً عن مفهوم «التشبع» فيما يلي من هذا الفصل.

5 – Brannen, J., «Expert Voices», In S.E. Baker & R.Edwards (eds), How Many Qualitative Interviews is Enough? NationalCentre for Research Methods Review Discussion Paper, 2012, pp. 16–17.





مقابلة. لكنهم وجدوا أثناء قراءاتهم للأدبيات المتعلقة بهذه النقطة أن هناك «فقط 11 مصدراً يقدم مبادئ توجيهية لحجم العينة الفعلي»[6].

وهذه المصادر هي:

• في الإثنوغرافيا والطب الإثني: حددت مورس[7] للدراسات التي تشتغل في هذين المجالين عينةً تتراوح بين 30 و50؛ وصرح برنارد[8] بأن معظم الدراسات في الطب الإثني استعملت بين 30 و60 مقابلة.

• منهجية النظرية المتجذرة في الواقع: تحدث كريسويل[9] عن عينةٍ تتراوح بين 20 و30 مقابلة؛ بينما حددتها مورس[10] في حجمٍ يتراوح بين 30 و50 مقابلة.

• البحث الفينومينولوجي: حدد كريسويل[11] حجمَ العينةِ بين 5 و25 مقابلة؛ في حين تحدثت مورس[12] عن 6 مقابلات على الأقل؛

• مجموع نظريات البحث الكيفي: يؤكد بيرطو[13] أن 15 مقابلةً هو حجمُ العينة الأدنى المقبول.

6 – Guest et al., «How manyinterviews are enough?... », op. cit., p. 61.

7 – Morse, J.M., «Designing Funded Qualitative Research», In N.K. Denzin and Y.S. Lincoln (eds.), Handbook of Qualitative Research, 2nd ed., Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1994: 220–235, p. 225.

8 – Bernard, H.R.,Social Research Methods, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2000, p. 178.

9 – Creswell, J,QualitativeInquiry and Research Design: Choosing Among Five Traditions, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1998, p. 64.

10 – Morse, «Designing Funded... », op. cit., p. 225.

11 – Creswell, QualitativeInquiry..., op. cit., p. 64.

12 – Morse, «Designing Funded... », op. cit., p. 225.

13 – Bertaux, D., «From the Life-History Approach to the Transformation of Sociological Practice», in D. Bertaux (ed.), Biography and Society: The Life History Approach in the Social Sciences, London: Sage Publications, 1981: 29–45, p. 35.







تجدر الإشارةُ إلى أن هذه الأرقامَ يقدمها هؤلاء الباحثون للاسترشاد بها لا غير، فهم لم يقدموا أيَّ استدلالٍ تجريبيٍّ ليبرهنوا على مصداقية هذه الأرقام. كما أنهم لم يناقشوا الأسبابَ التي جعلتهم يعتقدون أن هذه النظرية في البحث الكيفي تستلزم من عددِ المبحوثين أكثرَ مما تستلزمه نظريةٌ أخرى.

علاوة على ذلك، تَبَيَّنَ لباحثين آخرين أن حجمَ العينة يختلف بشكلٍ كبيرٍ جداً بين مختلفِ البحوث التي استعملت النظريةَ الكيفيةَ نفسَها، كما هو شأنُ دراساتٍ أجريت تحت يافطة «النظرية المتجذرة في الواقع»؛ فقد قام بروس طومسون[14] بدراسة 50 دراسة منها، ولاحظ أن أحجام العينة تتراوح بين 5 و350 مقابلة؛ كما استنتج أن 34% فقط من هذه الدراسات استعملت عينةً تتراوح بين 20 و30 (كما اقترح كريسويل)، بينما 22% منها استعملت عينةً تجاوز عددُها 30 مقابلة (كما اقترحت مورس).

II. معايير التشبع

لاحظنا مما تقدم أن هناك اختلافاً جوهرياً بين الباحثين في تقدير حجم العينة المطلوبة في البحوث الكيفية. لكن، ورغم هذا الاختلاف، فإنهم يتفقون على معيارٍ موحَّدٍ يُعَدُّ الأداةَ المنهجيةَ التي يقيسون بها حجمَ العينة الضروريَّ لإنجازِ بحثٍ ذي مصداقية، وهذا المعيار هو ما أطلقوا عليه «التشبع» (saturation). ولتوضيح هذه الفكرة للباحثين الطلاب، يمكن أن نمثلها بإسفنجة نغطسها في سائل (الماء مثلا)؛ فهي تمتص الماء إلى أن تبتل كلياً ولا تعود قادرة على امتصاص مزيد منه، بمعنى أنها تتشبع بالماء وينبغي عصرُها إذا أردنا أن تمتص مزيداً من الماء. هذه الوضعية التي توجد فيها قطعةُ الإسفنج عندما لا تعود قادرةًعلى امتصاصِ السائل نسميها «حالة التشبع». فما معنى التشبع في حالة البحث الكيفي بواسطة المقابلات؟

14 - Thomson, B.S., Qualitative research: Grounded theory—Sample size and validity, 2004.http://www.buseco.monash.edu.au/research/studentdocs/mgt.pdf





عموماً، غالباً ما تكون عينةُ الدراساتِ الكيفيةِ أصغرُ بكثيرٍ من عينة الدراسات الكمية، وذلك نظراً لأن التكرارات في البحث الكيفي لا تحظى بنفس القدر من الأهمية كما هو الحال في البحوث الكمية، بحيث أن ورودَ معلومةٍ مرةً واحدةً يمكن أن يكون مفيداً بقدر ورودِها عدةَ مراتٍ في فهمِ موضوعٍ معينٍ، علماً أن البحثَ الكيفيَّ معنيٌّ أساساً بالمعنى ولا يسعى إلى تعميم نتائجِ البحث على المجتمع الإحصائي برمته[15]. وكذلك نظراً لأن البحث الكيفي يتطلب عملاً كثيفاً، وبالتالي فإن تحليلَ عينةٍ كبيرةٍ يمكن أن يكون مضيعةً للوقت وغالبا ما لا يكون أمراً عملياً.

يمكن أن تكون لمبحوثين مختلفين وجهاتُ نظرٍ وتمثلاتٌ وسلوكاتٌ ومشاعرُ مختلفة. لذلك ينبغي لعينة البحث الكيفي أن تكون واسعةً كفايةً لكي تشمل معظمَ، إن لم يكن كلَّ التمثلات المهمة. لكن في نفس الوقت إذا كانت العينةُ كبيرةً جداً، فإن المعطياتِ ستتكرر بشكل كبير فتصبح زائدةً وغيرَ ضرورية. إن الوفاء لمبادئ البحث الكيفي يقتضي من الباحث الالتزام بقاعدة «التشبع» الذي يعني أن جمعَ معطياتٍ متكرِّرَةٍ لا يفيد في تسليط مزيد من الضوء على الموضوع المدروس.

تشير كاثي شارماز[16] إلى أن أهدافَ الدراسة هي التي تحدد في النهاية تصميمَ المشروع البحثي، وبالتالي تحدِّد حجمَ العينة. وتقترح الباحثةُ فكرةَ أن دراسةً صغيرةً ذاتَ «أهداف متواضعة»[17] يمكن أن تحقق التشبع أسرعَ من دراسةٍ تهدف إلى وصفِ عمليةٍ عابرةٍ للتخصصات (مثلا وصف الإدمان على المخدرات في جماعة معينة بدلا من وصف الإدمان بشكل عام).

15 – Crouch, M. and McKenzie, H., «The Logic of Small Samples in Interview Based Qualitative Research»,Social Science Information, 45(4), 2006: 483–499.

16 – Charmaz, K., Constructing grounded theory: A practical guide through qualitative analysis, Thousand Oaks, CA: Sage, 2006.

17 – Ibid., p. 114.





وقد اختل الباحثون في تحديدِ حجمِ وطبيعة العوامل التي تؤثر على حجم العينة، وبالتالي على مبدأ التشبع، في الدراسات الكيفية. فقد استعرضت ريتشي وزميلتيها[18] خمسةَ عوامل يمكن أن تؤثر على الحجم الممكن للعينة، وهي: عدم تجانس الساكنة؛ عدد معايير الانتقاء؛ الجماعات ذات الأهمية الخاصة التي تتطلب دراسة مكثفة؛ عينات متعددة داخل دراسة واحدة؛ أنواع المناهج المستعملة في جمع المعطيات؛ الميزانية والموارد المتاحة». ويضيف مورس[19] إلى ذلك «نطاق الدراسة، وطبيعة الموضوع ، وجودة المعطيات، وتصميم الدراسة». وتقترح جيت وزميلتاها[20] أن خبرةَ الباحثِ في اختيار الموضوع تقلّص من حجم عدد المبحوثين الذين تحتاجهم الدراسة، بينما يقول فريق ديان لي[21] إن البحث الذي يستعمل أكثرَ من منهجٍ واحدٍ أو الذي يستعمل أكثرَ من نوعٍ واحدٍ من المقابلات مع المبحوث الواحد يحتاج عدداً قليلا من المبحوثين.



لكنّ مبدأَ التشبّعِ يطرح عدةَ إشكالاتٍ يجب على الباحث أن يكون واعياً بها لكي ينتج معطياتٍ كيفيةٍ ذاتِ مصداقية. وأهمُّ هذه الإشكالات هو معرفةُ متى يتحقق التشبع. فالباحثُ غالباً ما يشعر بأنه حقق التشبع، لكنه يكون عاجزاً عن إثبات ذلك الشعور. وبالفعل، نصادف في كثيرٍ من البحوث، بما فيها التي أنجزها باحثون محترفون، إعلانَ الباحثِ عن كونه بلغ مستوى التشبع، لكنه لا يصف لنا

18 – Ritchie, J., Lewis, J. and Elam, G., «Designing and selecting samples», In J. Ritchie and J. Lewis (eds.), Qualitative Research Practice. A Guide for Social Science Students and Researchers, Thousand Oaks, CA: Sage, 2003: 77–108, p. 84.

19 – Morse, J.M., «Determining Sample Size»,Qualitative Health Research, 10(1), 2000: 3–5, p.4.

20 – Jette, D.J., Grover, L. and Keck, C.P., «A Qualitative Study of Clinical Decision Making in Recommending Discharge Placement From the Acute Care Setting»,Physical Therapy, 83(3), 2003: 224–236.

21 – Lee, D., Woo, J. and Mackenzie, A.E., «The Cultural Context of Adjusting to Nursing Home Life: Chinese Elders' Perspectives»,The Gerontologist, 42(5), 2002: 667–675.





بوضوح ماذا يقصد بذلك أو كيف تحقق التشبع. ولهذه الغاية، تقدم شارماز[22] مثالَ الباحثِ الذي يدرس الوصمَ بالنسبة للنساء البدينات: فمن الممكن جداً أن يدعي الباحثُ أن مقولة «تجربة الوصم» بلغت مرحلة التشبع بسرعة. بيد أنه بينما يمكن لباحثٍ قليلِ التجربةِ أن يصرح بأنه حقق التشبع، سيستمر باحثٌ ذو تجربة أكبر في استكشاف سياق الوصم في أدق تفاصيله ودراسة ما يعنيه الوصمُ بالنسبة لكلِّ واحدة من هؤلاء النساء.

من جهتهما، يشير شتراوس وكوربان إلى أن التشبع هو «مسألة درجة»[23]: فكلما طالت مدةُ الدراسة أكثر وزادت ألفةُ الباحث مع معطياته إلا وكان هناك احتمالُ «انبثاقِ شيءٍ جديدٍ». ويستخلص الباحثان أنه ينبغي للباحث أن ينشغل بالتشبع عندما يصل هذا الأخير إلى نقطةٍ يصبح معها مصدراً لنتائج عكسية، وعندما لا يصبح «الجديدُ» المكتشفُ يضيف أيَّ شيءٍ للقصة أو النموذج أو النظرية أو إطار العمل[24]. ففي بعض الأحيان، لا يكون سببُ مشكلة استخلاص النتائج هو قلّةُ المعطيات، بل كثرتها. لذلك يجب على الباحث أن يتعلم الانضباطَ المنهجيَّ وتجنبَ الإفراط والتوقف عن جمع المعطيات في الوقت المناسب.

III. اختيار العينة

عندما يشرع الباحثون في وصفِ استراتيجياتِ اختيار العينة في العلم الاجتماعي، فإنهم يجرون تمييزاً بين العينة الاحتمالية والعينة غير الاحتمالية[25]. إن اختيارَ العينة الاحتمالية أكثرُ مقارباتِ اختيارِ العينةِ صرامةً للبحث

22 – Charmaz, Constructing grounded theory..., op. cit., p. 114.

23 – Strauss and Corbin, Basics of Qualitative Research..., op. cit., p. 136.

24 – Ibid., p. 136.

25 – Romney, A. K., Weller, S. C., and William H. Batchelder, W. H., «Culture as Consensus: A Theory of Culture and Informant Accuracy», American Anthropologist, 88(2), 1986: 313-338, p. 78.





الإحصائي، لكنها مقاربةٌ غيرُ ملائمةٍ للبحث الكيفي. ففي العينة الاحتمالية، يتم انتقاءُ العناصرِ من المجتمع الإحصائي بطريقة عشوائية ويكون لها نفسُ القدر من احتمال الانتقاء، أي لا يكون احتمالُ حضورها في العينة منعدما. وبالمقابل، إن العينةَ المستخدمةَ في البحث الكمي عينةٌ غيرُ احتمالية، أي إن حظوظَ «وحدات البحث» (أفراد، جماعات، مؤسسات، وثائق، الخ) في اختيارها ضمن العينة ليست متساويةً، بحيث يكون احتمالُ حضور بعضها في العينة مساوياً لصفر. ولذلك يعمد الباحثون الكيفيون إلى انتقاء أماكن البحث والمشاركين وفق مبدأي الكوطا والملاءمة. ولما كان اختيارُ العينة غير الاحتمالية لا يتم بطريقة عشوائية، فإن تلك العينة لا تسمح بقياس أخطاء التمثيلية. كما لا يمكن تعميمُ النتائجِ المُحصَّلِ عليها على مجموع المجتمع الإحصائي.

يستعمل ممارسو البحث الكيفي تقنية العينة النظرية (وهي عينة عمدية) أو تقنية عينة كرة الثلج. ويهدفون بها إلى اختيارِ نماذجَ أو أنماطٍ معينةٍ من وحدات البحث التي لها علاقةٌ بالموضوع المدروس، الشيء الذي يجعلها قادرةً على الإجابة عن الأسئلة المطروحة. وبعبارة أخرى، إن هذا الأسلوبَ في انتقاء العينة يهدف إلى النمطية (typicalité) وليس إلى قابلية التعميم (généralisabilité). ومع ذلك، في الوقت الذي لا تكون فيه مبادئُ التمثيلية وقابليةُ التعميم المطبقة عموماً في البحث الكمي ملائمةً للبحث الكيفي، فإن العينة النظرية، التي يتم فيها انتقاءُ المشاركين في البحث وأماكن البحث على أساس صلتهم وصلتها بالبؤرة النظرية للبحث، تسمح بدرجة معينة من التعميم. إن الهدفَ الأساسيَّ للباحثين في البحث الكيفي هو فهمُ العمليات الاجتماعية وليس الحصول على عينةٍ تمثيليةٍ[26]. لذلك يتمّ اختيارُ الوضعيات والمشاركين بواسطة عينة كرة الثلج والعينة النظرية. يعرّف غلازر وشتراوس[27] العينةَ النظريةَ بأنها «عمليةُ جمعِ المعطياتِ من أجل

26 – Arber, S., «Designing Samples», In N. Gilbert (ed.), Researching Social Life, London: Sage, 1993: 68–92, p. 73.

27 – Glaser, B.G. and Strauss, The Discovery of Grounded Theory..., op. cit., p. 45.





إنتاجِ نظريةٍ في الوقت الذي يقوم فيه المحلِّلُ في نفس الوقت بجمع وتشفير وتحليل معطياته، ويقرر أيَّ معطياتٍ يجب عليه جمعُها في المرحلة اللاحقة وأين سيجدها بغية تطوير نظريته عندما تنبثق». وبعبارة أبسط، يمكن تعريفُ العينة النظرية بأنها عمليةُ جمعِ وتشفيرِ وتحليلِ المعطيات في وقت واحد، وذلك بهدف توليد نظرية معينة. وترتبط تقنيةُ اختيارِ العينة بالنظرية المتجذرة في الواقع، التي تقوم على مبدأ إنتاج النظرية أثناء القيام بالبحث الميداني. إن العينةَ النظريةَ تخضع كلياً لعمليةِ انتقاءِ هؤلاء المستجوَبين الذين سيساهمون في تطوير النظريةِ التي يسعى إليها الباحث. لذا يجب أن يكون هدفُ عملية انتقاء العينة هو تعيينُ معطياتٍ استراتيجيةٍ يمكن أن تدحض الفرضيات الناشئة. وتتوقف عمليةُ اختيار العينة عندما يتم بلوغ «التشبع النظري»، أي عندما لا تعود الوضعيةُ تنتج أيَّ رؤى تحليلية جديدة[28]. أما عينة كرة الثلج، فإنها تقنيةٌ غيرُ احتمالية لاختيار العينة، تستعمل في الوقت الذي يصعب فيه على الباحث تعيينُ أعضاءِ الجماعة المدروسة، كما هو الحال بالنسبة للأشخاص بدون سكنٍ قار، أو ممتهني وممتهنات الجنس، أو أيِّ فئةٍ من السكان لا تتوفر بخصوصها لائحةٌ كاملةٌ بأسمائهم وعناوينهم، الخ. لذلك يكون على الباحث أن يعتمد هذه الطريقةَ غيرَ الاحتمالية لاختيار العينة، ويقوم بجمع المعطيات من الأعضاء القليلين الذين يكون بمقدوره بلوغهم، ثم يطلب من هؤلاء الأعضاء معلوماتٍتمكنه من بلوغ أعضاء آخرين[29]. وبهذه الطريقة يكون بإمكان الباحث توسيعُ عينته، كما تفعل كرة الثلج المتدحرجة من أعلى الجبل التي يزداد حجمها بموازاة مع تدحرجها.

وباختصار، إذا كان هدفُ الباحث الكمي هو الحصولُ على عينةٍ ذاتِ تمثيليةٍ إحصائيةٍ، فإن الباحثَ الكيفي الذي يستعمل العينة النظرية يركز على البعد التمثيلي للمفاهيم في البحث وعلى أن يكون قادراً على فهم العملية الاجتماعية التي

28 – Arber, «Designing...», op. cit., p. 74.

29 – Babbie, E.,The Basics of Social Research, 6th Ed., Belmont, CA: Wadsworth Thomson, 2014, pp. 200–201.





يدرسها. إن العينة النظرية تؤدي إلى انتقاء المبحوثين عندما تكون الظواهرُ التي يهتم بها الباحثُ محتملةَ الحدوثِ جداً، ويأتي التعميمُ بعد ذلك كمنطقٍ نظريٍّ- مع «قابلية الحالة للتعميم على القضية النظرية وليس على المجتمع الإحصائي أو على العوالم»[30]. إن البحث الكيفي الجيد يهدف دوما إلى إنتاج «صدى واسع» بدلا من أن يكتفي بنتائج «متفردة وخاصة بإحداثيات البحث التجريبية المحدودة»[31]. وتتعارض هذه المقاربةُ تماماً مع دراساتِ البحث الكمي التي تستعمل الاستمارات المخصصة لدراسة عدد كبير جداً من الحالات، مع تخصيصِ وقتٍ أقصرَ لجمع معطيات الحالة الواحدة.

30 – Bryman, A., Quantity and Quality in Social Research, London: Sage, 1998, p. 90.

31 – Mason, J., Qualitative Interviewing, London: Sage, 1996, p. 6.






الفصل الرابع

الفرضيات والتعميم

I. الفرضيات

II. التعميم

1. تعريفات التعميم

2. مقاربات التعميم

أ. مقاربات التعميم

ب. التعميم الاستدلالي

ج. التعميم التمثيلي





I. الفرضيات

أشرنا في الفصل السابق إلى أن البحثَ الكيفيَّ مقاربةٌ استقرائيةٌ، بخلاف البحث الكمي الذي هو مقاربةٌ استنباطيةٌ. ففي العلوم الطبيعية، يبدأ العالِمُ بحثَه ببناءٍ نظريةٍ (أي بطرح مجموعة من الأسئلة، وهي الإشكالية، وبصياغة مجموعة من الفرضيات)، ثم يخضعها للملاحظة قصد اختبار صدقها. هذا النوعُ من الدراسة يسمى المنهج **الاستنباطي**، وهو المنهجُ هو الأكثرُ تأثيراً في بحوثِ العلوم الاجتماعية أيضاً. إذ يبدأ الباحثُ بمبادئَ عامّةٍ ويستنبط (يستنتج) ما إذا كانت صحيحةً. لا تنبثق النظريةُ الاستنباطيةُ من المعطيات، بل يتم تصوّرُها مسبقاً وتطبيقُها على المعطيات.[1] ولكي يطبق الباحثُ نظريتَه على المعطيات، يصيغ فرضيةً أو فرضياتٍ، وهي تنبؤاتٌ خاصّةٌ (أي تفسيراتٌ مؤقتةٌ) تُستخرَجُ من النظرية العامة.

وبما أن التنبؤَ بالسلوك يشغل مكانةً مركزيةً في عملية الاستنباط، فمن الصعب الشروع في هذه العملية فقط بنموذجٍ وصفيٍّ أو باراديغمٍ عامٍّ جداً. بل ينبغي أن يتم مسبقاً تحديدُ كلٍّ واحدةٍ من المتغيرات المستقلة في النظرية الاستنباطية، بحيث يمكن للباحث التعرف عليها عندما تظهر في العالم الواقعي، وبالتالي يمكن

1 – Gray, P.S., Williamson, J.B., Karp, A.D. and Dalphin, J.R.,The Research Imagination. An Introduction to Qualitative and Quantitative Methods, New York : Cambridge University Press, 2007, p. 23.



قياسها. ويجب على هذا التحديد أن يكون دقيقاً وصارماً لأن الباحثَ عندما يبني مقاييسَ ومتغيراتٍ، فإنه يبتكر معياراً سيقيس عليه أيَّ شيءٍ يلاحظه في الواقع الملموس.

وبالمقابل، يتميز **الاستقراءُ** بكونه يسعى إلى اكتشافِ وبناءِ نظريةٍ جديدةٍ مع تقدّم البحث. تبدأ دائرةُ البحث في النظرية الاستقرائية بالملاحظة، حيث يتم استقراءُ فهمٍ معمَّمٍ للسلوك تدريجياً من المعطيات التي تم إنتاجها. ويحظى قياسُ المتغيرات بأهميةٍ بالغةٍ في البحث الاستقرائي كما في البحث الاستنباطي، لكن لا يتمُّ بناءُ الفرضيات وأدوات القياس قبل جمع المعطيات كما هو الحال في النظرية الاستنباطية. بل بالأحرى تنبثق مشكلةُ البحثِ كنتيجةٍ لمقارنةٍ بين مجموعةٍ من السلوكات، وتظهر النظريةُ وأدواتُ التحليل في أيِّ مرحلةٍ من مراحل البحث الاستقرائي، بما في ذلك في نهاية البحث. وبهذا المعنى يكون الاستقراءُ بالأساس عمليةً استكشافيةً ووصفيةً. لذا يجب على الباحث أن يعالج كمّاً هائلاً من المعلومات نظراً لأنه ملزمٌ ببناءِ مقولاتٍ لتصنيف المعطيات ليس على أساس نظريةٍ موجودةٍ سلفاً، وإنما انطلاقاً من المعطيات المتنوعة الموجودة فعلياً في الميدان. وبالإجمال، يطرح الباحثُ في الدراسة الكيفية أسئلةَ البحث، وليس أهدافاً (أي مرامي نوعية للبحث) أو فرضياتٍ (أي تنبؤات تستلزم متغيراتٍ واختباراتٍ إحصائيةً). فقد اعتاد الباحثون المبتدئون في العلم الاجتماعي على فكرةِ أن صياغةَ الفرضيات في بداية البحث وسيلةٌ ضروريةٌ للقيام بمراقبةٍ منهجيةٍ للحمولةِ النظريةِ لكلِّ نوعٍ من الملاحظة، والانتقاء الحتمي لكلِّ نوعٍ من البحث. لكن لابد من التنبيه إلى أن هذه الفكرةَ تتعلق بالبحوث الكمية، التي تنتمي للمقاربة الاستنباطية القائمة على بناء نظرية (إشكالية وفرضيات) ثم التحقق من صدقها أو عدم صدقها من خلال إخضاعها لحُكْمِ المعطيات الميدانية. لذا يشدد المتخصصون في إبستيمولوجيا العلوم الاجتماعية على أنه يجب على ممارس البحث الكيفي أن يلج الميدانَوهو يحمل أسئلة بحثه فقط، وأن يطرح أسئلةً على مبحوثيه قصد الحصول على معطياتٍ كيفيةٍ يستخدمها من أجل بناء إشكالياته وفرضياته.







وتكتسي أسئلةُ البحث شكلين: سؤال مركزي وأسئلة فرعية مرتبطة به.

إن السؤالَ المركزيَّ سؤالٌ واسعٌ يهدف إلى استكشاف الظاهرة المركزية أو المفهوم المركزي للدراسة. ولبلوغ هذا السؤال المركزي، ينبغي للباحث أن يسأل نفسه: «ما هو أعمّ سؤالٍ يمكن أن أطرحه في هذه الدراسة؟». يمكن للباحث المبتدئفي البحث الكمي أن يصطدم بهذه المقاربة نظرا لأنه تعود على المقاربة النقيض: تحديدُ أسئلةٍ دقيقةٍ أو فرضياتٍ تستند إلى متغيراتٍ قليلةٍ. والحال أن الغرضَ من البحث الكيفي هو استكشافُ المجموعةِ المعقدةِ من العوامل المحيطة بالظاهرة المركزية، وتقديمُ المنظورات والمعاني المتنوعة التي يحملها المشاركون عن تلك الظاهرة.

وضع جون كريسويل مجموعةً من الخطوط العريضة التي يجب على الباحث اتباعها قصد صياغة أسئلة البحث الكيفي المركزية[2]:



• اطرح سؤالاً مركزياً أو سؤالين مركزيين، ثم قُمْ بصياغةِ أسئلةٍ فرعيةٍ يتراوح عددُها بين خمسة وسبعة. وتلي السؤالَ المركزيَّ العامَّ عدةُ أسئلة فرعية؛ هذه الأسئلة الفرعية تضيّق بؤرةَ الدراسة، لكنها تترك التساؤلَ مفتوحاً. تتسم هذه المقاربةُ بالفعالية داخل الحدود التي وضعها كلٌّ من مايلز وهابرمان[3] اللذين يطالبان الباحثين بألا يحرروا أكثر من 12 سؤالَ بحثٍ كيفيٍّ في المجموع (مركزي وفرعي). ويمكن للأسئلة الفرعية بدورها أن تتحول إلى أسئلةٍ نوعيةٍ يتم استعمالُها أثناء المقابلة[4] (أو أثناء ملاحظة الظاهرة الاجتماعية أو تفحص



2 - Creswell, J.W.,Research Design. Qualitative, Quantitative, and Mixed Methods Approaches, 3th ed., Los Angeles & London: Sage Publications, 2009,pp. 129-131.

3 - Miles, M.B. and Huberman, A.M., Qualitative Data Analysis: A Sourcebook of New Methods, Thousand Oaks, CA: Sage, 1994.

4 - نود هنا تنبيه الطالب أو الباحث في العلوم الاجتماعية أن الأسئلةَ التي يتحدث عنها كريسويل هنا هي الأسئلة التي يريد الباحث الكيفي الإجابة عنها، وهي التي تحلّ محلّ الفرضيات في البحوث الكمية الاستنباطية. لذا يجب تمييزها عن أسئلة المقابلة التي تخضع لشروط إبستيمولوجية خاصة.





الوثائق). فعندما يكون الباحثُ بصدد بناءِ دليلِ المقابلة، يمكن له مثلا أن يطرح في البداية سؤالا لتكسير الجليد، متبوعاً بخمسة أسئلة فرعية أو أكثر. وينبغي ختمُ المقابلة بسؤال الاحتواء أو التلخيص، كأن يطرح سؤالاً مثل «إلى من يمكنني العودة لمعرفة المزيد حول هذا الموضوع؟».

• اربط السؤالَ المركزيَّ بالإستراتيجية الكيفية النوعية للبحث. مثلا، إن خصوصيةَ الأسئلة في الإثنوغرافيا تختلف عن تلك التي نصادفها في استراتيجياتٍ كيفيةٍ أخرى. قدم سبرادلي[5] تصنيفاً للأسئلة الإثنوغرافية التي تتضمن تلك المتعلقةَ بالثقافة المشتركة لجماعة معينة، وتلك المتعلقةَ بتجاربها، وتلك الخاصةَ باستعمال اللغة الأم، وأسئلةً للتحقق من دقة المعطيات. ويمكن بناءُ الأسئلة الإثنوغرافية انطلاقاً من متنٍ من الأدبيات المتوفرة. وتصبح تلك الأسئلةُ خطوطاً عريضةً للعمل وليس حقائقَ يجب إثباتها. بدلا من ذلك، يمكن في الفينومينولوجيا وضعُ الأسئلة بصفةٍ عامةٍ بدون إحالةٍ خاصةٍ إلى الأدبيات المتوفرة أو إلى نمذجةٍ للأسئلة. يتحدث موستكاس[6] عن طرحِ أسئلةٍ حول تجارب الناس والسياقات والوضعيات التي تمت فيها، مثلا: «ما معنى أن تعيش أمٌّ مع مراهقٍ يحتضر بسبب السرطان؟». ويمكن في «النظرية المتجذرة في الواقع»توجيهُ الأسئلةِ بهدف توليد نظريةٍ حول عمليةٍ أو واقعةٍ معينةٍ؛ مثلا استكشاف كيف يتفاعل المرضى والهيئةُ الطبيةُ في وضعية استشفائية. ويمكن للأسئلة في الحالة الكيفية أن تقدم وصفاً للحالة والمواضيع التي تنبثق من دراسة هذه الحالة.

• ابدأ أسئلةَ البحث بكلمات «ماذا» أو «كيف». ذلك أن كلمة «لماذا» تعني أن الباحث يريد تفسيرَ لماذا حدثت الأشياء، أي أنه يستعمل نمطَ تفكيرٍ سببيٍّ مرتبطٍ أساساً بالبحث الكمي، وذلك بخلاف الطابع الأكثر انفتاحاً وانبثاقاً للبحث الكيفي.

---

5 – Spradley, J.P.,Participant Observation, New York: Holt, Reinehart and Winston, 1980.

6 – Moustakas, C.,“Phenomenological Research Methods”, in N.K. Denzin and Y.S. Lincoln (eds.), Handbook of Qualitative Research, op. cit., 220–235.





• ركّزْ على ظاهرةٍ واحدةٍ أو مفهومٍ واحدٍ. فمع تطور الدراسة، ستنبثق عواملُ يمكن أن تؤثر على هذه الظاهرة الوحيدة، لكن ابدأ الدراسة ببؤرة واحدة من أجل استكشافها بتفصيل كبير.

• استعملْ أفعالاً استكشافيةً تنقل لغةَ التصميمِ المنبثق. هذه الأفعالُ تقول للقارئ أن الدراسةَ ستكتشف (مثلا، النظرية المتجذرة في الواقع)، أو أنها ستسعى إلى الفهم (مثلا، الإثنوغرافيا)، أو ستستكشف عمليةً ما (مثلا، دراسة الحالة)، أو ستصف التجارب (مثلا، الفينومينولوجيا)، أو ستنقل قصصاً (مثلا، البحث السردي).

• استعملْ الأفعالَ الاستكشافيةَ لأنها غيرُ موجَّهةٍ، وذلك بدلا من الكلمات الموجَّهة التي يستعملها البحثُ الكمي، مثل «يؤثر»، «تأثير»، «مفعول»، «يحدد»، «سبب» و«أقام علاقة سببية».

• توقعْ أن أسئلةَ البحثِ ستتطور وتتغير أثناء الدراسة بطريقةٍ تتلاءم مع مسلمات التصميمِ المنبثق. فالأسئلةُ في الدراسات الكيفية تخضع لمراجعةٍ وإعادةِ صياغةٍ دائمتيْن. ويمكن لهذه المقاربة أن تبدو إشكاليةً للباحثين المتعودين على البحث الكمي، الذي تظل فيه أسئلةُ البحث ثابتةً طوال مراحل الدراسة.

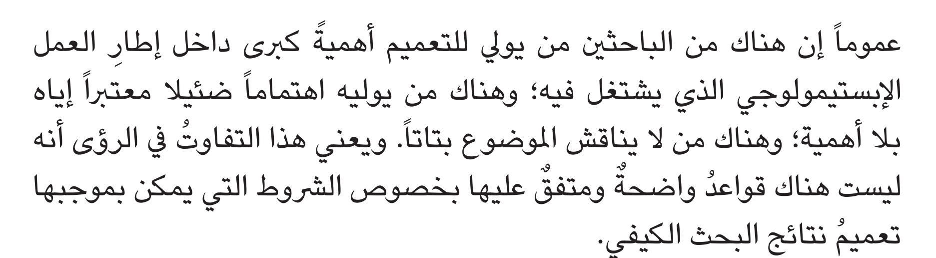
• استعملْ أسئلةً مفتوحةً بدون الرجوع إلى الأدبيات أو النظرية.

II. التعميم

إن موضوعَ التعميمِ مسألةٌ شائكةٌ. فقد اختلف المنظرون في معنى التعميم وإذا كانت نتائجُ البحث الكيفي قابلة لأن تعمم على المجتمع الإحصائي بكامله. ويرجع عالمُ الاجتماع البريطاني كلايف سيل[7] اختلافَ الرؤى حول التعميم إلى اختلافِ التوجهات الإبستيمولوجية والأونطولوجية للباحثين. يمكن القول

7 – Seale, C.,The Quality of Qualitative Research, Oxford: Blackwell, 1999.




عموماً إن هناك من الباحثين من يولي للتعميم أهميةً كبرى داخل إطارِ العمل الإبستيمولوجي الذي يشتغل فيه؛ وهناك من يوليه اهتماماً ضئيلا معتبراً إياه بلا أهمية؛ وهناك من لا يناقش الموضوع بتاتاً. ويعني هذا التفاوتُ في الرؤى أنه ليست هناك قواعدُ واضحةٌ ومتفقٌ عليها بخصوص الشروط التي يمكن بموجبها تعميمُ نتائجِ البحث الكيفي.

إننا نتفق مع جين لويس وجين ريتشي في أنه يمكن تعميمُ نتائجِ البحث الكيفي، لكن الإطار الإبستيمولوجي الذي يمكن أن يتم فيه ذلك يحتاج إلى توضيح. لذا فإن معظمَ الآراء الواردة هنا مستلهمة من مقالهما المنشور في كتاب جماعي[8].

1. تعريفات التعميم

غالباً ما تتم مناقشةُ التعميم في سياقيْن مترابطيْن لكن مختلفيْن. وقد أطلق عليهما هامرسلاي[9] وآخرون «التعميم التجريبي» و«الاستنتاج النظري». يتعلق التعميمُ الأولُ بتطبيق نتائجِ دراساتِ البحث الكيفي وراء عينةِ الدراسة، أي على المجموعات السكانية أو الوضعيات التي اختيرت منها تلك العينة. يفضل بعضُ المنظرين وصفَ هذا النوع من التعميم بمفاهيم «قابلية النقل» أو «الصدق الخارجي». إن طبيعةَ «سياق التلقي» الذي تنطبق عليه النتائج متنوعٌ جداً؛ ويظل الباحثون مرة أخرى غيرَ واضحين بخصوص أنواعِ السياق التي يمكن أن «تُنقَل» إليها النتائج. إذ يمكن أن يكون هذا السياقُ هو المجموعة السكانية الكبيرة التي تم انتقاء العينة منها، ويمكن أن يكون مجموعاتٍ سكانيةً أخرى غير تلك التي اختيرت منها العينة، أو وضعياتٍ لا تتعلق بموضوع الدراسة على وجه الدقة.

8 – Lewis, J. and Ritchie, J., «Generalising from Qualitative Reaserch», in J. Ritchie, and J. Lewis, (eds.), Qualitative Research Practice. A Guide for Social Sciences Students and Researchers, Thousand Oaks, CA : Sage Publications, 2003: 263–286.

9 – Hammersley, M.,What's Wrong with Ethnography?, London: Routledge., 1992, pp. 85–95.





إن السياقَ الثاني الذي تتم فيه مناقشةُ التعميم هو بناءُ النظرية. ويتضمن هذا السياقُ توليدَ المفاهيم والقضايا النظرية التي يُعتَقَد أنها ستُطبَّقُ على نطاقٍ واسعٍ أو حتى عالمي. إذ يتم استخراجُ بعض الخلاصات من بعض الخصائص أو البناءات في دراسةٍ وحيدةٍ أو «محلية» ليتم بعد ذلك استعمالُها في تطوير نظريةٍ أوسع.

تكمن صعوبةُ فهمِ المسائل المتعلقة بالتعميم بكون التمييز بين التعميم النظري والتعميم التجريبي غيرُ مطبقٍ بشكل ثابت وشامل. ونتيجة لذلك، لا يكون واضحاً دائماً مع أيِّ نوعٍ من التعميم يتعامل الباحثون. لكن يظهر غموضٌ جديدٌ نظراً لأن التعميمَ التجريبي يتضمن عمليتيْ بناءٍ مستقلتيْن للاستقراء الذي يتطلب شروطاً مختلفة، وهما التعميمُ على جماعة السكان التي استخرجت منها العينة، والتعميمُ على وضعيات وسياقات أخرى.





لتبديد هذا الغموض، نقترح أنه يمكن اعتبارُ التعميمِ عمليةً تشمل ثلاثةَ تصوراتٍ مترابطة لكن متمايزة:

• أولا، التعميم التمثيلي: أي مسألة ما إذا كان من الممكن تعميمُ النتائج المحصل عليها من العينةِ على جماعةِ السكان الأصلية التي استخرجت منها هذه العينة؛

• ثانياً، التعميم الاستنباطي: أي مسألة ما إذا كان من الممكن تعميمُ النتائج المحصّل عليها من دراسةٍ خاصةٍ على وضعيات وسياقات تتجاوز الوضعية والسياق اللذين شكلا موضوع الدراسة.

• ثالثاً، التعميم النظري الذي يستخرج القضايا والمبادئ والإثباتات من نتائجِ دراسةٍ معينةٍ من أجل تطبيقها على نطاق أوسع.

تقوم العديدُ من البحوث على التعميم التمثيلي، بمعنى أنها تولي الأولويةَ لمعرفة إلى أيِّ حدٍّ يمكن تعميمُ نتائجِ الدراسة على المجتمع الإحصائي الذي استخرجت





منه العينة. لكنّ هذا الاهتمامَ الذي يحظى به هذا الصنف من التعميم في أدبياتِ البحث الكيفي أقلُّ من ذلك الذي يتمتع به التعميم الاستدلالي والتعميم النظري.

إن هذا الوضع محبط بالنظر إلى أن التعميمَ التمثيليَّ في البحث الكيفي يشمل مسائلَ مختلفةً جداً أكثر منه في البحث الكمي. لكن نظراً لغياب الفهم الواضح لهذه النقطة، يتمّ أحياناً تطبيقُ باراديغم البحث الكمي بشكل غير ملائم على البحث الكيفي، الشيء الذي يؤدي إلى نتائجَ غيرِ مرضية. وهذا ما يلاحظه بيات (Piatt) بوضوح: «من المثير للاستغراب في كثير من الأحيان أن نرى انتقاداتِ دراسات الحالة كأساسٍ لـ'التعميم' تستعمل أفكارَ العينةِ التمثيلية (الصالحة فقط لتقدير مدى انتشار خاصية معينة وسط جماعة من الناس) لنفي قدرتها على المساهمة في التفسير النظري»[10].

توضح جان لويس وجان ريتشي أشكالَ التعميم الثلاثةَ بدراسةٍ كيفيةٍ أجريت كجزء من مشروعِ تقييمِ خدماتِ «المستشار الشخصي» في برنامجٍ لتشغيل أشخاص معاقين. فقد أجرت تنظيماتٌ عموميةٌ وخاصةٌ وتطوعيةٌ مشاريعَ تجريبيةً مختصرةً لتقديم الاستشارة والدعم لأشخاصٍ لا يشتغلون ويتقاضون تعويضات عن العجز، لكنهم يرغبون في العمل أو في الحصول على عمل مأجور. ومن بين آلياتِ التقييمِ دراسةٌ كيفيةٌ للمشاركين استعملت المقابلات المعمقة قصد استكشاف تجاربهم في العمل أو في البحث عن عمل.

في سياق هذه الدراسة، طرح مبدأُ التعميم التمثيلي أسئلةً تتعلق بما إذا كان من الممكن تعميمُ نتائج المقابلات التي أُجرِيَتْ مع العينة على مجموع المجتمع الإحصائي الذي اختير منه المشاركون في البرنامج التجريبي. فإذا كانت النتائجُ ذاتُ وجاهةٍ فقط بالنسبة لأفراد العينة، فإن ذلك سيؤثر على قرارِ الاعتماد عليها لتطوير برنامج التشغيل. إذ يحتوي التعميم التمثيلي على مسألتين أساسيتين:

10 – Piatt, J., «What Can Case Studies Do?», in R.G. Burgess (ed.),Conducting Qualitative Research, Greenwich, CT: JAI Press, 1988, p. 17.





أولا، ما إذا كانت الظواهرُ التي استُخرِجَت من عينة البحث (مثلا، وجهات النظر، التجارب، السلوكات) ستوجد في المجتمع الإحصائي. ثانيا، ما إذا كان سيتم العثورُ على ظواهر أخرى (أو وجهات نظر مختلفة عنها) في المجتمع الإحصائي الذي لم يكن جزءاً من العينة.

يثير التعميمُ الاستقرائيُّ بعض القضايا مثل ما إذا كان ممكناً تعميمُ النتائج على وضعياتٍ أخرى، أي على خدماتٍ غيرِ تلك الفاعلة في برنامج الإعاقة التجريبي. وكانت أوضحُ مسألةٍ هي صلةُ النتائجِ بحزمةٍ ثانية من المشاريع التجريبية التي كان سيتم تنفيذها في الشهور التي تلت التقييم الأولي. وكان من المرجح أن تكون هذه المشاريعُ مختلفةً من حيث البنية والهدف والفلسفة والنتيجة عن تلك التي تمت دراستها في التقييم الأصلي، وكان من الأهمية بمكان تقديرُ إلى أيّ حدٍّ يمكن استعمالُ نتائج التقييم الأول في صياغة تصميم المشاريع الثانية وعملية تنفيذها. لكن طُرِحَتْ أيضاً مسألةُ إلى أيّ حدٍّ يمكن تطبيقُ النتائج على خدماتٍ أخرى تقدم الدعمَ للأشخاص المعاقين الراغبين في العمل، أو على وضعياتٍ تُقَدَّمُ فيها لهؤلاء الأشخاص أنواعٌ أخرى من الخدمات.





كما انبثقت مسألةُ إلى أيّ حدٍّ يمكن نقلُ نتائج الدراسة إلى غيرِ الأشخاص المعاقين، أي إلى جماعاتٍ أخرى مستهدفة ببرامج إنعاش الشغل. تعتبر مسألةُ قابليةِ نقلِ النتائجِ إلى جماعاتٍ أخرى بُعْدٌ آخر للتعميم الاستنباطي، وهو ربما أصعبُ الأبعاد وأكثرُها إشكالا. يستلزم التعميمُ الاستنباطي انسجاماً بين السياق «المرسِل» والسياق «المستقبِل». وهذا يتطلب توفرَ معرفةٍ بالسياقين معاً قبل أن يتمّ «نقلُ» النتائج بطريقة سليمة.

على الرغم من أن نطاق التعميم يمثل معياراً مهماً يتم به الحكمُ على فائدة أو جودة الدراسة، فيمكنه أيضاً أن يكون ذا قيمة في دراسات الحالة التي لا يمكن تعميمها. ذلك أن الدراسة التي لا تحتمل التعميمَ التمثيليَّ يمكنها أن تنتج فرضياتٍ يمكن التحققُ منها في بحث آخر. إذ يمكن أن تزودنا بمواد حول حالةٍ





خاصةٍ لها أهميةٌ في ذاتها. وفي بعض الوضعيات، ستكون نتائجُ دراسةِحالةٍ، التي يمكن تعميمها تجريبياً، ذاتَ قيمةٍ حتى وإن لم يكن من الممكن نقلُها إلى جماعاتٍ أخرى أو إن لم تكن لها مساهمةٌ كبيرةٌ في بناء نظريةٍ اجتماعيةٍ أوسع. ومع ذلك، فإن قابليةَ دراسةٍ ما للتعميم تعتبر عن حق أحدَ معاييرِ الحكم عليها.

2. مقاربات التعميم

أ. التعميم النظري

يقوم مفهوم التعميم الكلاسيكي على العلاقات السببية التي يمكن تطبيقها كونياً. يقدم كابلان تعريفاً للتعميم «الناموسي»، وتتمثل أهمُّ خاصية له في أن «التعميمَ يجب أن يكون صادقاً كونياً، غيرَ مُقيَّدٍ بالزمان والمكان. ويجب أن يعبر عما يحدث في كلّ مكان وكلّزمان، شريطة توفر الشروط الملائمة»[11]. إن التعميماتِ إذن منطوقاتٌ غيرُ مقيدةٍ بالسياق، وتكمن قيمتُها في قدرتها على تحقيق التنبؤ.

لا يتفق كثيرٌ من ممارسي العلم الاجتماعي على نقلِ مفاهيم العلوم الطبيعية إلى العلوم الاجتماعية، ويستند موقفهم هذا إلى الأساس الذي يقوم عليه الاستقراء النظري العام في البحث الاجتماعي. وقد ظهرت تأويلاتٌ مختلفةٌ للتعميم النظري في العلم الاجتماعي مرتبطةٌ أساساً بالتصور الأونطولوجي الذي تنطلق منه هذه التأويلات. وتتوزع هذه التأويلات عموماً إلى نظرياتِ القانون الكوني الخاصة بالعلوم الطبيعية من جهة، والقولِ بعدم وجود أي معنى خارج السياق الفردي من جهة أخرى.

وكما أسلفنا القول من قبل، فإننا نسير على خطى جين لويس وجين ريتشي في تموقعهما بين هذين التصورين. فنحن نعتقد أنه يمكن للبحث الكيفي أن يساهم

11 – Kaplan, A.,The Conduct of Enquiry: Methodology for Behavioural Science,San Francisco: Chandler, 1964: p. 91.





في تطور المعرفة السوسيولوجية المتعلقة بالعمليات والبنيات الاجتماعية التي تشكلّ جزءاً من سياقِ السلوكات والمعتقدات الفردية وتفسيرها. فقيمةُ البحث الكيفي تكمن في قدرته على استكشافِ مسائلَ عميقةٍ لا يستطيع البحثُ الكمي ملامستَها، وذلك من خلال سبر غور رؤى الناس ومشاعرهم ووجهات نظرهم وآرائهم ووعيهم بتجاربهم المعيشة، وباستعمال مفاهيم ونظريات وتفسيرات يتم استقراؤها من المعطيات الكيفية. ويمكن تقييمُ درجةِ تلاؤم المعطيات المحصل عليها مع النظريات الموجودة سلفاً، وذلك من خلال مقارنةِ كيف «تنسجم» حالاتٌ خاصةٌ مع نظريةٍ قائمةٍ وتحديدِ قدرتها على تفسير السلوك في حالات خاصة. ويمكن بعد ذلك تطويرُ هذه النظريات وتحسينها لكي تتوافق مع أيِّ تغيراتٍ جديدةٍ تمس السلوكات في ظروف محددة بواسطة البحث.

ب. التعميم الاستدلالي

قلنا إن هذا النوع من التعميم يعني تعميمَ نتائجِ دراسةٍ خاصةٍ على وضعياتٍ وجماعاتٍ بشريةٍ أخرى غير تلك التي تم انتقاءُ العينة منها. ويطلق عليه أيضاً عبارة «التعميم الطبيعاني». ويعتبر شكلا من التعميمِ أكثرِ حدسيةً وتجريبيةً نظراً لأنه يقوم على تجربة الباحث وإحساساته أكثر مما يرتكز على الاعتبارات العقلانية والتفكير الناموسي. يقول ستايك: «إن ما يصبح فهماً مفيداً هو المعرفةُ الكاملةُ والعميقةُ لظاهرةٍ خاصةٍ والتعرفُ عليها في سياقاتٍ جديدةٍ وطارئةٍ. إن هذه المعرفةَ شكلٌ من التعميم الذي يتم التوصلُ إليه من خلال التعرف على التشابهات الموجودة بين الأشياء والمواضيع داخل السياق وخارجه، ومن خلال استشعار التباينات الطبيعية بين الأحداث»[12].

من المعلوم أنه ستوجد على الدوام وضعياتٌ خاصةٌ فريدةٌ. لذلك فإننا ندافع على فكرة وجوب اعتبارُ التعميمات في البحوث الكيفية بمثابة فرضياتٍ مشتغلةٍ

12 – Stake, R., «The Case Study Method in Social Enquiry», Education Researcher,7, 1978: 5-8, p. 6.





وتقديراتٍ استقرائيةٍ وليس خلاصات. ويعرّف باتون التقديراتِ الاستقرائيةِ بأنها «حدوسٌ متواضعةٌ متعلقةٌ برجحانِ قابليةِ النتائجِ للتطبيق في وضعياتٍ أخرى تحت شروط متشابهة، لكن ليست متطابقة. إن التقديراتِ الاستقرائيةَ عملياتٌ منطقية وفكرية وموجهة بالمشكلات وليست إحصائية أو احتمالية»[13].

انطلاقاً من كل هذا، يؤكد لينكولن وغوبا على أن قابليةَ النقل تتوقف على درجةِ الانسجام بين «السياق المرسِل» الذي جرى فيه البحث، و«السياق المستقبِل» الذي ستطبق عليه نتائج البحث.

ج. التعميم التمثيلي

يعني التعميمُ التمثيلي إمكانية تعميم النتائج على الجماعة الأم التي استخرجت منها العينة. وقد سبق أن قلنا إنه أكثرُ أنواعِ التعميم شيوعاً. ويرى بعضُ الباحثين أنه يتلاءم مع البحث الكيفي نظراً لأنه يستلزم عيناتٍ صغيرةً نسبياً لم يتم انتقاؤها بطريقة تجعلها ذاتَ تمثيليةٍ إحصائيةٍ[14]، أو لاستعمالها في المقابلات غير المبنية. ويرى باحثون آخرون أن وجودَ دليلِ إثباتٍ من بحثٍ آخر أجري في الجماعة الأم شرطٌ ضروريٌّ لقول إنه يمكن تعميمُ نتائج هذه الدراسة، وتقوم معطياتُ البحث الكمي هنا بدورٍ له أهميةٌ خاصة.

تقوم وجهاتُ النظرِ هذه على مفاهيمِ التعميم التمثيلي المستخلصة من باراديغمات البحث الكمي، مع التركيز على العينات والقياسات الاحتمالية. وعندما تطبق هذه التقنياتُ على البحث الكيفي، فمن الصعب تجنبِ النتيجة المتمثلة في أنه لن يستطيع تحمّل التعميم التمثيلي.

---

13 – Patton, M.Q.,Qualitative Research and Evaluation Methods, 3rd edition, Thousand Oaks, CA: Sage, 2002, p. 584.

14 – انظر الفصل المتعلق بالعينة.





ومع ذلك، تختلف قاعدةُ التعميم التمثيلي في البحث الكيفي عن نظيرتها في البحث الكمي. إذ لا يمكن تعميمُ نتائج البحث الكيفي على أساسٍ إحصائيٍّ- ليس انتشارُ وجهاتِ نظرٍ وتجاربَ خاصةٍ ولا مدى موقعها داخل أجزاء معينة من العينة هما ما يمكن أن يُستخلَص منهما تعميمٌ عامٌّ. بل إن مضمونَ أو «خريطة» مجموعِ وجهاتِ النظرِ والتجاربِ والنتائجِ أو الظواهر أخرى المدروسة، وكذا العواملَ والظروفَ التي تكوّنها وتؤثر فيها، هي ما يمكن تعميمُها على جماعة السكان المدروسة. فعلى الرغم من أن المتغيرات والظروف ووجهات النظر والتجارب الفريدة سيتم بالتأكيد العثورُ عليها في الجماعة الأم، فإن التعميمَ سيتحقق على مستوى المقولات والمفاهيم والتفسير.




إن الحكم على قابلية تعميم نتائج دراسة ما على مجتمع البحث، وتقدير درجتها وقيمتها لا يتأتى لنا، في بعض الأحيان، إلا بالاستعانة بأسلوب للبرهنة تشكل وتطور في إطار بحث آخر.لكنه ليس مطلباً ضرورياً في التعميم التمثيلي، الذي يرتكز على مسألتين أساسيتين: أولا، دقة جمع المعطيات وتفسيرها انطلاقا من عينة الدراسة. وتتوقف هذه الدقةُ على جودةِ ميدانِ البحث وتحليلِ المعطيات. ثانياً، درجة تمثيلية العينة للمجتمع الإحصائي. يجب التنبيه إلى أن الأمر لا يتعلق هنا بالتطابق الإحصائي، وإنما بالشمولية، بمعنى ما إذا كانت العينةُ توفر «تمثيليةً رمزيةً» باشتمالها على الأبعاد والمكونات المتنوعة التي تشغل مكانةً مركزيةً في التفسير. وبصيغة أخرى، ليس المطلوبُ في هذا النوع من التعميم هو أن تكون عناصرُ العينة متطابقةً مع باقي عناصر المجتمع الإحصائي من حيث مجموع خصائصها، وإنما أن تتضمن الخصائصَ التي تشكّلُ المتغيراتِ الاجتماعيةَ التي يتطلبها التفسير.





الفصل الخامس

المقابلة

I. لماذا المقابلات؟
II. المفترضات الأساسية للمقابلة
III. أنواع المقابلة
1. المقابلة المبنينة
2. المقابلة شبه المبنينة
3. المقابلة غير المبنينة
أ. شروط إجراء المقابلة غير المبنينة
ب. أنواع المقابلة غير المبنينة
• المقابلة المعمقة
• المقابلة الإثنوغرافية
• المجموعة البؤرية

يلاحظ جيمس هولشتاين وجابر غابريوم أن المقابلة أصبحت أكثر انتشاراً في مطلع القرن الواحد والعشرين، وذلك بفضل الانفجار الهائل للقنوات الإذاعية والتلفزيونية وفتحِ الإنترنيتِ فضاءه لكلِّ أنواع الدردشات الممكنة، العادية والعلمية والفنية وغيرها[1]. وقد صرح بريغس[2] سنة 1986 بأن المقابلةَ تدخل في 90 في المائة من بحوث العلم الاجتماعي. ويستعمل هذه التقنيةَ علماءُ الاجتماع والأنثروبولوجيون والأطباء النفسيون وخبراء التسويق ورجال السياسة وغيرهم كـ«نافذة على العالم». وبالفعل، أشار ماكوباي وماكوباي[3] مبكراً إلى أن المقابلة تعود إلى تقليدين: فقد عرفت المقابلةُ شعبيةً كبيرةً واستعمالاً واسعاً في التشخيص والاستشارة الإكلينيكيْن، حيث كان الاهتمامُ منصبّاً على نوع الإجابة؛ وبعد ذلك أصبحت المقابلةُ أثناء الحرب العالمية الأولى تُستَعمَلُ على نطاق كبير في الاختبارات النفسية، مع التركيز على القياس.



يشير فونتانا وجيمس[4] إلى أن أول من قام ببحث اجتماعي اعتماداً على المقابلة هو شارلز بوث (C. Booth) الذي قام سنة 1886 بمقاربةٍ فهميةٍ للشروط

1 - Holstein, A.J. and Gubrium, J.F., Inside Interviewing. New Lenses, New Concerns, Thousand Oaks, CA : Sage Publications, 2003, p. 3.

2 - Briggs, C.L.,Learning How to Ask: A Sociolinguistic Appraisal of the Interview in Social Science Research, Cambridge: Cambridge University Press, 1986.

3 - Maccoby, E. E.& Maccoby, N., «The Interview:A tool of Social Science», In G. Lindzey (ed.),Handbook of Social Psychology: Vol. 1. Theoryand method,Reading, MA: Addison-Wesley, 1954: 449-487.

4 - Fontana, A. and James, F., «Interviewing: The Art of Science», in Handbook of Qualitative Research, N. Denzin and Y.S. Lincoln (eds.), Thousand Oaks: Sage Publications, 1994: 361-376, p. 362.



الاقتصادية والاجتماعية لسكان لندن نشرها سنتي 1902 و1903 في كتاب يحمل عنوانَ **حياة السكان في لندن وأعمالهم**. وتلت هذه الدراساتِ بحوثٌ أخرى في لندن ومدن بريطانية أخرى. وأنجز باحثون في شيكاغو ما قام به بوث في لندن. وطبق عالم الاجتماع الأمريكي وليام دوبوا مقاربةَ بوث في دراسةِ الساكنة السوداء بمدينة فيلاديلفيا، مثلما طبقها الباحثان روبيرتليند وهيلين ليند في مدينة ميدلتاون سنتي 1929 و1937.

كما أن استطلاعات الرأي كانت شكلا آخر من المقابلة. وقد جرت بعضُ البحوث من هذا النوع قبيل القرن العشرين؛ لكن هذا الشكل من الاستجواب أصبح منهجاً مستقلا بذاته سنة 1935 مع تأسيس «المعهد الأمريكي للرأي العام» على يد جورج غالوب (G. Gallup). وقد ظهر في العشرينات في علم النفس وعلم الاجتماع توجهٌ نحو قياس الاتجاهات، حيث استعمل وليام طوماس وفلوريان زنانيكي المنهجَ الوثائقيَّ لإدخال دراسة الاتجاهات في علم النفس. وأثرت دراساتُ طوماس على جيلٍ من الباحثين الذين أسسوا ما أصبح يعرف بمدرسة شيكاغو، والذين استندوا في دراساتهم على الملاحظة والوثائق الشخصية والمقابلات غير الرسمية. فقد استندت دراسة ثراشر (Thrasher) للعصابات إلى 130 مقابلة كيفية، واستعملت دراسةُ نيلس أنديرسون (N. Anderson) التي أجراها سنة 1923 على المشردين المحادثاتِ غيرَ الرسمية والمقابلاتِ المعمقةَ.





بيد أن المقابلة الكيفية بدأت تفقد بريقها مع الدراسات الإثنوغرافية لهوارد بيكر وإيفيرت هيوغس في الخمسينات والستينات. واحتكرت هذا البريقَ مقابلاتُ البحث المسحي كأداة لتكميم المعطيات، وهو البحثُ الذي كان قد طُبِّقَ قبل ذلك في استطلاعات الرأي ودراسة السوق. لكن الجيش الأمريكي وظف مجموعةً من السوسيولوجيين أثناء الحرب كباحثين اجتماعيين استجوبوا أكثر من نصف مليون جندي أمريكي بشكل أو بآخر، وتضمنت أربعُ مجلداتٍ تفاصيلَ عن حياتهم العقلية والانفعالية **(دراسات في علم النفس الاجتماعي في الحرب العالمية الثانية)**.



وقد كان لهذه الدراسة، وخصوصاً الجزأين الأولين اللذين يحملان عنوان **الجندي الأمريكي**، واللذين أشرف عليهما سامويل ستوفر (S. Stuffer)، تأثيرٌ حاسمٌ في الاستعمال الواسع للبحث المسحي المنهجي.

إن **المقابلةَ** واحدةٌ من أهمّ طرق جمع المعطيات، وتتمثل في طرح أسئلةٍ على الناس وتلقي إجابات منهم. ليس ضرورياً أن يكون المرءُ سوسيولوجياً لكي يكون قد سبق له ممارسةهذا النوع من التواصل. كأستاذ مثلا، يمكن لي أن أستجوب أحدَ طلبتي الذي لم يستطع تحضير واجباته الجامعية، بمعنى يمكن أن أطرح عليه أسئلة تتعلق بأسباب تأخره عن قيامه بتلك الواجبات، وأن أتلقى منه إجابات. ويمكن للطبيب أن يطرح أسئلة على المريض بهدف معرفة تاريخ مرضه وبعض الأعراض، وأن يحصل منه على ردود. مثلما يمكن لصحفيٍّ أن يسائل رجلَ سياسةٍ عن حصيلته في تدبير الشأن العام وأن يتلقى منه إجابات.




بغض النظر عن إطار المقابلة والغرض منها، يبقى شكلُها ثابتاً: تُطرَحُ أسئلةٌ على أفرادٍ ويُتوقَّعُ منهم أن يقدموا إجاباتٍ ذاتَ معنى. إن حياتنا اليومية تضج بلقاءات تشبه المقابلات. مثلا، تأمل كيف يمكن لمحادثة متخيلة بين شخصين على عشاءِ أولِّ لقاءٍ أن تتخذ شكل مقابلة:

> **زيد:** حدثني عن نفسك؟
> **عمر:** ماذا تريد أن تعرف؟
> **زيد:** حسناً، حدثني عن اهتماماتك وهواياتك وأسرتك؟
> **عمر:** أنا أنتمي إلى عائلة ممتدة... انفصل والدي ووالدتي وأنا لم أتجاوز العاشرة...

نرى هنا أن المقابلةَ كطريقة لجمع المعلومات مألوفةٌ لدى الجميع ويتم تطبيقها بشكل واسع لدرجة أننا لا نشعر بذلك ولا نتساءل حوله. هذا الانتشارُ للمقابلات كنوع من التواصل في كل مناحي الحياة الاجتماعية دفع بعض الباحثين





الاجتماعيين إلى استخلاص أننا نعيش في «مجتمع المقابلة»[5]. ويمكن أن نلاحظ أن هذا النمط من البحث الذي يبدو ممارسةً طبيعيةً أمرٌ مستحدثٌ في مجال جمع المعطيات حول السلوكات البشرية[6].

I. لماذا المقابلات؟

يُجري الباحثُ في البحث الكيفي مقابلاتٍ نظراً لأنه مهتمٌّ بقصصِ الناس. إذا أردنا تقديمَ تعريفٍ بسيطٍ للقصص، سنقول إنها طريقةٌ للمعرفة. ذلك أن روايةَ القصص هي عمليةُ بناء المعنى. عندما يحكي الناس قصصاً، فإنهم ينتقون تفاصيلَ تجاربهم من وعيهم المتدفق. إن لكلِّ قصةٍ بدايةً ووسطاً ونهايةً كما يقول أرسطو؛ ولكي يعرض الناسُ تفاصيلَ تجربتهم للبداية والوسط والنهاية، يكون عليهم التفكيرُ بتبصر في تجاربهم. إن عمليةَ انتقاء العناصر الأساسية في التجربة وتأملها وترتيبها وإضفاء طابع منطقي عليها هي ما يجعل من رواية القصص تجربةَ بناء للمعنى[7].

إن إجراءَ المقابلات مع الناس يمكن الباحثَ من التعرف على السياقات التي تجري فيها سلوكاتُهم، ويزوّده بطريقة لفهم معنى تلك السلوكات. إن إحدى المسلمات الأساسية للبحث القائم على المقابلات تتمثل في أن المعنى الذي يحمله الناس على تجربتهم يؤثر في الطريقة التي ينجزون بها هذه التجربة[8]. وبصيغة

5 – Atkinson, P. and Silverman, D., «Kundera's Immorality: The Interview Society and the Invention of Self», Qualitative Inquiry, 3(3) 1977: 324–345.

6 – Gubrium, J. and Holstein, J., «From the Individual Interview to Interview Society», in J. Gubrium and J. Holstein (eds.), Handbook of Interview Research : Context and Method, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2002: 3–32.

7 – لمزيد من المعلومات حول علاقة التفكير ببناء المعنى، يمكن الرجوع إلى:

Schutz, A.,The Phenomenology of the Social World, Chicago: Northwestern University Press, 1967, p. 12 and 50.

8 – Seidman, I.,Interviewing as Qualitative Research: a Guide for Researchers in Education and the Social Sciences, 3th ed., New York and London: Teachers College Press, 2006, p. 10.





أخرى، تسمح المقابلةُ للباحث بوضع سلوكِ المبحوثين في سياقه الاجتماعي، ولاسيما سياق **المعنى**، مما يسهل عليه بلوغَ فهمٍ أفضلَ لذلك السلوك.

يلح سايدمان[9] على الدور الكشفي (heuristique) الذي تلعبه تجربةُ الأفراد في دراسة الظواهر الاجتماعية، سواء كتنظيمات أو مؤسسات أو عمليات أو أفعال، أي تجربة هؤلاء «الآخرين» الذين يصنعون التنظيمَ أو يقومون بالعمليات أو ينجزون الأفعال. إن الظواهر الاجتماعية تتخذ أشكالَها في هيئةِ «تجريداتٍ» اجتماعية، كالتربية والفقر والعنف والزواج والتدين، الخ، ويتم فهمُ هذه التجريدات بصورة أفضل من خلال تجارب الأفراد، الذين تمثل أفعالُهم وحياتُهم الملموسةُ الأرضيةَ التي تبنى عليها تلك التجريدات.

II. المفترضات الأساسية للمقابلة

إذا كانت المقابلة تعني طرح أسئلة على فرد وتوقع إجابات منه، فمن غير المنطقي الاعتقاد أنها ممارسة جديدة نسبياً. وعلى كل حال، إن تبادلَ مثلِ هذا النوع من الحديث هو أساسُ معظم المحادثات، لذلك يمكن للمرء أن يتساءل: ألم يُجْرِ الناسُ محادثاتٍ منذ فجر التاريخ؟ لذا، ما الجديد بخصوص المقابلات؟ بما أن التواصلَ اللفظي والفضولَ المتعلقَ بحياة الآخرين يميزان الإنسان العاقل عن معظم الأنواع الأخرى، فإن المقابلات، وخصوصاً الصيغ المبنينة منها، ترتكز على مفترضاتٍ لم تكن منتشرةً في أزمنة بعيدة. ويحاجج غابريوم وهولشتاين[10] على أن البحثَ الحديثَ القائمَ على المقابلة يرتكز على ثلاث مقدمات أساسية:

دمقرطة الآراء

أولا، يشير شكلُ المقابلة إلى أن الكائنات البشرية تقتسم تجربةً مشتركةً، وهي أنه بمقدور أيِّ عضوٍ في المجتمع أن ينطق إذا طُلِبَ منه ذلك. ويطلق غابريوم

9 - Ibid., p. 10.

10 - Gubrium and Holstein «From the Individual Interview... », op. cit.





وهولشتاين على هذه الواقعة عبارة «دمقرطة الآراء»[11]. تبعا لهذا المنظور، يستعمل علماءُ الاجتماع عينةً عشوائيةً من المجيبين في بحوثهم نظراً لأنهم يقدّرون أن أيَّ رأيٍ يقدمه أيُّ شخصٍ حول العالم رأيٌ صحيحٌ، وأن مجموعَ هذه الآراء ترسم صورةً كاملةً ومعقولةً للواقع الاجتماعي. إن معظمَ الناس متفقون على هذا التقدير. لكن تَأَمَّلْ كيف يمكن لك أن تتصرف بشكلٍ مختلفٍ لو قَدَّرْتَ أن جماعةً معينةً وحدَها تمثل مصدراً جيداً للآراء الأكثرِ ملاءمة للبحث. إذا كان هذا صحيحاً، فإن جمعَ المعطياتِ من عينة تمثيلية كبيرة جداً يعتبر مضيعةً للوقت والجهد والمال.[12]

ثنائية الباحث/المبحوث

يشير غابريوم وهولشتاين إلى أن المسلمةَ الثانيةَ التي تقوم عليها المقابلاتُ التقليديةُ هي التمييز بين دوريْ الباحث والمبحوث. إن هذين الدورين والتوقعات المرتبطة بهما تطابق تقريباً علاقةَ الشيخ والمريد، حيث يمثل الباحثُ الشيخَ الذي يطرح الأسئلةَ ويحدد بالتالي موضوعَ ما ستتم مناقشته وإيقاعَه ووجاهتَه. ومن جهة أخرى، إن المسؤولية الرئيسية للمبحوث أو المستجوَب هي تقديمُ إجاباتٍ متماسكة وجديرة بالثقة عندما يطلب منه ذلك. إن هذا النوعَ من التبادل اللغوي شيءٌ مألوفٌ بالنسبة لنا ونعتبره شيئاً بديهياً. هكذا من السهل القول إنه فهمٌ مشتركٌ على المستوى الكوني. ومع ذلك، إن آداب السلوك بين الباحث والمبحوث اتفاقٌ ثقافيٌّ يمكن ألا يتم احترامه في وضعيات متعددة، كما حدث لأحد مؤلفيْ الكتاب أثناء إجراء بحث عن مدمني المخدرات المحقونة والقابلة للحقن.

فقد قضى مع زملائه فترةً يبحثون عن هذه الفئة من مدمني المخدرات. والملاحظ أن التواصل بينهم وبين مدمني هذا الصنف من المخدرات كان سهلا في

11 – Seidman, Interviewing as qualitative research..., op. cit., p. 4.

12 – سنرى لاحقا في هذا الفصل كيف أن علماء اجتماع البحث الكيفي يفضلون الاعتماد في بحوثهم على مخبرين أو مبحوثين مطلعين على بواطن الأمور بدلا من الاعتماد على عينة واسعة من المبحوثين.





المؤسسات العمومية التي جرت فيها اللقاءات تحت إشراف أطباء نفسيين سهلوا لهم هذه اللقاءات (السجون، مراكز العلاج من الإدمان). لكن عندما كانوا يقتربون من شخص مدمن للمخدرات الصلبة في بعض المقاهي أو الأماكن الخاصة، كانوا يتلقون نظراتٍ شزراءَ تحمل كثيراً من الرفض والعنف بدل الحصول على إجابة لفظية. وعندماكان الباحثُ ينجح في الحصول على ثقة أحد هؤلاء الأشخاص، كان يقلب الأدوار ويطرح عليه أسئلة تتعلق بالهدف من الدراسة، بل وتتعلق بحياته الخاصة. إن قلب الأدوار، الذي يخرق قواعدَ المقابلة التقليدية، يميل إلى الانتشار بين المبحوثين الذين لهم رهانٌ أقلُّ في التطابق الاجتماعي أو في القيام بما هو متوقع منه. ويندرج في هذه الفئة مدمنو المخدرات والذين لا مأوى قار لهم والمرضى العقليون ومحترفو الجنس.ورغم أن المستجوبين أصبحوا فاعلين نشطين في المقابلات، مما شجع السوسيولوجيين على إعادة النظر في بروتوكول المقابلة، فإن ثنائيةَ أدوار الباحثين والمبحوثين ظلت خاصية أساسية لبروتوكول المقابلة التقليدية.

المستجوبون بوصفهم ناقلين للمعرفة

المسلمة الثالثة التي يقيم عليها غابريوم وهولشتاين المقابلةَ التقليديةَ هي اعتبارُ المبحوث «حاملا للإجابات»[13] أو مصدراً للمعرفة يمكن تشغيلُه أو تعطيلُه بواسطة الأسئلة الملائمة. هذا يعني أن دورَ المبحوثين في المقابلة ينحصر فقط في الإجابة عن الأسئلة، وأن مهمةَ الباحث هي استخراجُ الإجابات. دعنا نتأمل انعكاساتِ هذه المسلمة. افرض أننا طرحنا في دراسةٍ حول المواقف من الإجهاض السؤالَ التالي: «هل أنت مع أو ضد الإجهاض؟»من المفترض أن هناك فقط جواباً واحداً صحيحاً على السؤال بالنسبة لكل مستجوب، أي رأيهم «الفعلي». فإذا طُرِحَ السؤالُ بشكل واضح، فإنه سينتج الجوابَ الصحيحَ، بمعنى أن المستجوبَ سيكون مع أو ضد الإجهاض. لكن هل سيتم الأمر بهذه الطريقة لو كان المستجوَب

13 – Ibid., p. 13.





رجلا والباحث امرأة؟ هل ستؤثر عواملُ الجندر على طبيعة الإجابة أو على طريقة استخراجه؟ إن معظمَ الباحثين الوضعيين (positivistes) سيتفقون على أن السياقَ الذي يجري فيه التفاعلُ وطبيعتَه اعتباراتٌ مهمةٌ؛ حيث سيعتبرونهما كشروطٍ تنبغي مراقبتُها أو استغلالُها لتحسين جودة المعطيات بدلا من النظر إليها كعوامل تبني الواقعَ أو المعرفةَ التي تنتجها المقابلة. يقول سيلفيرمان: «بالنسبة للوضعيين، إن ملاحظةَ أنه يجب أن تكون إجاباتُ المقابلةِ نتيجةً لوضعية إجراء المقابلة يجب فهمها كاتهامٍ ضد مصداقية التقنية [...] فالضوابط والتدابير تبنى في تصميم البحث. وعلى نفس النحو، تصلح لغةُ المستجوَبين، بالنسبة للوضعيين، بالأساس كأدوات لتبليغ الوقائع الاجتماعية والنفسية».[14]

III. أنواع المقابلة

يختلف منظرو البحث الكيفي في تحديد أنواع المقابلات ومسمياتها. فأحياناً يتحدث بعضُهم عن «عائلة المقابلات الكيفية»[15]؛ بينما تشير بعضُ المراجع إلى نوعين من المقابلة فقط- الشكلي وغير الشكلي[16]؛ وتحيل مصادرُ أخرى إلى هذا الإجراء البحثي إما كمقابلة مبنينة أو مقابلة غير مبنينة[17]؛ وبغض النظر عن هذا التنوع في تصور أنواع المقابلات الكيفية، يمكن إجمالا تقسيمُ المقابلة إلى ثلاثة أصناف: المقابلة القياسية (الشكلية أو المبنينة)، والمقابلة غير القياسية (غير الشكلية أو غير المبنينة)، والمقابلة شبه القياسية (شبه المبنينة أو شبه الموجهة)[18].

14 – Silverman, D.,Interpreting Qualitative Data. Method for Analysing Talk, Text, and Interaction, London : Sage Publications, 2001, p. 88.

15 – Rubin, H. J. and Rubin, I. S., Qualitative Interviewing: The Art Og Hearing Data, Thousand Oaks, CA: Sage, 1995.

16 – Fitzgerald, J. D. and Cox, S. M., Research Methods and Statistics in Criminal Justice: An Introduction, Chicago : Nelson-Hall, 1994, p. 101-102.

17 – Fontana, A. and Frey, J., «Interviewing...» op. cit.

18 – Berg, B. L.,Qualitative Research Methods for the Social Sciences, 4th ed., Boston: Allyn & Bacon, 2001, p. 69-70.





1. المقابلة المبنية

إن معظمَ تقنياتِ المقابلة السائدة في أوساط علماء الاجتماع هي **المقابلة المبنيَنة**. وتخضع هذه المقاربة لثنائية الباحث/المبحوث التي ناقشناها أعلاه. وقد بدأت المقابلة المبنية تهيمن على حقل البحث السوسيولوجي أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها[19]. إذ أظهرت الدراساتُ النسقيةُ التي أجريت في تلك الفترة على كبار الضباط كيف أمكن للبحث المبني على المقابلة المبنية أن يوفر معلوماتٍ مفيدةً بطريقة فعالة وبكلفة أقل. وبتزامن مع ذلك، سمحت التطوراتُ الحاصلةُ في مجال الإحصاء بتحليل وتأويل مجموعاتٍ واسعةٍ من المعطيات بسهولة نسبية. وأخيراً، أقنع ظهورُ استطلاعاتِ الرأيِ (إجراء بحث مسحي حول أراء عدد كبير من الأفراد المتعلقة بقضية أو منتوج معين) الباحثين والناسَ العاديين بأن المقابلات المبنية يمكن أن تخدم المصالح السياسية والتجارية على حد سواء[20].





استُعمِلَتْ كلمةُ «مقابلة» في بداية دخولها مجال العلوم الاجتماعية لتحيل أساساً إلى اللقاءات وجها لوجه بين الباحث والمبحوث. واتسع تعريفُ المقابلة ليشمل البحوثَ بالهاتف و«التواصل بواسطة الحاسوب»[21]، حيث يمكن مثلا للمبحوثين أن يتفاعلوا مع الباحث في غرف الدردشة عبر الإنترنيت. كما تم التمييز مبكراً بين مصطلح الدليل(guide/schedule) الذي يعني الأداة التي يجري بها الباحث المقابلات (مثلا، الباحث هو من يطرح الأسئلة) ومصطلح الاستمارة (questionnaire) الذي يعني أن المبحوث يجيب عن

19 - Fontana, A. and Frey, J., «The Interview: From Structured Questions to Negotiated Text», in Denzen N. and Y. Lincoln (eds.), op. cit., 645-671, p. 648-649.

20 - Platt, J., «The History of the Interview», in J. Gabrium and J. Holstein (eds.), Handbook of Interview Research: Context and Method, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2002: pp. 49-51.

21 - Man, C. and Stewart, F., «Internet Interviewing», in J. Gabrium and J. Holstein (eds.), Handbook of Interview Research..., op. cit., pp. 603-628.





الأسئلة بدون تدخل من الباحث[22].

جدير بالذكر أن المقابلة المبنينة تقوم على نفس المنطق البحثي الذي تقوم عليه الاستمارة. ومن ميزتها أنها تسمح بإجراء مقارنات بين إجابات المبحوثين مثلما يمكن تكميم هذه الأخيرة. وإذا كانت المقابلة المبنينة مفيدة لتحقيق هذه الأهداف، فإنها لا تسمح باستغلال الإمكانيات الحوارية التي تميز المحادثات البشرية، والتي بإمكانها توفير معلومات تلقائية. إذ أنها تسجل بشكل سلبي آراءَ واتجاهاتِ المستجوَبين، بمعنى أنها تغفل الديناميات التي تميز اللقاءات الحوارية.

إن العناصرَ الأساسيةَ للمقابلة المبنينة حسب فونتانا وفري[23] هي: طرحُ الباحثِ نفسَ الأسئلة دون تغيير صياغتها؛ ومراقبة صارمة لبروتوكول المقابلة باستعمال سيناريو معين (أو وصف خاص جداً للكيفية التي ينبغي أن تتم بها المقابلة). وعموماً، يجب على مستعمل المقابلة المبنينة أن يتبع القواعد التالية:



- قراءة الأسئلة كما هي مكتوبةٌ دون ارتجالٍ في الصياغة؛
- ربط الإجابات بالأسئلة دون تأويل أو إعادة صياغة. وفي حالة السؤال المفتوح، ينبغي تسجيل الجواب بحرفيته؛
- الحفاظ على علاقة مهنية ومحايدة مع المبحوث. يجب على الباحث ألا يقدم للمبحوث معلوماتٍ شخصيةً وألا يفصح له عن رأيه حول موضوع الدراسة أو يدلي بتعليقات تتضمن أحكاماً حول مضمونِ جوابٍ معين.[24]

22 - Platt, «The History...», op. cit., p. 36.

23 - Fontana and Frey, «The Interview...», op. cit., p. 649.

24 - Fowler, F.J., «Reducing Interviewer-Related Error through Interviewer Training, Supervision, and Other Means», in P.P. Biemer, R.M. Groves, L.E. Lyberg, N.A.Mathiowetz and S. Sudman (eds.), Measurement Errors in Surveys, NewYork: John Wiley, 1991: 269–278, p. 264.







• وجاهة الأسئلة: يجب أن تكون الأسئلةُ ذاتَ صلةٍ بالمبحوث، بمعنى أن يكون المستجوبُ قادراً على الإجابة عنها نظراً لأنه جربها من قبل أو له معلومات عنها.

• استعمال منطق العرض: لا أحد يحب أن تطرح عليه أسئلةٌ لا تهمه، خصوصاً إذا كان الباحثُ يتوفر على معلوماتٍ تتعلق ببروفيل المستجوب. مثلا، إذا سبق للمبحوث أن أطلع الباحثَ عن أنه لم يسبق له التمدرس من قبل، فمن غير المنطقي أن يسأله عن مستواه الدراسي.

• اقرأ أسئلتك جهراً وبوضوح: يقترف الباحثُ المبتدئُ خطأ من شأنه أن يؤثر سلباً على وجاهة المعطيات التي جمعها، وهو استعماله للغةٍ غيرِ واضحة. ذلك أن الصياغةَ غيرَ الواضحة للأسئلة يمكن أن تنفر المستجوب، أو في أفضل الحالات تجعله ينشغل بالصياغة الشكلية للسؤال بدلا من التركيز على مضمونه. وأفضل طريقة للتأكد من أنك صغت أسئلة واضحة ومفهومة هو القيام بتجربة مع بعض أصدقائك أو زملائك، بحيث تلقي عليهم أسئلتك جهراً لتعرف مدى وضوحِها وأنها تحتمل معنى واحداً هو المعنى الذي قصدته عندما كنت تصيغها.

هذه التعليمات ترتكز على مسلمةِ أن المصدرَ الأساسيَّ للخطأ أو للنتائج المغلوطة هو طرائقُ جمع المعطيات وغيابُ التكوين لدى الباحث. يدرس الباحثون بواسطة المقابلات المبنينة كيف تختلف إجابةُ مبحوثٍ عن إجاباتِ مبحوثين آخرين، أو إنهم بصيغة أخرى يدرسون «التغير في المفهوم الخاضع للقياس»[25]. تم يتم بعد ذلك ربطُ التغيرات بالمتغيرات الاجتماعية، كسنِ المبحوث أو جنسه أو عرقه أو طبقته الاجتماعية.

25 – Schaeffer, N. C. and Maynard, D.W., «Standardization and Interaction in SurveyInterviewing», in J. Gabrium and J. Holstein (eds.), Handbook of Interview Research : Context and Method, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2002: 577–601, p. 578.







إذا كان الباحثُ مهتمّاً بقياسِ كيف يؤثر التحيزُ العرقي على الاتجاهات إزاء عقوبة الإعدام، يجب أن يرغب في معرفة هل للمبحوث (ص) موقف إيجابي إلى هذا الحد أو ذاك من هذا الموضوع مقارنةً بالمبحوث (س). فقد استنتجت دراسة أمريكية مستندة إلى المسح بواسطة المقابلات أن من يدعم عقوبة الإعدام من بين الأمريكيين البيض هم أولئك الذين لهم تصوراتٌ متعصبةٌ عرقيّا.[26] فالتعريفات المتنوعة والتجارب الشخصية للموضوع الخاصة بالمشاركين في الدراسة (مثلا، هل لهم قريبٌ كان ضحية أو مذنباً في قضية عقوبة إعدام) لن تكون لها أيُّ أهميةٍ مباشرة إن لم يتم تحويلُ هذه التجارب إلى مواد قابلة للقياس. في هذا الإطار، يحاول الشخص الذي يطرح الأسئلة ألا «يلوث» إجاباتِ المبحوثين بالدخول في تفاصيل الحياة الحميمية أو بإبداء أحكام وآراء. إن الهدف هو ضمانُ أن يتلقى كلُّ المستجوبين نفسَ المعاملة حتى يمكن إرجاعُ الاختلاف بين إجاباتهم إلى اختلافِ مواقفهم من الموضوع، وليس إلى اختلاف طريقة معاملتهم من طرف الباحث.

كيف ينبغي للباحث أن يتعامل مع واقعة أن المستجوبين يقولون لنا أحياناً ما نريد سماعَه؟ إن المفهومَ المستعملَ في أدبيات البحث السوسيولوجي هو «مفعول المرغوبية الاجتماعية». ويحيلُ هذا المفعولُ إلى ميلِ المستجوبين إلى تشويه مشاعرهم وآرائهم «الحقيقية» بالرد على بعض الأسئلة بطريقة مقبولة اجتماعياً. مثلا إذا أجرينا مقابلاتٍ مباشرةً مع تلاميذ الثانوي لمعرفة كم مرةً يعتدون جسدياً على زملائهم، فإن كثيرين منهم سيقللون من عدد المرات أو سينكرون القيام بها نظراً لأن المجتمع يستهجن ممارسةَ العنف الجسدي. يمكن للباحث بالمقابلة المبنينة أن يحل هذه المشاكل بإعادة صياغة الأسئلة أو بتعديل أدوات القياس بحيث تبدو أقل تطفلا أو اتهاماً. مثلا، بدلا من طرح السؤال «كم مرة اعتديت جسديا على

26 – Barkan, S. E. and Cohn, S. F., «Racial Prejudice and Support for the Death Penaltyby Whites»,Journal of Research in Crime and Delinquency, 31, 1994: 202–209.





زملائك؟»، يمكنه إعادة صياغة السؤال على النحو التالي: «كم مرة تصبح متورطاً في خلافات جسدية مع زملائك؟».

تتميز المقابلة المبنينة أيضا بكون أسئلتها تتبع منطقاً وأسلوباً منهجييْن؛ إذ ينبغي أن يكون الباحثُ على يقينٍ من أن الأسئلةَ الواردةَ في دليل المقابلة سوف لن تكون غامضةً بالنسبة للمستجوَبين. مثلا، ينبغي على الباحث أن يتجنب الأسئلةَ التي تتعلق بموضوعين، بمعنى يجب عليه أن يتجنب الحديثَ عن موضوعين في آن واحد. وكمثال على هذا النوع من الأسئلة التي يجب تفاديها: «كم مرة خلال هذه السنة زرت أروقة للفنون التشكيلية، أم أنك ذهبت إلى السينما فقط؟». كما يجب أيضاً على الباحث أن يترك جانباً الأسئلةَ ذاتَ الحمولة العاطفية أو المشحونة بالقيم وأن يجعل لغتَه محايدةً ودقيقةً قدر الإمكان. مثلا، ينبغي تفادي أسئلة من هذا النوع: «ما هي في رأيك سلبيات إصلاح صناديق التقاعد؟»، أو «هل يجب على المغاربة أن يشتروا السيارات المستوردة التي تهدد الاقتصاد الوطني؟». إن «الأسئلة المشحونة»، أي المحملة بالقيم أو بالانفعالات توجه المبحوثَ لأنها تمارس عليه ضغوطاً اجتماعية وتجعله يفكر في أجوبةٍ مرغوبٍ فيها اجتماعياً لم يكن ليفكر فيها لو كانت الأسئلةُ مصاغةً في لغة محايدة عاطفياً وقيمياً. فضلا عن ذلك، يجب تفادي الأسئلة المتحيزة التي تبدو من خلال صياغتها أنها تتضمن موقفا معيناً، كأن يطرح الباحث على المبحوث أسئلة تبدأ كما يلي: «ألا تعتقد أن...»، «ألا تتفق معي في أن...؟

وينبغي للباحث أيضاً ألا يطرح أسئلةً مباشرةً مصاغةً في كلمة أو كلمتين، كأن يسأل المبحوث «لماذا؟» خوفاً من أن يعتبر المستجوبُ هذا النوعَ من الأسئلة وقاحة.[27] وأخيراً يجب على الباحث السوسيولوجي أن ينتبه إلى تسلسل الأسئلة أو الترتيب الذي يتبعه في طرحها. والهدف من ذلك هو خلقُ علاقةِ ثقةٍ مع المبحوث

27 – Berg, B. L.,Qualitative Research... op. cit., p. 79.





من خلال طرح أسئلة أكثر حياداً في البداية، قبل الانتقال إلى المواضيع الأكثر إثارة للخلاف.

2. المقابلة شبه المبنينة

وتسمى أيضاً المقابلة شبه الموجهة. يقدم لها فليك التعريف التالي: «إنها عبارةٌ عن أسئلةٍ مفتوحةٍ إلى هذا الحد أو ذاك يتم استعمالُها في وضعية الاستجواب في شكل دليل مقابلة»[28]. ويبدو جلياً أن الغاية منها هي تحقيقُ فهمٍ للظاهرة المدروسة بالاعتماد على معطيات سردية، أي كيفية. وتستعمل لجمع المعطيات الاجتماعية الكيفية، أي عندما يكون هدفُ الباحث هو التعرف على تجارب المبحوثين وسلوكاتهم والكيفيات التي يفهمون بها عالمهم الاجتماعي، وكيف يختبرون هذا العالم، وماذا يفسر هذه التجارب وكيفيات الفهم. فالباحث يهتم أساساً في هذه الحالة بالمعلومات التي يمكن للمستجوَب أن يقدمها بخصوص موضوع الدراسة وكذا بالطريقة التي يتحدث بها عن تجاربه ومواقفه؛ بمعنى أن الباحث يهتم في الآن ذاته بمضمون المقابلة والطريقة التي يعبر بها المبحوثُ عن ذلك المضمون. ويتضح من خلال هذا التعريف أن المقابلةَ شبهَ المبنينةَ تطابق في كثير من أهدافها أهدافَ المقابلة المبنينة. وبالفعل، يتفق الباحثون على أن هناك تشابهاتٍ كثيرةً بينهما من حيث الأهداف العلمية التي يسعيان إلى تحقيقها والفلسفة التي توجههما.

لكن هناك فروقاً بين المقابلة شبه المبنينة والمقابلة المبنينة والمقابلة غير المبنينة تتمثل أساساً في درجة تحكم الباحث في مجرى الاستجواب. ذلك أن درجةَ بنينةِ هذه الأشكال من المقابلة تتوقف على درجة انخراط الباحث في وضعية المناقشة، ودرجة تدخله في توجيهها. فكلما قلَّ تدخلُ الباحث كلما زادت درجةُ بنينة المقابلة، والعكس صحيح.

28 – Flick, U.,An Introduction to Qualitative Research, 4th ed., Thousand Oaks, CA : Sage Publications, 2009, p. 95.





وعموما، إذا كانت الفروقُ واضحةً بين المقابلة شبه المبنينة والمقابلة المبنينة، فإن الباحثين المبتدئين غالباً ما يخلطون بين المقابلة شبه المبنينة والمقابلة غير المبنينة. لذلك سوف نبرز يلي الخصائص التي تميزهما عن بعضهما البعض:

- تتخذ المقابلة شبه المبنينة موقعاً بين المقابلة المبنينة والمقابلة غير المبنينة، ولذلك يمكن أن نطلق عليها «المقابلة غير المبنينة الموجهة بدليل». وتتضمن هذه العبارةُ فكرةَ أن هذه المقابلة تستعير من المقابلة المبنينة خاصيةَ أنها تعتمد دليلا يتضمن مجموعةً من الأسئلة (تطرح على مجموع المستجوَبين بنفس الصياغة ونفس الترتبيب)، ومن المقابلة غير المبنينة فكرة النقاش المفتوح بين الباحث والمبحوث.




- يشغل الباحثُ والمبحوثُ موقع متساوياً من حيث الأهمية. إذ يمكنهما اقتسامُ الكلمة بالتساوي، بخلاف المقابلة المبنينة التي يتحكم فيها الباحثُ ويطرح على المبحوث أسئلةً محددةً تلزم المبحوثَ بالاقتصار على الإجابة دون زيادة أو نقصان، وبخلاف المقابلة غير المبنينة التي يكون فيها عددُ الأسئلة قليلاً جداً، ويحتكر فيها المبحوثُ أكبرَ مساحة من القول، ولا يتدخل الباحثُ إلا نادراً لتعميق النقاش بخصوص نقطة معينة.

- يكون الباحثُ في المقابلة شبه المبنينة مرفوقاً بدليلِ مقابلةٍ يشمل أسئلةً موزعةًإلى محاور محددة ترتبط نفسُها بأهداف البحث، منها ما هو مفتوح وما هو مغلق. إذ يجب على الباحث أن يطرح أسئلةً يتوقع منها إجابات مغلقة (نعم/لا، مثلا) تكشف عن آراء المبحوث بخصوص مواضيع معينة، وغالبا ما تكون هذه الآراء في شكل تعريفاتٍ لهذه المواضيع أو منطوقاتٍ تعبر عن موافقةِ أو رفضِ المبحوثِ لقضايا معينة. ويجب على الباحث أيضاً أن يرفق هذه الأسئلة بأسئلة مفتوحة يتوقع منها إجاباتٍ سرديةً يكون الغرضُ منها جسُّ نبضِ المبحوث أو معرفةُ مشاعره اتجاه تلك القضايا والكيفيات التي اختبرها بها.





• في المقابلة غير المبنينة، يتلافى الباحث قدر الإمكان توجيه المبحوث أو التحكم في طريقة جوابه يتفادى الباحث ما أمكن التأثير في جواب المبحوث أو التحكم في مجرى المقابلة. بحيث يمكن للحديث أن يتخذ اتجاهاتٍ متعددةً تبعاً للأفكار التي يراها المبحوثُ جديرة بالأهمية. ويكتفي الباحثُ بطرح أسئلةٍ إضافيةٍ قليلةٍ تتعلق بالقضايا التي يتحدث عنها المبحوث. هذا النوع من المقابلة يستغرق وقتاً طويلا ويتوقف على استعدادات الباحث والمبحوث والوقت الذي يتوفران عليه.

• في المقابلة شبه المبنينة، يستعمل الباحثُ دليلا يشتمل على مجموع المحاور والمواضيع التي يهدف البحثُ إلى تغطيتها. ويتمتع الباحثُ بقدرٍ من حريةِ التصرف في ترتيب الأسئلة التي يطرحها، لكنه ملزم بالاكتفاء بطرح الأسئلة المتضمنة في الدليل، بما فيها الأسئلة التي تساعد على استئناف الحديث أو تعميقه،والتي يكون الغرضُ منها تغطيةُ مجموع المحاور المدروسة. وبصيغة أخرى، إن الباحثَ ملزمٌ باحترام دليل المقابلة وترتيب المحاور، لكنه يتمتع بقدر من حرية الانحراف عن مضمون الدليل إن شعر بأن ذلك ضرورياً.

• حسب راسل برنارد[29]، يستحسن بالنسبة للباحث أن يستعمل المقابلةَ شبه المبنينة في الحالة التي لن تتوفر له سوى فرصةٌ واحدةٌ لاستجواب شخص ما، وعندما يكون عدة باحثين مشاركين في عملية جمع المعطيات. كما يُفضَّلُ استعمالُ هذا النوع من المقابلة عندما يوفر دليلُ المقابلة للباحث مجموعةً واضحةً من التعليمات التي توجه عمليةَ إجراء المقابلة، وعندما يكون الدليلُ قادراً على تمكين الباحث من الحصول على معطيات موثوقة وقابلة للمقارنة.

3. المقابلة غير المبنينة

إن عبارة «المقابلة غير المبنينة» اسمٌ مغلوط نظراً لأنه لا وجود لمقابلة غير مبنينة كليّاً. فالمحادثات الطبيعية، أي التي تجري في الحياة اليومية، لها أيضا

29 – Bernerd, H.R.,Research Methods in Cultural Anthropology, London : Sage Publications, 1988, p. 204.





بنيةٌ معينةٌ، حتى وإن كانت بنيتُها تختلف عن بنية المحادثة في البحث العلمي. لذا ينبغي ألا ننسى أن المقابلةَ غيرَ المبنينة تتضمن درجةً معينةً من تحكم الباحث في عملية الاستجواب؛ فإذا كانت أسئلةُ هذا النوع من المقابلة مفتوحةً، فإن هذا لا ينفي مع ذلك أن الباحث، أثناء إجرائه المقابلة، يكون مزوَّداً بأسئلة البحث التيتوجه لقاءه مع مبحوثيه. وهذا ما دفع ببعض منظري البحث الكيفي إلى استبدال عبارة «المقابلة غير المبنينة» بعبارة «المقابلة الأقل بنينةً»[30].

وعموماً، يتميز هذا النوعُ من المقابلة بكونه أقلَّ صرامةً وتشدداً فيما يخص أسسَ الاستجواب التي سبق أن تحدثنا عنها من قبل. فالمقابلة غير المبنينة، التي تسمى أيضا المقابلة المفتوحة، تسمح بتفاعلٍ أكثرِ مرونةً بين الباحث والمبحوث. إذ لا يكون المستجوَبون في هذا الشكل من المقابلة ملزمين بأن يختاروا من قائمة الأسئلة المعدة سلفاً؛ بل يمكن لهم أن يوضحوا تصريحاتهم ويربطونها بمسائل أخرى ذات صلة. في الواقع، تطلق بعضُ الكتاباتِ على هذا الإجراء الخاص بجمع المعطيات كلمةَ «محادثة»، مشيرة بذلك إلى أسلوبَه غيرُ شكلي وتخاطبي. لنلق نظرة على هذا المقطع من مقابلة متخيلة:

> **الباحث:** لكل شخص قصة حياة. هل يمكن لك أن تحدثنا قليلا عن حياتك؟
>
> **المبحوث:** حسناً، ليس هناك في حياتي ما يستحق الحكي. فقد كنت أشتغل نادلا في مقهى قبل زواجي. وعندما تزوجت، انتقلت إلى الدار البيضاء واشتغلت سائق طاكسي. الحياة صعبة هناك. ابني وابنتي ولدا في هذه المدينة...

يلاحظ القارئ أن أسئلةَ المقابلة غير المبنية إجراءٌ يقوم على الحد الأدنى من اللغة، بمعنى أنها تقدم فقط توجيهاً عاماً وتترك للمبحوث المجالَ مفتوحاً لسرد قصته. يقوم هذا الصنفُ من الاستجواب على جمع المعطيات مع إعطاء المستجوَب

30 – Wilson, M. and Sapsford, R., «Asking Questions », in R. Sapsford and V. Jupp (eds.), Data Collection and Analysis, 2nd ed., Thousand, CA : Sage Publications, 2006: 93–123, p. 97.







حريةَ الحديث بإسهابٍ عن رأيه في موضوع معين أو عن حياته أو جزء من حياته. ويتمثل دورُ الباحث في توجيه تدفقِ المعلومات بما يخدم موضوعَ الدراسة. ويركز هذا النوعُ من المقابلة على العناصر الوجيهة ذات الصلة بالموضوع المدروس.

تتميز المقابلةُ غير المبنينة، التي تسمى أيضا المقابلة غير الموجهة، بكونها تتكون من أسئلة مفتوحة ولا تعتمد على ما يسمى «دليل مقابلة» يتضمن مجموع الأسئلة التي يجب طرحها على المبحوث، بخلاف المقابلة المبنينة، أو الموجهة، التي تتكون من لائحة من الأسئلة المعدة سلفاً. وبعبارة أخرى، إن الهدفَ من اختيار المقابلة غير المبنينة هو الاستكشافُ الدقيقُ لمواضيع معينة باستعمال التحقيقات والتحفيزات والأسلوب المرن في طرح الأسئلة، بمعنى أن الباحثَ ليس ملزماً بطرح نفس الأسئلة على جميع المبحوثين وبنفس الترتيب. لذا ينبغي على الباحث أن يحتفظ في ذهنه بأن المقابلة غير المبنينة تقوم على فكرة أن إنتاجَ المعطيات وجمعَها ممارسةٌ مشتركةٌ بين الباحث والمبحوث. ذلك أن التحفيزات والتحقيقات في المقابلات الكيفية تسمح للباحث والمبحوث بالدخول في حوارٍ مثمرٍ حول الموضوع المدروس، وتجعلهم يتحققون مما إذا كانوا يقتسمون الفهمَ نفسَه للمعاني التي يتم توليدها.

يجب على ممارس البحث الكيفي أن يتذكر دوماً أن المبحوثَ يتمتع في المقابلة غير المبنينة بدورٍ مركزيٍّ في تحديد جدول أعمال المقابلة، وأن الباحثَ ملزمٌ بأن يستخدم في مناقشة الموضوع الإطارَ المرجعيَّ للمبحوث ولغتَه ومفاهيمَه. وهذا أمرٌ مهمٌّ جداً ما دام أحدُ أهمِّ أهداف البحث الاستكشافي (الاستطلاعي) هو الكشفُ عن مواضيع وقضايا ذاتِ صلةٍ لم يكن لا الباحث ولا المبحوث قد فكرا فيها من قبل أو أنهما لم يفهماها بشكل جيد أو تحدثا عنها بشكل عام. فضلا عن ذلك، يسمح هذا النوعُ من المقابلة للمبحوث بقيادة الباحث نحو استكشاف ميدان مجهول نسبياً. لذا يسمح للمبحوث بتقديم أمثلةٍ من أجل بناء قصته.

ونعرض فيما يلي نموذجاً لدليل المقابلة غير المبنينة من دراسة فايسمان حول





النشطاء السياسيين الشباب في الأحزاب البريطانية[31]:

بعد التقديم...

أوجه دعوة مفتوحة للمبحوث ليحكي لي قليلا عن خلفيته وتاريخه الاجتماعيين.

كيف توصلت إلى القيام بدور الناشط السياسي؟ كيف وصلت إلى هذا الوضع الذي أنت عليه الآن؟

- تأثير الأسرة أو أفراد مهمين آخرين؟
- أحداث معينة؟

هل تشعر أن انخراطك في العمل السياسي كان اختياراً واعياً أم كان نتيجة لمجموعة من الأحداث/العمليات غير الواعية؟

ما الذي حفزك على أن تكون ناشطاً سياسياً؟ (لماذا؟)

ما الذي يحفزك الآن؟

ماذا تفعل الآن في إطار نشاطك السياسي؟

- أنواع النشاط/الالتزام بالوقت
- هل تحفزك الأحداث؟

ما هي أهدافك السياسية؟ (ماذا؟)

- المساهمة في توجيه السياسة العمومية/ أهداف ذاتية؟
- كيف توازن بين هذه الأهداف؟

كيف تقيم تجربتك كناشط سياسي؟

- جيدة أم سيئة، ممتعة أم محبطة؟

ما الذي يجعلك إيجابياً بخصوص ما تفعل؟ أمثلة؟

هل هناك شيء يجعلك تشعر بالسلبية بخصوص ما تفعل؟ أمثلة؟

[...]



31 – Weinstein, M., A Comparative Analysis of Youth Activism in Mainstream Political Parties andNew Social Movements in Britain, Unpublished PhD thesis, Nottingham Trent University, 2005.

نقلا عن:

Henn, M., Weinstein, M. and Foard, N.,A Short Introduction to Social Research, op. cit., p. 173–174.





لاحظ كيف حرر الباحثُ الأسئلةَ بكاملها، لكنها، بخلاف أسئلة المقابلة المبنينة أو الاستمارة، ليست مرتبة مسبقاً. كما أن دليلَ المقابلة يتضمن تحفيزاتٍ وتحقيقاتٍ تشجع المستجوَب على بناء إجاباته وتوسيعها وعلى تقديم أمثلة تستخدم براهين.

أ. شروط إجراء المقابلة غير المبنينة

يمكن لنا أن نتجرأ ونعتبر المقابلةَ فنّاً يعكس شخصيةَ الباحث. لكن ليس هذا كلُّ شيء: إذ يمكن للباحث أن يتعلم تقنيات المقابلة ومؤهلات إجرائها بشكل مثمر. لهذا السبب أعطى سايدمان لأحد فصول كتابه[32] عنوان «ليست التقنيات كلَّ شيء، لكنها تمثل الكثير». واقترح مجموعةً من الشروط التي يجب على الباحث السوسيولوجي أن يحترمها أثناء إجراء المقابلة والتي تشكل المؤهلات الضرورية لكلِّ باحثٍ يرغب في ممارسة المقابلة الكيفية، وهي:

<u>استمع أكثر وتكلم أقل</u>

يُعتَبَرُ الإنصاتُ أهمَّ كفاءةٍ في المقابلة. فأصعبُ عملٍ بالنسبة للعديد من الباحثين هو التزامُ الصمت والاستماع المتواصل. لذلك يجب على الباحث أن ينصت على ثلاثة مستويات على الأقل: أولا، يجب عليه أن ينصت إلى ما يقوله المبحوثون. إذ ينبغي أن يركز على الأساسي لكي يكون متأكداً من أنه يفهم المبحوثين وأن يقرر ما إذا كان ما يسمعه دقيقٌ وكاملٌ بالقدر الذي يرغب فيه. وينبغي للباحث أن ينتبه جيداً إلى كلام المبحوث من أجل أن يحتفظ في ذاكرته بهذا الكلام. ولعل أهمية هذه القاعدة تكمن في أن أسئلة الباحث غير المبنينة تصدر في الغالب من هذا الاستماع الأولي.

وعلى المستوى الثاني، يجب على الباحث أن يستمع إلى ما يسميه جورج

32 – Seidman, Interviewing as Qualitative Research…, op. cit., p. 78–94.





شتاينر «الصوت الداخلي»[33]، في مقابل الصوت الخارجي الأكثر عمومية. يعكس الصوتُ الخارجيُّ دائماً وعياً بالمقابلة. ليس هذا الصوتُ كاذباً أو مزيفاً، لكنه يتسم بالحذر. إنه صوتٌ يمكن أن يستعمله المستجوَب إذا توجه بالخطاب إلى جمهورٍ واسعٍ من المستمعين. إن هناك لغةً للصوت الخارجي يمكن للباحث أن يصبح حساساً لها. وكمثال على ذلك، في بحث أجراه أحد مؤلفي هذا الكتاب حول الهويات المهنية[34]، عندما كان المستجوَب يجيب عن سؤال يتعلق بتحديد درجة رضاه عن التواصل داخل المؤسسة التي يشتغل بها، كان يقول مثلا: «إنني أشتغل بكل صدق رغم التهميش». إن المعنى الظاهر لهذا الجواب يندرج في الصوت الخارجي، وفي الغالب ما يتم أخذه بظاهره وتصنيفه في فئة الالتزام المهني مثلا. لكن حرصَ الباحث على بلوغ الصوت الداخلي كان يجعله يتساءل عما إذا كان هذا الالتزام المهني يعبر عن «تحدي التهميش» أم «روح المغامرة» أم «الرغبة في تحقيق الذات» الخ. لذلك طرح الباحثُ على المبحوث أسئلةً إضافيةً لمزيد من التوضيح. غيرَ أنه يجب على المستجوِب أن يأخذ بجدية لغة المستجوَب دون أن يضعه في موقف دفاعي، أي دون أن يجعله يشعر بالإحراج وهو يقدم مزيداً من التوضيحات.



وعلى المستوى الثالث، يجب على الباحث- كما هو الشأن بالنسبة للمدرس في الفصل- أن ينصت وأن يظل في الوقت نفسه واعياً بعملية الاستجواب والمادة التي يسجلها. ومعنى ذلك أنه يجب عليه أن ينتبه للمدة التي تجري فيها المقابلة، وللموضوعات التي تمت تغطيتها وتلك التي ما زال ينبغي طرحها. كما يجب عليه أن يراعي مستوى طاقة المبحوث على متابعة الاستجواب والمؤشرات غير اللغوية التي يظهرها.

33 – Steiner, G., «The Distribution of Discourse», In G. Steiner (ed.), On Difficulty andOther Essays, New York: Oxford University Press, 1978: 61–94.

34 – احجيج، حسن، التدبير العمومي الجديد: شركات الدولة بين قيم الخدمة العمومية وقيم المقاولة، الدار البيضاء، منشورات مدى، 2017.





ولتسليط الضوء على كيفية استغلال الباحث لكفاءة الإنصات التفاعلي، نورد مثالا ملموسا مقتطفا من مقابلة أجراها نفس الباحث في دراسته للهويات المهنية:

> **الباحث:** هل يمكن لك أن تحدثني بتفصيل عن تجربتك النقابية قبل انتقال المؤسسة إلى شركة وبعد الانتقال؟
>
> **المبحوث:** تفاصيل بعد الانتقال... حسنا.
>
> **الباحث:** تفاصيل تجربتك...
>
> **المبحوث:** نعم.
>
> **الباحث:** قبل الانتقال وبعده.
>
> **المبحوث:** تقصد... كيف أسسنا النقابة من قبل...
>
> **الباحث:** أقصد كيف مارست العمل النقابي عندما كانت المؤسسة إدارة عمومية وكيف أصبحتَ تمارسه عندما تحولت إلى شركة وطنية ابتداء من سنة 2006.
>
> **المبحوث:** آه، فهمتك الآن. دعني أبدأ بالأسباب التي جعلتنا نؤسس النقابة في RTM...




يوضح هذا المقتطفُ من المقابلة أن المبحوثَ لم يستطع في البداية الحديثَ عن الموضوع المقصود من طرف الباحث. لكن تركيزَ الباحث على جواب المبحوث وإنصاته التفاعلي مكّناه من دفع المبحوث بلطف إلى الإجابة على السؤال بالطريقة المتوقعة، حيث ظل مركزاً على الاستماع إليه ومساعدته على دخول الإطار المرجعي المطلوب، وإعطائه مساحةً واسعةً للجواب حتى في اللحظة التي تظهر عليه بعض الترددات (كما تشير إلى ذلك نقط الحذف).

<u>استأنف المقابلة من حيث توقف المبحوث</u>

سبق أن أشرنا إلى أن المقابلة غير المبنينة، بخلاف المقابلة المبنينة، لا تتبع نفس الأسئلة ونفس تسلسلها. كما أنها تختلف عنها بهامش الارتجال الذي يتمتع به الباحث في طرح أسئلته. لذلك فإن أفضل طريقة لطرح الأسئلة هي أن يستأنف الباحث الأسئلة من حيث أنهى المبحوث جوابه عن السؤال السابق.





فحتى وإن جاء الباحثُ بأسئلةٍ أساسيةٍ تشكل هدفَ المقابلة وإشكاليتها، فإن الباحثَ يستأنف طرحَ أسئلته مما قاله المبحوث، حيث يطلب منه تقديم المزيد من التوضيحات، ويسعى إلى تفاصيل ملموسة، ويبحث عن قصص أعمق. إن المهمة الأساسية للباحث في المقابلة غير المبنينة هي الاستماع الفعال من أجل السير قدماً بالاستجواب من خلال استغلال ما شرع المستجوَب في البوح به.

اطرح أسئلة عندما لا تفهم جيداً

إن فهمَ كلِّ ما يقوله المستجوب مهمةٌ صعبةٌ حقاً. فأحياناً لا يكون السياق واضحاً، وفي أوقات أخرى لا يفهم الباحثُ المرجعَ الخاصَّ لما يبوح به المبحوث. إننا نسمح في محادثتنا اليومية لأشياء بأن تمر خفية دون فهمها. لكن هذه الأشياء التي تمر خلسة تعوق عملية البحث برمته؛ لأنها تؤدي إلى إغفالِ معطياتٍ مهمةٍ من شأنها أن تساعدنا على بناء نظرية أو فرضية أو تسليط الضوء على نقطة حاسمة.




تقوم بنيةُ المقابلة على التراكم، بمعنى أن المقابلةَ السابقةَ تؤسس السياقَ للمقابلة التالية. لذلك إذا لم يفهم الباحثُ شيئاً في المقابلة الأولى، فمن المحتمل جداً ألا يفهم معنى شيءٍ يقوله مبحوثٌ آخر بعد ذلك. لذلك ينبغي أن تصبح المقاطعُ في المقابلات روابطَ لبعضها البعض بحيث لا يمكن التكهن بها. كما أن الباحثُ عندما يخبر المبحوثَ بأنه لم يفهم شيئاً، فإنه يعطيه الانطباع بأنه يستمع إليه، وهو أمر محمود في المقابلات.

فضلا عن ذلك، من الأهمية بمكان فهمُ التجارب في سياقها الخاص؛ لذا ينبغي للباحث البحثُ عن هذه السياقات بطرحِ أسئلةٍ ملائمةٍ مثل «هل يمكن لك أن تقول لي مرة أخرى متى وقع ذلك؟». لاحظ أننا استعملنا هنا كلمة «مرة أخرى» بهدف ألا نوحي للمبحوث أنه لم يكن واضحاً في إجابته، وإلا فإننا سنضعه في موقف دفاعي أو نعطيه الانطباع بأننا لم نكن نستمع إليه.





يستعمل المبحوثُ أحياناً كلماتٍ غامضةً تبدو ذاتَ دلالةٍ بيّنةٍ لكنها غير واضحة في الحقيقة. مثلا، يمكن للمبحوث أن يقول في معرض جوابه «أعتقد أن الناس في هذه المدينة لطفاء». لكن ما يقصده بكلمة «لطفاء» ليس واضحاً لأنها تحتمل أكثر من معنى. لذا من المفيد للبحث أن يطرح الباحثُ على المبحوث سؤالا في سبيل الحصول على معنى واضح للكلمة: «ماذا تقصد بلطفاء؟». وليس مستبعداً، بل من المرجح جداً، أن يتحدث المبحوثُ بعمق أكبر عن تجربته في المدينة، وسيفهم الباحثُ بشكل أفضل التعقيدات التي يتضمنها استعماله لكلمة «لطفاء» التي تبدو كلمة بسيطة.



اطرح مزيداً من الأسئلة لفهم أفضل

يجب على الباحث أن يطرح مزيداً من الأسئلة عندما يشعر بأن المعطياتِ التي قدمها المبحوث غيرُ كافية. ففي بعض الأحيان، يمكن للباحث ألا يتلقى من المستجوَب سوى بعض العموميات. وفي هذه الحالة، يكون الباحثُ ملزماً بطلب تفاصيل أكثر حول الموضوع الذي كان حديثُ المبحوثِ عنه غيرَ كافٍ.

اطرح أسئلة حقيقية

يقصد سايدمان بالسؤال الحقيقي السؤال الذي لا يعرف الباحث جوابَه. فإذا كان الباحث يعتقد أنه يعرف الجوابَ مسبقاً، يستحسن أن يقول للمبحوث مضمونَ الجواب ويطلب منه التعليق عليه.

تجنب الأسئلة الإيحائية

إن السؤال الإيحائي هو الذي يوجه الجوابَ نحو وجهة معينة. وينبغي للباحث أن يكون واعياً بأن التوجيه يكمن أحياناً في النبرة التي طرح بها السؤال نظراً لأن النبرة تتضمن توقعاً. كما يمكن أن يكمن الإيحاءُ في الصياغة أو التركيب، كأن يطرح الباحثُ سؤالا من نوع «هل تعني **فعلا** أنك فعلت كذا؟». ويمكن







للتوجيه أن يكون كامناً في الخلاصة المتضمنة في السؤال: «إن والديك هما اللذان دفعاك إلى إكمال دراستك، **أليس كذلك؟**».

اطرح أسئلة مفتوحة

بخلاف السؤال الإيحائي، لا يقترح السؤالُ المفتوحُ أيَّ إجابة. يوجد ضربان من الأسئلة المفتوحة المرتبطة بالمقابلة غير المبنينة: النوع الأول الذي يطلق عليه سبرادلي سؤالَ «الجولة الكبيرة»[35]، وهو الذي يطلب فيه الباحثُ من المستجوَب أن يعيد بناءَ جزءٍ مهمٍّ من تجربته: مثلا، أن يطرح الباحثُ على المبحوث سؤال «قل لي كيف تقضي يوماً كاملا في عملك؟». كما أن هناك سؤالَ «نصف الجولة» الذي يطلب فيه الباحثُ من المبحوث أن يحكي بتفصيل عن فترة محدودة من الزمن أو عن تجربة خاصة، كأن يطلب الباحث من مساعد(ة) اجتماعي(ة) مثلا أن يحكي (أو تحكي) بإسهاب عن تجربته (أو تجربتها) المتعلقة باجتماع مع والد(ة) تلميذ عنيف.

أما الصنف الثاني من الأسئلة المفتوحة، فإنه يركز على التجربة الذاتية للمبحوث أكثر مما يركز على البنية الخارجية. مثلا، بعد أن يتحدث المبحوثُ عن تجربته المتعلقة بالاجتماع مع والد طفل عنيف، يطلب منه الباحث أن يتحدث عما مثله هذا الاجتماعُ بالنسبة له. هكذا يعطي الباحثُ للمبحوث فرصةَ إعادةِ بناءِ تجربته انطلاقاً مما يراه مهماً فيها، وذلك بمساعدة من الباحث.

استأنف، لكن لا تقاطع

تجنب مقاطعةَ المبحوث أثناء حديثه. فغالباً ما يكون الباحثُ مهتماً بشيء في جواب المبحوث أكثرَ من هذا الأخير. لذلك يحدث للباحث أن يقاطع المبحوثَ ليسأله مزيداً من التفاصيل عن نقطة معينة وردت في جوابه. لكن هذا خطأ فادح،

35 – Spradley, J. P.,The Ethnographic Interview,New York: Holt, Rinehart, andWinston, 1979, p. 86-87.





لأن من شأنه أن ينسي المبحوثَ الخيط الرابط لتداعي أفكاره. وبدلا من ذلك، ينبغي للباحث أن يسجل تلك النقطة وأن يسأله عنها بعد أن ينهي كلامه. بل ويمكنه أن يطرح سؤالا يتعلق بهذه النقطة في مقابلة لاحقة مع مبحوث آخر.

ب. أنواع المقابلة غير المبنينة

هناك نوعان من المقابلة غير المبنية: المقابلة **المعمقة** والمقابلة **الإثنوغرافية**. وتجدر الإشارة قبلَ تفصيلِ الحديثِ عنهما إلى أن المقابلةَ غيرَ المبنية والمقابلةَ المعمّقةَ والمقابلةَ الإثنوغرافيةَ تستعمل في كثير من الأحيان كمترادفات في العلوم الاجتماعية. ذلك أن هذه التوجهات تتداخل فيما بينها في النظرية والممارسة، بحيث يمكن لكلِّ دراسةٍ سوسيولوجيةٍ إما أن تبتكر صيغتَها لهذه التقنيات أو تستعملها في تركيباتٍ مختلفةٍ.

- المقابلة المعمّقة

تقوم المقابلةُ المعمّقةُ على فكرةٍ مفادُها أن التنقيبَ في «أعماق» المبحوث يُنتِجُ معطياتٍ أصيلةً وصادقةً. يقدم جونسون[36] جرداً لأهمِّ مفترضاتِ المقابلة المعمقة. أولا، إن فهمَ أعماق الذات المبحوثة يعني في هذا السياق رؤيةَ العالمِ من وجهة نظرِ المستجوَب، أو تحقيقَ تقييمٍ تَقَمُّصِيٍّ لعالمِه. فالمقابلة المعمقة إذن تهدف إلى بلوغ التصورات الخفية للمبحوثين، أو كما قال جونسون:

«تبدأ المقابلةُ المعمّقةُ بتصوراتِ الحسّ المشترك وتفسيراتِه وفهمِه لبعض التجارب الثقافية المعيشة... وتهدف إلى استكشاف الحدود السياقية لهذه التجربة والتصورات، أو إلى الكشف عما يكون عادةً مختفياً عن النظر والتفكير العاديّيْن، أو إلى بلوغ فهمٍ أكثرِ تبصّراً لطبيعة هذه التجربة»[37].

36 – Johnson, J.M., «In-depth Interviewing», in J. Gubrium and J. Holstein (eds.), op. cit.,pp. 103–119.

37 – Ibid., p. 106.





وتتمثل المسلمة الثانية التي تقوم عليها المقابلة المعمقة في أنه يمكن، بل ويجب أن تكون مفيدةً للباحث والمبحوث على حد سواء. فكما يمكن لعملية الاستجواب أن تساعد المبحوثَ على اكتشاف مشاعره المكبوتة، يتوصل الباحثُ بدوره إلى معرفة «انفعالاته الخفية أو المتعارضة»[38]. وأخيراً، تقدم المقابلة المعمقة، حسب جونسون دائماً، فهماً متعدّدَ المنظورات للموضوع المدروس. ويقصد جونسون بذلك أنه ما دامت المقابلةُ المعمقةُ لا تفرض على المبحوث الالتزامَ بمجموعة ثابتة من الإجابات، فإن من شأنها أن تكشف لدى المبحوث عن اتجاهات متعددة، بل ومتعارضة إزاء موضوع الدراسة.

وبالإجمال، إن المبادئ التوجيهية الإجرائية للاستجواب المعمق تشجع الباحثَ والمبحوثَ على الكشف الذاتي المتبادل في سياقٍ مشحونٍ عاطفياً، سياقٍ يعبران فيه عن آرائهما في موضوعٍ معين. إنالأسئلة مصاغة بطريقة ملائمة تمكّن من تجاوز المستوى السطحي لمشاعر المستجوبين والنفاذ إلى الطبقات العميقة لوعيهم. وما يبرر هذه الغاية العلمية هو أن البحوثَ الكيفيةَ تتوجه إلى الأبعاد غير المرئية للذات. وليس من قبيل الصدفة أن يعطي كلُّ ذلك لهذا النوع من الاستجواب صفةَ «العلاج بالكلام» الذي يقوم عليه التحليل النفسي الفرويدي الذي يشجع الناس على القيام بالتداعي من أجل الكشف عن لاشعورهم. وكما يشير غابريوم وهولشتاين إلى ذلك[39]، يقتسم هذا النمطُ من جمعِ المعطياتِ مع المقابلة المبنينة الاهتمامَ الوضعيَّ بتحديد «الحقيقة» في مكانٍ ما داخل ذات المبحوث. والفرق بينهما يتمثل في كون المقابلة المبنينة تضمن «المصداقية» باعتمادها نسقاً صارماً من القواعد والإجراءات، بينما المقابلة المعمقة (أي غير المبنينة) تفعل ذلك بالجسّ اللطيف لمشاعر المبحوث الداخلية والخفية. كما أن المقابلةَ المبنينةَ لا تهتم كثيراً بكونِ الأبعاد التفاعلية للمقابلة يمكن أن تساهم في تكوين «الحقائق»، أو أن

38 – Ibid.

39 – Holstein, J. and Gubrium, J., The Active Interview,Thousand Oaks, CA: Sage, 1995.





شروطَ إجراء المقابلة يمكن أن تؤثر على ما يقال. ولذلك يلجأ كثيرٌ من الباحثين إلى نوعٍ من الاستجواب غير المبنين الذي يركز على السياق الاجتماعي الذي يتم فيه جمعُ المعطيات.

وتنقسم المقابلة المعمقة إلى نوعين: يتمثل النوع الأول في المقابلات الفردية التي يطرح فيها الباحثُ على مبحوثٍ واحدٍ أسئلةً عميقةً حول مسألةٍ أو تجربةٍ أو واقعةٍ معينة. أما النوع الثاني فيتمثل في مقابلاتٍ جماعيةٍ (المجموعة البؤرية) يستعملها «أولئك الذين يريدون معرفةَ كيف يُنتِجُ عدّةُ أفرادٍ وجهةَ نظرٍ مشتركةً أو مجموعةً من وجهات النظر حول موضوع معين»[40].

يشير سيلفيرمان إلى أن هناك مقاربتين أساسيتين لقراءة المعطيات المحصل عليها بالمقابلات المعمقة: الأولى يطلق عليها سيلفيرمان المقاربة «الواقعية»[41]، وتَعْتَبِرُ هذه المقاربة إجاباتِ المبحوثين وصفاً لواقعٍ خارجيٍّ (مثلا، وقائع، أحداث) أو لتجربةٍ داخليةٍ (مثلا، مشاعر، معاني)، كما لو أن هذه المعطيات تقدم تقاريرَ واقعيةً عن حياة الناس. والثانية يسميها سيلفيرمان المقاربةَ «السرديةَ» التي «تتعامل مع معطيات المقابلة على أنها وسيلةٌ للوصول إلى القصص والسرديات المتنوعة التي يصف بها الناس عالمهم... والتي يضمّنها المستجوِبون والمستجوَبون، معاً، تقاريرَ صادقةً عن العالم»[42].

إن الخاصيةَ المركزيةَ للمقابلات المعمقة، بغض النظر عن كيفية تلقي المعطيات المنبثقة، هي أنها تزوّد الباحثَ بمعطيات نوعية عميقة من خلال تمكين المبحوثين من الحديث عن الموضوع استنادا إلى إطاراتهم المرجعية الخاصة، مما يسمح للباحث بتحسين فهمه لوجهة نظر المبحوث.

---

40 – Fielding, N., «Qualitative Interviewing», In N. Gilbert(ed.), Researching Social Life, London: Sage, 1993: 135–53, p. 141.

41 – Silverman, D., Doing Qualitative Research: APractical Handbook, London: Sage, 2000, p. 122.

42 – Ibid., p. 122–123.





• المقابلة الإثنوغرافية

تختلف هذه الطريقة في الاستجواب عن الطريقة السابقة بكونها تتم في وضعية مادية محددة نطلق عليها عادة الميدان(terrain/field). إن الميدانَ الإثنوغرافيَّ هو السياقُ الاجتماعيُّ الذي يوجّه المقابلةَ من خلال الأسئلةِ المطروحة، ونوعِ الأفراد الذين تمّ استجوابهم، وكيف تم تأويل أجوبتهم. فمن المعروف أن الباحثين الإثنوغرافيين يعتمدون على مخبرين يسهّلون عليهم التنقلَ في الميدان. علاوة على ذلك، يستعين الباحثون الإثنوغرافيون بملاحظاتٍ من الميدان في تقييمِ معنى معطياتِ المقابلات ومصداقيتها. إن أهمّ ما يميز المقابلةَ الإثنوغرافيةَ هو تركيزُها على السياقِ الاجتماعي وتأثيرِه على كيفية تعبير الناس عن أنفسهم. هذا الانشغالُ الدائمُ بشروطِ الوضعية يجعل من المقابلة الإثنوغرافية أكثرَ من مجردِ طريقةٍ منسقة بشكل فضفاض لطرح الأسئلة. يقول هامرسلاي وأتكينسون بهذا الصدد:«إن أهم ما يميز الإثنوغرافيين عن ممارسي البحث الكمي، فيما يخص الطريقة التي يطرحون بها الأسئلة، ليس هو اعتماد الإثنوغرافيين على المقابلة غير المبنية في مقابل تفضيل ممارسي البحث المسحي للمقابلة المبنية كما يبدو أحيانا، بل هو الاختلاف بين المقابلة القياسية والمقابلة الانعكاسية». فالإثنوغرافيون لا يقررون مسبقاً الأسئلةَ التي يريدون طرحَها، حتى وإن كان من الممكن أن يجرون المقابلةَ وهم مزوَّدون بلائحةٍ من المواضيع التي يريدون دراستها. ينبغي أن يكون المستجوِب، أي الباحث الإثنوغرافي، مستمعاً نشيطاً، بحيث يجب عليه أن يستمع إلى ما قيل من أجل أن يقيّم كيف يرتبط بالموضوع المركزي للبحث، وكيف يمكن أن يعكس ظروفَ إجراءِ المقابلة»[43].

فأن يكون الباحثُ مستمعاً نشيطاً أو انعكاسياً، يعني أن يكون قادراً على بناء أسئلته أثناء إجراء المقابلة. ويعني ذلك أن يأخذ الباحثُ بعين الاعتبار السياقَ

43 – Hammersley, M. and Atkinson, P.,Ethnography..., op. cit.,p. 112-113.





الاجتماعيَّ الذي تجري فيه المقابلةُ، وأن يستخدم ما بلغ إلى علمه عن طريق السمع أو الملاحظة أثناء اشتغاله في الميدان.

وبخلاف أشكال المقابلة الأخرى، ترتكز المقابلة الإثنوغرافية على العلاقة المتبادلة والفهم المتبادل بين الباحث والمبحوث. تشرح باربارا هيل هذه الخاصية من خلال تعريفها للمقابلات الإثنوغرافية بأنها «تلك المشاريع التي يقيم فيها الباحثون علاقاتِ احترامٍ مستمرةٍ مع مبحوثيهم، حيث يستثمرون ما يكفي من العلاقة لكي يتحقق تبادلٌ حقيقيٌّ لوجهات النظر، وما يكفي من الوقت والانفتاح في المقابلات مع المستجوَبين ليستكشفوا بشكلٍ هادفٍ المعاني التي يسندونها إلى الأحداث في عالمهم»[44]. وتقدم باربارا هيل مجموعةً من المبادئ التوجيهية للباحثين الذين يجرون المقابلات الإثنوغرافية، أهمها:[45]

• استمع جيداً وباحترام، وحاول بناءَ التزامٍ أخلاقيٍّ مع المبحوثين في كلّ مراحل المشروع؛

• اكتسب وعياً ذاتياً بدور الباحث في بناء المعنى أثناء إجراء المقابلة؛

• حاول أن تدرك كيف تؤثر العلاقةُ القائمةُ والسياقُ الاجتماعيُّفي المبحوثين والمقابلة ونتائج المشروع؛

• انطلق من فكرةِ أن هدفَ الحوارِ هو الاكتشافُ، وأنه لا يمكن بلوغ سوى معرفة جزئية.

يتضح من هذه التوجيهات أن «العلاقةَ بين الباحث والمبحوثين مسألةٌ

44 – Heyl, B.S., «Ethnographic Interviewing», in Handbook of Ethnography,P. Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland and L. Lofland (eds.), London:Sage Publications, 2001: 369–383, p. 367.

45 – Ibid., p. 386.





جوهريةٌ في أيّ مشروعٍ يستخدم مقابلاتٍ غيرِ مبنينة»[46]. فبدون هذه العلاقة، يصعب على الباحث إقناعُ المبحوثِ بالمشاركة في المقابلة وقولِ كلّ شيءٍ وبصراحة حول الموضوع المطروح للنقاش. كما أن بناءَ هذه العلاقة تقلص علاقاتِ القوة القائمة في البحث بين الباحث والمبحوث. وباختصار، إن المبادئ التي تقوم عليها المقابلةُ الإثنوغرافيةُ هي بناءُ علاقةٍ بين الباحث والمبحوث، والانتباهُ للواجبات الأخلاقية، ومراعاةُ كيف يؤثر السياق الاجتماعي على معنى كل شيء يجمعه الباحث في الميدان.

- المجموعة البؤرية

كان بعضُ الباحثين الأكاديميين قبل عشرين عاماً يبذلون مجهوداتٍ جبارةٍ لشرح وتحديد وتبرير ممارسةٍ بحثيةٍ كانت تبدو آنذاك ممارسةً غريبةً، وهي أن يجمع الباحثُ مجموعةً من ثمانية أفراد فأكثر في غرفةٍ واحدةٍ حول آلة تسجيل ويجري معهم حواراً جماعياً. واليوم، أصبح الجميع، أكاديميين وغيرَهم، يعتقدون أنهم يعرفون ما هي «المجموعة البؤرية».

وقد جاء هذا الانتشارُ السريعُ لتقنية «المجموعة البؤرية» متساوقاً مع اهتمامٍ جديدٍ في حقل العلوم الاجتماعية بالمعتقدات الضمنية المشتركة، وبالطريقة التي تنبثق بها هذه المعتقدات في التفاعلات الاجتماعية التي تجري في وضعيات محلية. وتُستعمَلُ هذه التقنيةُ غالباً بهدف الاستكشاف، أي عندما لا يكون الباحثُ متأكداً تماماً من الفئات والروابط والمنظورات ذات الصلة[47]. مثلا، يهتم البحثُ المسحيُّ (أي الكمي) بعدد الناس العاطلين عن العمل وتوزيعهم حسب المتغيرات

46 – Burgess, R.G. In the Field: An Introduction to Field Research, London: Routledge, 1984, p. 107.

47 – Macnaghten, P. and Myers, G., «Focus Group», in C. Seale, G. Gobo, J.F. Gaberium and D. Silverman (eds.), Qualitative Research Practice, Thousand Oaks, CA : Sage Publications, 2004, p. 65.







الاجتماعية (السن، الجنس، الفئات السوسيوقتصادية، مكان الإقامة، الخ)، كما يقوم بجرد المشكلات المرتبطة بالبطالة والشغل والتشغيل. بينما يكون الهدفُ من استعمال تقنية المجموعة البؤرية في بحثٍ كيفيٍّ حول البطالة هو الكشف عن التعريفات المعقدة والمتناقضة، التي يحملها الناس عن البطالة والشغل والتشغيل ومختلف المعاني التي يضفيها هؤلاء الفاعلون عليها، واستكشاف الكيفيات التي يعيشون بها تجربةَ البطالة.

يمكن للباحث طبعاً أن يستعمل تقنياتِ بحثٍ كيفيةً أخرى للقيام بهذا الاستكشاف، كالبحث الإثنوغرافي والمقابلة الفردية المعمقة مثلا. لكن الإثنوغرافيا تكشف عن الكيفيات التي يمارس بها الناس هذه التجربة انطلاقاً من الملاحظة بدون الاستناد إلى محاورة الفاعلين المعنيين بها. كما يمكن للمقابلة الفردية أن تقوم بهذه المهمة، لكنها تمارس ضغطاً كبيراً على العلاقة بين الباحث والمبحوث، في حين تتميز المجموعة البؤرية بكونها تسمح للمبحوثين بأن يشعروا وكأنهم يمارسون المحادثات اليومية التي ألفوا ممارستها في الحياة اليومية والقائمة على التبادل اللغوي العفوي والصريح.

إن الهدفَ المركزيَّ للمقابلة الجماعية والمقابلة الفردية هو جمعُ معطياتٍ تعكس بدقة أفكارَ ومشاعرَ وآراءَ المستجوبين؛ لكن ما يميز الأولى عن الثانية هو أنها تثير نقاشاً بين أعضاء المجموعة من أجل إيقاظ إجاباتٍ كانت ستظل نائمةً في المقابلة الفردية. إن التفاعلاتِ التي تحدث في المجموعة البؤرية تجعل الناسَ يعبرون عن آرائهم ووجهات نظرهم بطريقة عفوية، وتسمح للبعض أن يعترضوا على آراء غيرهم وأن يحدث التوافقُ على بعض القضايا والاختلاف حول أخرى.

- تاريخ المجموعة البؤرية

يميز دايفيد مورغان[48] بين ثلاث مراحل في تاريخ «المجموعة البؤرية»:

48 – Morgan, D.L.,The Focus Group Guidebook (Focus Group Kit, vol.1), Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1998.





- الأعمال الأولى التي قام بها مبكراً علماء اجتماع أكاديميون وتطبيقيون؛
- دراسات السوق التي أجريت في الفترة بين الحرب العالمية الثانية وثمانينيات القرن العشرين؛
- الدراسات المتأخرة التي تمت في المجال الأكاديمي والتسويق والحقل السياسي.

المرحلة الأولى: يرجع الباحثون[49] نشأةَ تقنيةِ «المجموعة البؤرية» كمنهجٍ في البحث إلى الدراسات التي قام بها مكتبُ البحث الاجتماعي التطبيقي (جامعة كولومبيا) في سنوات الأربعينات من القرن العشرين. فقد أجرى هذا المكتبُ تحت إشراف عالم الاجتماع بول لازارسفيلد دراساتٍ حول استجابات الجمهور للمسرحيات والبرامج الإذاعية. وصادف وصولُ روبيرت ميرتون إلى جامعة كولومبيا حصولَ لازارسفيلد على عقدٍ من الحكومة لتقييم استجابات الناس لبرامج الدعاية التي كانت تبثها الحكومة على أثير الإذاعة. فدعا لازارسفيلد ميرتون للعمل معه في المشروع. واستحدث ميرتون طريقةً تجريبيةً تتمثل في دعوة جماعة تتكون من حوالي 12 فرداً إلى استوديو الإذاعة، وزوّد كلَّ مقعدٍ بزر أخضر وزر أحمر؛ وطلب من المشاركين الضغطَ على الزر الأحمر عندما يكون موقفُهم سلبياً مما يسمعون، وعلى الزر الأخضر عندما يكونون موافقين عليه. ولأنه شعر بعدم الرضا عن هذه المقاربة التي تمكّن فقط من تكميمِ الردود الإيجابية والسلبية، وضع ميرتون طريقةً في الاستجواب الجماعي تسمح للباحث بوصف ردود الفعل الذاتية لأعضاء الجماعة على البرامج التي يستمعون إليها. وبعد إجراء سلسلة من دراسات الجمهور، استطاع الباحثون في المكتب تطويرَ مجموعةٍ موحَّدةٍ من الإجراءات الخاصة بهذه المقابلات. وقد أطلق روبيرت ميرتون وباتريسيا كيندال



49 - انظر على سبيل المثال لا الحصر:

- Bloor, M., Frankland, J., Thomas, M. and Robson, K., Focus Groups in SocialResearch,Thousand Oaks, CA:Sage Publications, 2001, p. 1-3.
- Fontana, A. and Frey, J. «The Interview...», op. cit., , p. 651.







على هذه الإجراءات عبارة «المقابلة البؤرية»[50]. وفي سنة 1956، نشر ميرتون وطالبتاه مارجوري فيسك وباتريسيا كيندال كتاباً بنفس العنوان أعيد طبعه عدة مرات.

المرحلة الثانية: انتقلت تقنيةُ «المجموعة البؤرية» إلى دراسات السوق في القطاع الخاص طوال الفترة الممتدة بين سنتي 1950 و1980. ولم تُستعمَلْ خارج هذا المجال إلا نادراً، حيث أصبح لازارسفيلد وميرتون نفساهما يميلان إلى الابتعاد تدريجياً عن استعمال منهج «المجموعة البؤرية وإلى تبني البحوث الكمية. ومع ذلك، كان خبراءُ التسويق يستخدمون هذه التقنية على أنها **مقابلاتٌ جماعيةٌ معمقةٌ**. وتحيل كلمةُ «معمقة» هنا إلى دخولِ المقاربة التحليل-نفسية في عملية فهمِ الدوافع اللاشعورية الكامنة خلف استهلاكِ سلعٍوخدماتٍ مختلفةٍ. ولمينشر علماءُ النفس ولا خبراء السوق أيَّ كتاباتٍ تشرح تقنياتِ إجراءِ المجموعة البؤرية وتحليلها. وظلّت تقنيةُ «المجموعة البؤرية» تُستخدَمُ لتقييم ردود فعل المستجوَبين على المثيرات (المقاربة التجريبية)، إلى أن تم **تكييفُ** هذا الإجراء مع متطلبات القطاع العام، وتبنته المؤسسات العمومية لدراسة مدى استجابة الجمهور لسياساتها في مجال التربية والصحة والسكن وغيرها، كتأثيرِ حملات التربية الصحية مثلا في سلوكات وتمثلات الناس. وبالتالي لم يعد الهدف هو معرفةُ تقييماتِ الناس لجودة السلع والخدمات التي تعرضها عليهم المقاولاتُ الخاصة، وإنما هو الحصول على معطيات لمعرفة المعايير والمعاني والعمليات التي تقود الجمهور إلى إنتاج تلك التقييمات.

المرحلة الثالثة: يرى مورغان[51] أن السوسيولوجيا التطبيقية هي التي نقلت تقنيةَ المجموعة البؤرية خارجَ حقلِ التسويق (الماركوتينغ). فقد نشرت إيفلين

---

50 – Merton, R. and Kendall, P., «The focused interview», American Journal of Sociology, 51, 1946: 541–557.

51 – Morgan, D.L.,The Focus Group Guidebook, op. cit., p. 40.





فولش-ليون وزميلتاها سنة 1981 مقالاتٍ من أجل تحسيسِ الميكسيكيين بأهمية تقنيات تحديد النسل[52]، واستعملن المجموعةَ البؤريةَ من أجل الكشف عن المعرفة والاتجاهات والممارسات المتعلقة بتقنيات منع الحمل داخل جماعاتٍ اجتماعيةٍ مختلفةٍ في المكسيك. كما استعمل دايل جوزيف وزملاؤه سنة 1984 المجموعةَ البؤريةَ في دراسةٍ تطبيقيةٍ لردود فعل المثليين الجنسيين (ذكوراً وإناثاً) إزاء مرض السيدا الذي كان قد ظهر لتوه آنذاك.

ومنذئذ، أصبحت تقنيةُ المجموعة البؤرية تحظى بشعبية متزايدة كأداة منهجية في البحوث السوسيولوجية التطبيقية، وخصوصاً في مجال الصحة. ومن بين أهمِّ هذه البحوث التي استخدمت المجموعةَ البؤريةَ، نذكر الدراسةَ التي أجراها جون نوديل (J. Knodel) في التايلاند سنة 1995، حول انخفاض معدل الخصوبة والمواقف من مهنة الجنس والدعم الذي يقدمه الناس لآبائهم المسنين، ودراسةَ شارلز باش (C. Basch) سنة 1987 في مجال التربية الصحية. كما أجرى بيتر لانت (P. Lunt) وصونيا ليفينغستون (S. Livingstone) سنة 1996 دراساتٍ حول الكيفيات التي يؤول بها الجمهور الرسائل الإعلامية. وعرفت تقنيةُ المجموعة البؤرية في نفس السنة ازدهاراً كبيراً في ابريطانيا عندما تم الكشف عن واقعة استعمال الأحزاب السياسة لهذا المنهج في استراتيجياتها الانتخابية. ومنذ ذلك الحين، أصبحت تقنيةُ المجموعة البؤرية مرادفاً لأسلوبٍ خاصٍّ في الاستشارة السياسية لدرجة أن تمّ اتهامُها أحياناً بتوجيه السياسة، وبتهديد الديموقراطية القائمة على الاختيار الحر.

وفي نهاية الثمانينات، نشر خبراءُ التسويق أولَ كتابٍ مطوّلٍ يتحدث بشكل دقيق عن تقنية المجموعة البؤرية والشروط المنهجية لاستعمالها.[53] ومنذ ذلك

52 - Folch-Lyon, E., de la Macorra, L. and Schearer, S.B., «Focus Group and Survey Research on Family Planning in Mexico»,Studies in Family Planning, 12, 1981: 409-432.

53 - Goldman, A.E. and Schwartz McDonald, S.,The Group Depth Interview: Principles andPractice, Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1987.





الحين، بدأت تظهر بانتظامٍ أعمالٌ حول الموضوع. وتتمثل أهمُّ الكتب التي عرضت تقنيةَ المجموعة البؤرية في البحث الاجتماعي في تلك الفترة في أعمال ديفيد ستيوارت وبريم شمداساني[54]، ودافيد مورغان[55]، وريتشارد كرويجر[56]، وشارون فوين وزملاؤه[57]، وطوماس غرينبوم[58]، وميشيل بلور وزملاؤه[59].

- تعريف المجموعة البؤرية

إن «المجموعة البؤرية» تقنيةٌ لجمعِ المعطيات في البحث الكيفي. إذ يطرح الباحثُ مجموعةً من الأسئلة على عددٍ محددٍ من المبحوثين في نفس الوقت من أجل «إثارة النقاش [بينهم] وبالتالي فهم المعاني والمعايير التي تقوم عليها هذه الإجابات الجماعية».[60] ويعرّفها مايكل بلور وفيونا وود[61] كما يلي: «إنها سلسلةٌ من المناقشات الجماعية المسجلة التي ينشّطها باحثٌ بين أعضاءٍ مجموعاتٍ ذوي تكوين مختلف، وذلك بهدف الحصول على معطياتٍ (من خلال تسجيل التفاعل




بين أعضاء الجماعة) حول معتقدات الجماعة ومعاييرها المتعلقة بموضوع معين

54 – Stewart, D.W. and Shamdasani, P.N., Focus groups: Theory and practice, Newbury Park, CA: Sage Publications, 1990.

55 – Morgan, D.L. (ed.), Successful Focus Groups: Advancing the State of the Art, Newbury Park, CA: Sage Publications,1993.

56 – Krueger, R.A.Focus Groups: A Practical Guide for Applied Research (2nd ed.), Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1994

57 – Vaughn, S., Schumm, J.S. and Sinagub, J.,Focus Group Interviews in Education and Psychology, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1996.

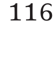
58 – Greenbaum, T.L.,The Handbook for Focus Group Research (2nd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1998.

Greenbaum, T.L.,Moderating Focus Groups: A Practical Guide for Group Facilitation, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2000.

59 – Bloor, M., Frankland, J., Thomas, M. and Robson, K.,Focus Groups...,op. cit.

60 – Ibid., p. 43.

61 – Bloor, M. and Wood, F.,Keywords in Qualitative Methods. A Vocabulary of Research Concepts, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2006, p. 88.





أو مجموعة من المواضيع». هكذا، يمكن تقديمُ تعريفٍ عامٍّ للمجموعة البؤرية بوصفها مقابلةً جماعيةً مبنيةً (موجهةً) أو غيرَ مبنينة (موجهة)، أي استجوابَ أعضاء يكوّنون مجموعةً صغيرةً في مكانٍ واحدٍ وزمنٍ واحدٍ، يسيّرها شخصٌ يطلق عليه اسم «المنشط» حول موضوعٍ ذي علاقة بالبحث وبهؤلاء الأعضاء، وذلك قصد دفعهم إلى الحديث بصراحة وبشكل مفتوح عن الموضوع المطروح للنقاش.

ويجب التمييزُ بين المجموعة البؤرية وتقنياتٍ قريبةٍ منها مثل منهج «جماعة دلفي» (Delphi groupe) ومنهج «المقابلة الجماعية» (Entretien de groupe). يعتبر منهجُ دلفي تقنيةً توقعيةً أو استشرافيةً تُستعمَلُ في دراسة السوق أو الأذواق من أجل تدبير المشاريع والتوقعات الاقتصادية، وتتمثل في مقابلاتٍ مع هيئةٍ من الخبراء الدائمين لمعرفة نظرتهم وتمثلاتهم لتطور السوق. ويحيل لفظُ «خبراء» هنا إلى أشخاصٍ لهم معرفةٌ عمليةٌ أو سياسيةٌ أو قانونيةٌ أو إداريةٌ جيدةٌ حول موضوعٍ دقيقٍ. وتبعاً للمعهد الدولي لمنظومات التحليل التطبيقي[62]، «يتكون منهجُ ديلفي من سلسلةٍ من الاستجوابات المتكررة التي تجري عادةً بواسطة الاستمارات مع مجموعة من الأفراد الذين تحظى آراؤهم وأحكامهم بأهمية كبيرة. فبعد الاستجواب الأولي مع كلّ فردٍ، تُستعمَلُ المعلوماتُ المحصّلُ عليها في هذا الاستجواب في المقابلات اللاحقة». أما «المقابلة الجماعية»، فإنها عبارةٌ عن وصلةٍ من الأسئلة/الأجوبة يجريها باحثٌ مع مجموعةٍ من المبحوثين بهدف الحصول على معطيات سريعة وقليلة الكلفة حول السلوك الجماعي. بيد أن «المجموعة البؤرية» لا تُستعمَلُ للحصول على معطياتٍ متعلقة بالسلوك، ما دامت الأصواتُ التي تشكل أقليةً داخل الجماعة ستلتزم الصمتَ عندما تدرك أنها مضطرةً إلى التطابق مع الممارسات الجماعية للأغلبية. فبدلا من السعي إلى تجميعِ معطياتٍ حول سلوك الأفراد المكوّنين للجماعة، ينبغي استعمالُ منهجِ المجموعة البؤرية

62 - https://prezi.com/vqeks1rner1o/methode-delphi/



لجمعِ معطياتٍ حول **معايير** السلوك الذي يحدث داخل هذه الجماعة الاجتماعية، أي حول أنواع السلوك المتفق عليها وغير المتفق عليها من قبل أعضاء الجماعة المستجوَبة. وبدلا من اعتماد تقنية سؤال/جواب، يعمد منشّط المجموعة البؤرية (أي الباحث) إلى توليد نقاشٍ عامٍّ داخل الجماعة حول الموضوع المدروس.

بيد أنه إذا كنا نتفق على التمييز الواضح بين المجموعة البؤرية ومجموعة دلفي، فإننا نسير على خطى أحد كبار المنظرين للمجموعة البؤرية، ديفيد مورغان[63]، في عدم التمييز بين المجموعة البؤرية والمقابلة الجماعية واعتبارهما مترادفيْن نظراً لأنهما تسعيان معاً إلى تحصيلِ معلوماتٍ عميقةٍ ومفصّلةٍ ليس حول السلوك ومعاييره فقط، وإنما حول ظواهر اجتماعية متعددة من خلال القصص التي يرويها المبحوثون عن كيفيات اختبارهم لهذه الظواهر وكشفهم للمعاني التي يضفونها عليها. وقد وجب التنبيه إلى هذا التطابق بين التقنيتين حرصاً منّا على تجنب إغراق الباحث المبتدئ في الارتباك والغموض.

- لماذا المجموعة البؤرية؟

يمكن استخدامُ منهجِ المجموعة البؤرية لأغراض متعددة: في دراسة السوق للتعرف على اتجاهات المستهلكين للسلع والخدمات؛ في حقل التدخل الاجتماعي لمعرفة حاجيات جماعة خاصة من الناس: أشخاص في وضعية خاصة (معاقين، أمهات عازبات، زوجات معنفات، الخ) أو ساكنة في حاجة إلى برامج تنموية، الخ؛ في الحقل السياسي لمعرفة المواقف السياسية للناخبين قصد حثهم على المشاركة السياسية أو استمالتهم؛ في البحث السوسيولوجي بهدف استخلاص نتائج علمية تتعلق بتشخيص وضعيات وظواهر اجتماعية مختلفة.

63 – Morgan, D. L., «Focus Group», in Given, L. M. (ed.) The Sage Encyclopedia of Qualitative Research Methods, vol. 1&2, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2008, p. 352.





وأخيرا، يمكن استعمالُ المجموعة البؤرية لأغراض نظريةٍ ومنهجيةٍ متعددةٍ وتبعاً للنتائج المنشودة ولنوع سؤال البحث. يمكن للمجموعات البؤرية أن تُستعمَلَ مستقلةً أو مع مناهجِ بحثٍ أخرى كالمقابلة الفردية والملاحظة بالمشاركة أو البحث المسحي أو البحث التجريبي.[64] وتبعاً لشيو ويلكينسون، تستعمل المجموعات البؤرية وفق تصميميْن للبحث هما الأكثر شيوعاً: فإما أنها تستخدمفي المرحلة الاستكشافية أو مرحلة توليد الفرضيات، أو تستخدم في مرحلة المتابعة النهائية التي تلي الأبعاد الاستكشافية للتحليل. كما يمكن للباحث أن يجري بعضَ المجموعات البؤرية بهدف استخراج معطياتٍ كيفيةٍ يتمّ بواسطتها بناءُ استمارةِ البحث الكمي. ويمكن استعمالها لوحدها إذا لم يكن الهدف هو التعميم والتنبؤ، على الرغم من أن هناك من الباحثين من يعتبر هذه التقنية وسيلة لاستخراج نتائج يمكن تعميمها على باقي المجتمع الإحصائي*.

- مراحل إجراء المجموعة البؤرية

يشمل تصميمُ المجموعة البؤرية عدداً من المهام التي تلعب دوراً حاسماً في نجاح الدراسة. وتتوزع هذه المهامُ على ثلاثِ مراحلَ أساسيةٍ، تشمل كلُّ واحدةٍ منها مجموعةً من المهام. وتبدأ هذه المراحلُ بالتخطيط المسبق، يليه طورُ تنشيطِ المجموعة البؤرية، وأخيراً مرحلة ما بعد المجموعة البؤرية. وسنحاول في هذا الفصل تقديمَ بعض الإرشادات حول كيفية إنجاز هذه المهام على نحوٍ يضمن أن تحقق الدراساتُ أهدافها المنشودة.

أ. التخطيط المسبق

◦ تحديد الأهداف: تتوقف الأسئلة على أهدافِ البحث وكيفية استعمال النتائج. ذلك أن تحديدَ مشكلة البحث يحدّد جدولَ أعمالِ المجموعة البؤرية

64 – Morgan, D. L., Focus Groups as Qualitative Research, Newbury Park, CA: Sage Publications, 1989. p. 7.

* – انظر الفصل الرابع.





وعمليةَ الاستجواب. كما أن التحديدَ الواضحَ لنوع المعلومات المنشودة ولمصادرها (أي أعضاء المجموعة) يشكل أساسَ التخطيط لمجموعة بؤرية ناجحة.

◌ إعداد دليل المقابلة: إن القيامَ باختياراتٍ ملائمةٍ أثناء تكوين المجموعات مسألةٌ جوهرية بالتأكيد. لكن يمكن أن تَقِلَّ فائدتُها العلمية إذا لم تتضمن خطةُ البحثِ خياراتٍ تخص أسئلةَ المقابلة لها نفس القدر من الملاءمة. مرة أخرى، يجب على مضمون الأسئلة أن يستجيب لحاجيات الباحث والمبحوث معاً. وعلى هذا الأساس، يجد الباحثُ نفسَه ملزماً بمراعاة اهتمامات المبحوثين بغيةَ أن يجدوا ما يدفعهم إلى الانخراط في مناقشاتٍ مثمرةٍ حول المواضيع التي تهمّ الباحث أيضاً. وقد أشرنا سابقاً إلى أن البحثَ الكيفي يستلزم أن يكون الباحثُ مزوَّداً في آن واحد بالمؤهلات العلمية والمؤهلات الفنية. هذه الأخيرة هي التي تجعل الباحث قادراً على صياغة أسئلة تثير اهتمام المستجوَبين عندما يلاحظ أنهم لم يعبروا عن استعداداتٍ واضحةٍ للانخراط الفعلي في الحوار.ويجب أن يشمل دليلُ المقابلةِ العناصرَ التالية:

◌ التقديم والأنشطة التقديمية: يجب على المنشّطِ أن يشرح للمشاركين موضوعَ الدراسة وأهدافَها وكيف ستجري المقابلة. ويجب أن تكون هذه المعلوماتُ مكتوبةً في دليلِ المقابلة بشكلٍ مختصرٍ جداً. ويستحسن أن يسأل المنشط المستجوَبين ما إذا كانوا قد فهموا المشروعَ ودورَهم فيه. هذه الأنشطة التقديمية تسمح للمشاركين بالتعرّف على ما هو يُنتَظَرُ منهم القيام به، الشيء الذي يبعث نوعاً من الارتياح في نفوسهم. ومن بين هذه الأنشطة أن يطلب المنشطُ من المبحوثين أن يتحدثوا عن هواياتهم مثلا، مما يسمح بانبثاق علاقاتِ ثقةٍ متبادلةٍ فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين المنشط من جهة أخرى.

يستحسن أن يضع المنشّطُ مجموعةً من القواعد لضبط سير عمل المقابلة؛ فهو يحتاج إلى أن يشرح أنه يتوقع مناقشةً مفتوحةً ومنظَّمةً يسودها الاحترامُ المتبادلويستطيع فيها كلُّ مشاركٍ أن يعبر عن رأيه بكل صراحة. فإذا كان المنشّطُ





ينوي طرحَ أسئلةٍ على المجموعة برمتها وليس على شخص بعينه، فعليه أن يخبرهم بأنه سيَتَّبِعُ هذا الإجراء. وإذا كان ينوي طرحَ سؤالٍ على شخصٍ واحدٍ ثم فتحَ المجال للباقين لمناقشة محتوى إجابته، فيجب إخطارُهم بذلك أيضاً. فالمستجوَبُ يحتاج دوماً إلى معرفة ما يَنتَظِرُ منه الباحثُ. كما ينبغي إخبارُهم بأن المنشودَ من المقابلة هو الحصولُ على آراءٍ مهما كانت درجةُ اختلافها عن بعضها البعض. مثلما يمكن للمنشط أن يخبر المستجوَبين بأن التدخلاتِ محدَّدةٌ في مدةٍ زمنيةٍ مضبوطةٍ لفتح مجال الكلام للجميع.

ولأنه عادة ما يتم تسجيلُ المجموعة البؤرية، سواء بواسطة آلةِ تسجيلٍ صوتي أو آلة تصويرٍ مرئي، فيجب إخبارُ المشاركين بذلك. غير أن الحصولَ على موافقة أعضاء الجماعة على تسجيلها يتمّ قبل إجراء المقابلة نظراً لأنه إذا استأذن الباحثُ هؤلاء الأعضاء أثناء إجراء المقابلة وكان هناك اعتراضٌ من طرف شخصٍ واحدٍ أو شخصين، فمن المرجح أن يعترض الآخرون. لذلك ينبغي على الباحث أن يخبر المستجوَبين، كلاًّ على حدة، قبل إجراء المقابلة بأن هذه الأخيرة سيتم تسجيلها.



وفيما يلي لائحة بمجموع ما يجب أن يتضمنه دليلُ المقابلة من تقديمٍ وأنشطةٍ تقديميةٍ وقواعدِ إجراءِ المقابلة[65]:

الجدول رقم 2: **دليل المقابلة**

.1	الترحيب وتقديم المنشط لنفسه؛
.2	هدف البحث؛
.3	إخبار الأعضاء بأن الاختيار تم على أساس بعض الخصائص المشتركة بينهم (تقديمها)؛
.4	شرح قواعد إجراء تسجيل المقابلة؛
.5	شرح مسألة احترام الحياة والمعلومات الخاصة للمبحوثين. إذ يمكن لهؤلاء أن يقدموا فقط أسماءهم الشخصية التي سوف لن يتم ذكرها في التقرير المكتوب؛

65 – Henn et al., A Short Introduction to Social Research, op. cit., p. 170.

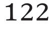




.6	تقديم مساعد المنشط ودوره؛
.7	اطلب منهم بأدب عدم التدخين وإغلاق هواتفهم؛
.8	اخبرهم بالمدة التي ستستغرقها المقابلة؛
.9	حدد بعض القواعد المرتبطة بالتدخلات: - وضح أن هذه مناقشة جماعية؛ - كل وجهات النظر ينبغي سماعها لأنها كلها تحظى بنفس القيمة مهما بدت لصاحبها واضحة أو بديهية أو بدون فائدة؛ - ليست هناك إجابات صحيحة وأخرى خاطئة، وإنما إجابات مختلفة؛ - يمكن لكل شخص أن يختلف مع الآخرين ويعبر عن وجهات نظر معارضة؛ - من فضلكم، تحدثوا بصوت مرتفع لكي أسمعكم ويسمعكم زملاؤكم ولكي يتم تسجيلها؛ - من فضلكم، لا تقاطعوا بعضكم البعض؛ - اسمحوا أن ألعب دور الحكم لكي يحظى الجميع بفرصة الكلام؛ - أقترح عليكم أن نبدأ بالتعريف بأسمائنا. هل يمكنك أن تبدأ من فضلك وتحدثنا عن هواياتك؟
.10	لا تسأل المشاركين إن كان لديهم أسئلة قبل الشروع في إجراء المقابلة.




- محاور دليل المجموعة البؤرية: ليست المجموعةُ البؤريةُ محادثاتٍ طبيعيةً. أولا، بأنها تركز على موضوعٍ واحدٍ لمدةٍ طويلةٍ بتوجيهٍ من شخصٍ واحدٍ. وثانياً، بأنها تتم لأغراضٍ علميةٍ وليس لأغراضٍ عمليةٍ. علاوة على ذلك، تسعى حواراتُ المجموعات البؤرية إلى الحصول على معطياتٍ نوعيةٍ يولّدها النقاشُ الجماعيُّ من أجل خدمة أهداف محددة بإستراتيجية بحث علمي، وبالتالي يتم تصميمُها على نحوٍ ينسجم مع أغراض نظرية. لذلك فإن الباحثَ ملزمٌ بتوجيهها نحو هذه الأهداف من خلال دليلٍ يتضمن مجموعةً من الأسئلة المفتوحة الموزعة تبعاً لمحاورَ تعكس مكوناتِ الموضوع المدروس. لذا ينبغي على الباحث أن يوزع هذه الأسئلةَ إلى محاورَ واضحةٍ من شأنها مساعدتُه على استغلال الوقت المخصص للمقابلة على النحو الأمثل، بحيث يتم توزيعُ هذا الوقت تبعاً لأهمية المحاور، وكذا على





توجيه المداخلات نحو الأهداف المسطرة في بروتوكول الدراسة.

◌ إعداد اللوجيستيك: يجب على الباحث أن يوفر الوسائلَ المادية والمواردَ البشرية الضرورية لإجراء المقابلة في ظروفٍ تسمح بإنتاجِ معطياتٍ قابلةٍ للاستغلال العلمي. وهذه الموارد هي:

- مساعد المنشط: وينبغي أن يكون باحثاً ذا تجربة في هذا المضمار، وألا يكون منتمياً للمؤسسة أو الجهة التي يتمّ إنتاجُ البحثِ لفائدتها. ومن مهامه ضمانُ تسجيلِ المقابلة، علماً أن المنشّطَ يكون منغمساً في مناقشة موضوع المقابلة، وبالتالي يمكن أن يغفل عن تغيير الأشرطة أو البطاريات عند الاقتضاء. كما ترجع لمساعد المنشط مهمةُ إعدادِ تقريرٍ حول المقابلة على النحو التالي (مثال مأخوذ من بحث شارك فيه أحد مؤلفي هذا الكتاب يتعلق بالشباب والتنمية):




الجدول رقم 3: **الجذاذة التركيبية للمجموعة البؤرية**

اسم المنشط(ة) .... الجهة .... الجماعة .... المؤسسة .... التاريخ .... نوع المشاركين (ذكر/أنثى) .... عدد المشاركين .... مكان التنشيط ....
المحور الأول: هوية الشباب
الأفكار الأساسية
مقاطع من التدخلات (استشهادان)
سؤال: ما هي عموماً خصائص الشباب المغاربة الذين هم من سنكم؟





الأفكار الأساسية
مقاطع من التدخلات (استشهادان)
سؤال: كيف تعرّفون هويتَكم الأساسية كشباب؟
الأفكار الأساسية
مقاطع من التدخلات (استشهادان)
المحور الثاني: العمل وآليات الإدماج/الإقصاء (المرجو تكييف الملخص مع خصائص بروفيلات المبحوثين)
الأفكار الأساسية
مقاطع من التدخلات (استشهادان)
المحور الثالث: الإدماج/الإقصاء الاجتماعي والسياسي
الجمعيات:
الأفكار الأساسية
مقاطع من التدخلات (استشهادان)
الأحزاب السياسية
الأفكار الأساسية
مقاطع من التدخلات (استشهادان)
ملاحظات




- يحرر مساعدُ المنشطِ هنا ملخصاً لما جاء من آراء بارزة في المناقشة ودينامية الجماعية. ويجب أن يشملَ هذا التقريرُ كلَّ الاستشهادات المهمة والكلمات التلقائية التي تصدر من المشاركين والتي تبدو جديدةً بالنسبة للبحث. وينبغي للمساعد أيضاً أن ينتبه كثيراً لكلِّ حدثٍ بارزٍ جرى في مجرى النقاش، كعبارات الصداقة والموافقة والخلاف، وكذا الإشارات غير اللفظية وتعبيرات الوجه والتوجيهات التي





يتبادلها المشاركون بشكل ثنائي، الخ. كما تعود للمساعد مهمةُ تدوينِ النقطِ التي كانت موضوعَ خلافٍ أو غموضٍ أو التي حظيت باهتمامٍ أقلَّ من طرف المشاركين. وتجدر الإشارةُ هنا إلى أن التقاريرَ التي ينتجها مساعدُ المنشط سَتُتْلَى على المشاركين قصد التأكد من مصداقيتها، مثلما يمكن أن تساعد على إثارةِ نقاشٍ إضافيٍّ بخصوص إحداها، الشيء الذي سيغني المعطيات الخام المحصل عليها.

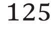
– مقر إجراء المقابلة: ينبغي أن تجري المجموعةُ البؤريةُ في مقرٍّ يَسْهُلُ على المشاركين بلوغَه. كما يجب على الباحث أن يحرص على أن تكون القاعةُ التي تجري فيها المقابلةُ محايدةً، أي خاليةً من الصور وبعيدة عن مصادر الضوضاء أو أي أصوات أخرى كالموسيقى مثلا. زد على ذلك حرصُ الباحث على أن تكون القاعةُ مزوّدةً بإضاءة وتهوية جيدتيْن وبتجهيزاتٍ تضمن للمبحوثين الراحةَ طوال ساعتين (كراسي مريحة مثلا)، وعلى أن تكون قادرةً على استيعاب المشاركين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الوضع الذي يتخذه المشاركون في المقابلة يلعب دوراً أساسياً في إثارة النقاش أو تعطيله. لذا يجب ترتيبُ الكراسي أو الطاولات بطريقة تجعل المشاركون يجلسون في مواجهة بعضهم البعض.



– أدوات العمل: في معظم المجموعات البؤرية، يشارك المبحوثون على نحو تطوعي. لذا يجب على الباحث أن يوفر لهم ما يحتاجونه من أوراق وأقلام وماء وحلويات أو ما شابه، تسمح لهم بإتمام المناقشة مهما استغرقت مدتها. دون نسيان أن يوفر الباحثُ أجهزةَ تسجيلِ المقابلة والأشرطة والبطاريات الكافية؛ ومن الأفضل أن يستعمل دوماً جهازاً احتياطياً يمكن استعماله في حالة حدوث أعطاب تقنية غير متوقعة. وفي حالة ما إذا كان المنشطُ سيستعمل مقاطع فيديو، فعليه أن يتأكد من جاهزية جهاز العرض بتجريب عرضها قبل دخول المشاركين إلى القاعة.



◌ اختيار العينة: تمثل عمليةُ تكوين المجموعة واحداً من أهمِّ أبعادِ تصميمِ البحث القائم على تقنية المجموعة البؤرية. ويجب على الباحث أثناء اختيار المشاركين في نقاشه الجماعي أن يأخذ بعين الاعتبار في الآن نفسه حاجياتِ الباحث العلمية وانشغالات المبحوثين. فقد تبيّن لنا من تجربتنا مع الطلبة الباحثين أن





هؤلاء يخطئون عندما يحددون تركيبةَ مجموعاتهم البؤرية على أساس حاجياتهم دون أن يولوا ما يكفي من الانتباه إلى حاجيات المستجوَبين. وأهم هذه الحاجيات هي أن يشعر كلُّ مبحوثٍ بالرغبة في الحديث مع الآخرين حول موضوعٍ يهمه ولديه ما يقوله بخصوصه.

لا يتم اختيارُ المشاركين في المجموعة البؤرية بواسطة تقنية العينة العشوائية كما هو الحال في البحوث الكمية. ومادام نجاحُ المقابلة الجماعية يتوقف، في الأقل، على التفاعلات الديناميكية بين الأفراد المشاركين، فإن الباحثَ ملزمٌ بأن يراعي مجموعةً من الاعتبارات أثناء تكوين الجماعة وتنشيطها.

غالباً ما يهمل الباحثون المبتدئون مسألةً جوهريةً في المجموعة البؤرية، وهي أن **التفاعلَ** بين المشاركين هو مفتاحُ نجاحِ هذه التقنية، لذلك ينبغي الانتباهُ إلى كيفيةِ تكوينِ المجموعة. أولى شروطِ اختيارِ المشاركين هي مراعاة التنوع لتشجيع النقاش. فأشخاصٌ متشابهون كثيراً من حيث الخصائص الاجتماعية سيقدمون معلوماتٍ متقاربةً جداً، وسيغلب على الحوار منطقُ الإجماع حول القضايا المطروحة للنقاش، وهو أمرٌ غيرُ محمودٍ في هذا النوع من الدراسة. كما أن الصراع والقمع المتبادل لوجهات النظر لا يكون مثمراً، لذا ينبغي مراعاة ألا تكون المجموعةُ متنافرةً كثيراً. ومن النتائج السلبية للتنافر الكبير أيضاً عدمُ الحصولِ على معلوماتٍ عميقةٍ. فعندما يجمع الباحثُ حول طاولة واحدة مجموعةً متنوعةً جداً من المشاركين، فإنه يخاطر بتوليد وجهاتِ نظرٍ ومعاني وتجاربَ متشظيةٍ تصعب معالجتُها بما يسمح باستكشاف الأبعاد الدفينة للموضوع المدروس.



من الأرجح أن يندلع الصراعُ في مجموعةٍ بؤريةٍ تضم أفراداً ينتمون لأحزابٍ سياسيةٍ متعارضةٍ من حيث الإيديولوجيا والموقع في الخريطة السياسية (يسار ويمين ووسط أو علمانيين ودينيين)؛ كما يمكن أن يحصل الصراعُ في مجموعةٍ تتكون من أطباء يزاولون الإجهاض وأفراداً ينتمون للحركات المدافعة على حق الجنين في الحياة. وبما أن الحوارَ في المجموعة البؤرية يجري في إطار تفاعلات اجتماعية، فإن تنشيطَ مجموعةٍ بؤريةٍ مكونةٍ من أفراد يحملون وجهاتِ نظرٍ





متعارضةً يمكن أن يؤدي إلى مستوى كبير من التوتر سيفسد النقاشَ ويوقف الحوارَ، وبالتالي سيمارس ضغطاً نفسياً كبيراً على الأفراد المشاركين. فمن المعروف بين محترفي البحوث الكيفية أن المجموعةَ البؤريةَ تنتج مشاعرَ قويةً لدى المشاركين: تحكي جيني كيتزنجر[66] مثلا في بحثها حول داء السيدا أن كلَّ محاولةٍ لمناقشة مخاطره على المثليين الذكور كانت تتوقف بسبب الصخب الذي يسببه رهابُ المثلية الجنسية المنتشر بين المشاركين. هكذا، يمكن لوجهات النظر المتشددة حول الموضوع المطروح للنقاش أن تفسد عمليةَ إنتاجِ المعطيات المطلوبة.

يمكن لأهداف البحث أن تقتضي من الباحث أن يكوّن مجموعةً من أفرادٍ مختلفين بهدف الحصول على وجهات نظر مختلفة متعلقة بقضية معينة. لكن إذا كان يبدو للباحث أن المشاركين يحملون أفكاراً متعارضة جداً، فمن الأفضل أن يقسمهم إلى مجموعات، ويمكنه بالتالي أن يجري مقارنات دونما حاجةٍ إلى إفساد المقابلة. مثلا، إذا كان الباحث يسعى إلى استكشاف المواقف من تغييرٍ محتملٍ للتشريعات المتعلقة بالإجهاض، فمن الأجدر أن يوزع مستجوبيه في مجموعة من الأطباء، وأخرى تضم الفقهاء، ومجموعة تشمل النساء اللواتي جربن الإجهاض، ومجموعة تتكون من أفراد ينتمون للحركات المناهضة للإجهاض، ومجموعة تشمل نساء عازبات، وأخرى نساء لهن أطفال. كما يجب عليه أن يراعي عوامل النوع والدين أثناء تكوين هذه المجموعات.



وجدير بالذكر أن هناك عواملَ تفرض على بعض المشاركين التزامَ الصمت، وهي الاختلافُ الواضحُ في المكانة الاجتماعية والسلطة. فقد لاحظت لين ميتشيل[67] في بحثها حول المراهقين المدخنين في المدارس أنه تم إقصاءُ بعض وجهات النظر من

66 – Kitzinger, J., «Focus Groups: Method or Madness?», in M. Boulton (ed., Challenge and Innovation: Methodological Advances in Social Research on HIV/AIDS, London: Taylor and Francis, 1994.

67 – Michell, L., «Combining Focus Groups and Interviews: Telling How It Is;Telling How It Feels», in R. Barbour and J. Kitzinger (eds),DevelopingFocus GroupResearch: Politics, Theory and Practice, London: Sage Publications, 1999.





المجموعة البؤرية نظراً لأنه يوجد في المدرسة نوعٌ من التراتب بين جماعات الأقران. وعندما كانت تجري المجموعةَ البؤريةَ مع تلاميذ ينتمون لجماعاتِ أقرانٍ مختلفة، اكتشفت أن الجماعات التي تحتل المراتب الدنيا لا تعبر عن وجهات نظرها. وتؤكد ميتشيل على أن إجراء مقابلات منفصلة كانت له فائدة بحثية عظيمة.

وفي نفس السياق أيضاً، يجب على الباحث ألا يجمع في مجموعةٍ واحدةٍ ربَّ العمل والعمالَ الذين يشتغلون لديه، أو بين المدير والموظف الذي يشتغل تحت إمرته. وبشكل عامّ، يجب تجنبُ وضعِ الرئيس والمرؤوس وجهاً لوجه، لأن من شأن ذلكأن يعيب المعطيات المحصل عليها. كما يجب على منشط المجموعة البؤرية أن يأخذ بعين الاعتبار مفاعيلَ الثقافة الاجتماعية التي تؤثر على طبيعة العلاقات القائمة بين الأفراد: إذ ينبغي ألا يجمع في مقابلة واحدة الوالدَ وابنَه أو ابنتَه نظراً لأن مجتمعَنا يقيم العلاقة بين الآباء والأبناء على سلطة كبار السن على الأصغر منهم وعلى السلطة الأبوية. وعليه، إذا لاحظ الباحثُ أن الوضعية تحتوي على أفراد متراتبين من حيث المكانة الاجتماعية أو السلطة، يجب عليه أن يقسمهم إلى جماعات متجانسة من حيث السلطة أو المكانة الاجتماعية.

يرى بلور وزملاؤه أن خصائص المستجوَبين التي يجب على الباحث أخذُها بعين الاعتبار أثناء تكوين المجموعة البؤرية هي الجنس والعرق أو الإثنية والدين والسن وخلفية التجارب المشتركة[68]. وإذا لم تكن المواردُ تسمح للباحث بتكوين المجموعة تبعاً لخصائص المشاركين فيها، فيجب أن يتذكر أن المجموعة البؤرية تتميز بمرونة كبيرة، مما يسمح له بأن يبني المجموعات اللاحقة انطلاقاً من تجاربه مع المجموعات السابقة. ذلك أن الانقسام الكبير للمبحوثين يمكن أن يؤدي إلى مشاكل محتملة في تعيين من سيدخل في عداد المجموعة[69]. لذا إذا لم تسمح

68 – Bloor,Focus Groups in Social Research, op. cit., p.21.

69 – Morgan, D., «Why Things (Sometimes) Go Wrong in Focus Groups», Qualitative Health Research, 5 (4), 1995: 516-523.





الظروفُ للباحث بتشكيل عدد كبير من المجموعات البؤرية، فمن الضروري تضييقُ سؤالِ البحث وبالتالي تقليصُ عددِ وحدات البحث المطلوبة.

هكذا يتضح أن اختيارَ أعضاء المجموعة البؤرية ليس عملاً عشوائياً، بل يخضع لقواعد دقيقةٍ وعقلانيةٍ، من بينها انتقاءُ أفرادٍ يقتسمون اهتماماتٍ مشتركةً بموضوع معين. ويتفق معظم الباحثين على ضرورة اعتماد هذه الإستراتيجية في تكوين مجموعةٍ بؤريةٍ قادرةٍ على خلق تبادلات لغوية فعالة. ويُطلَقُ على هذه الإستراتيجية اصطلاحُ «تشكيل جماعات متجانسة»؛ إلا أن هذا التجانس لا يتعلق بالخصائص الديموغرافية لأعضاء المجموعة، وإنما بعلاقاتهم المتشابهة التي يقيمونها مع الموضوع المطروح للنقاش.مثلا، إذا كان هدفُ بحثنا هو دراسةُ كيف تدبر الأمهاتُ الموظفاتُ وقتَهن، يجب علينا اختيارُ نساءٍ يشتغلن في الوظيفية العمومية، ولهن أطفال يقل سنهم عن 18 سنة. لكن ينبغي أن تكون هذه الاختياراتُ محدَّدةً بالموضوع المدروس. فالتجانسُ بين أعضاء المجموعة البؤرية يشجعهم على الارتباط بالموضوع من خلال تشابهاتهم واختلافاتهم..[70] فمن جهة، تسهّل عليهم تشابهاتُهم أن يعبروا بتلقائية عن آرائهم ومشاعرهم، وتسمح اختلافاتُهم بإجراء مقارنة بين هذه الآراء والمشاعر.

وعلاقةً بمسألة التجانس أيضاً، ينبغي تقسيمُ المستجوبين إلى مجموعات أصغر تبعاً لخصائص أخرى ذات وجاهة نظرية ومنهجية بالنسبة للبحث وأهدافه. إذا تناولنا مثالَ الأمهات الموظفات وأشكال تدبيرهن لوقتهن، يمكن للباحث، تبعاً لأهدافه العلمية، أن يوزّع مجموعَ المستجوباتِ تبعاً لما إذا كنَّ عازباتٍ أم لهن شركاء، أو تبعاً لسن أطفالهن، الخ. هذا التقسيم المتزايد للمجموعات يخدم هدفين: أولا، يرفع من شعور المستجوبين بالارتياح بفعل الخلفية الاجتماعية أو الثقافية المشتركة. ثانياً، يسمح للباحث بأن يجري مقارناتٍ نسقيةً بين العوامل التي تميز مختلف الفئات أو الجماعات. فهذا التقسيم للمجموعات البؤرية يساهم في تحسين

70 – Morgan, D. L., «Focus Group», op. cit., p. 353.





جودة المعطيات المحصل عليها من خلال تقوية إحساس المستجوَبين باهتماماتهم ومصالحهم المشتركة وتمكين الباحث من مقارنة ما أنتجته كل المجموعات البؤرية من معطيات.[71]

وكمثال على ذلك، نورد هنا الكيفية التي تعامل بها هين وزملاؤه[72] مع وضعيةٍ ضمّتْ أفراداً ذوي توجهاتٍ سياسيةٍ متعارضةٍ جداً: «في هذه الدراسة التي انصبت على الاتجاهات السياسة للشباب، حددنا مستوياتِ التزامهم السياسي من خلال الإجابة على استمارة خاصة. وكشفت لنا نتائجُ الاستمارة عن وجود مجموعتَيْن تحملان آراءً متعارضةً بقوة حول كيف تشتغل السياسة في ابريطانيا: مجموعة أطلقنا عليها عبارة «المتحمسين السياسيين» ومجموعة أطلقنا عليها عبارة «الشكاك السياسيين». فقررنا تنظيمَ مناقشتَيْن جماعيتَيْن بغية أن نفهم لماذايحمل هؤلاء الشبابُ وجهاتِ نظرٍ مختلفةً. وكشفت لنا نتائج الاستمارة أيضا عن أن وجهات النظر تختلف تبعاً لعوامل مهمة أخرى أيضاً، مما جعلنا نقرر أن نجري مجموعة بؤرية مع شباب ما زالوا في طور الدراسة، وأخرى مع شباب يشتغلون، وأخرى مع شباب عبروا عن مواقف قيمية أخلاقية (أي مهتمين بالبيئة وحقوق الحيوانات ومناهضين للحرب ومتضامنين مع شعوب الدول النامية)، وأخرى مع مجموعة مختلطة تتكون من شباب متنوعي التوجهات».

يتّبع منهجُ المجموعة البؤرية خطواتٍ مضبوطةً بهدف تقليص المشكلات المحتمل انبثاقها. فالمجموعات البؤرية وضعيات تحدث بداخلها ديناميات اجتماعية، ولذلك فإنه يصعب توقع ما سيجري فيها من تفاعلات وما ستؤدي إليه من نتائج. ولهذا السبب توصي كتبُ المناهج الكيفية الباحثين بالانتباه إلى المشكلات المحتملة وإعداد استرتيجيات لمعالجتها عند انبثاقها. تشير جيني

71 – Ibid, p. 354.

72 – Henn, M., Weinstein, M. and Wring, M., «A Generation Apart? Youth and Political Participation in Britain», The British Journal of Politics and International Relations, 4 (2), 2002: pp.167–192.





كيتزجنر وروزالين باربور[73] إلى أنه كان هناك دائماً تشديدٌ مفرطٌ على درجة تحكم الباحثين في خصائص الأفراد في مجموعاتهم، وغالباً ما يعكس التشكيلُ الدقيقُ للمجموعات الظروفَ التي تمّ فيها هذا التشكيلُ أكثرَ مما يعكس التصميمَ الأوليَّ الذي وضعه الباحثُ قبل الشروع في بناء مجموعاته. فعلى الرغم من الحرص الكبير الذي يبديه الباحثُ أثناء إعداد المقابلة، فإن هذا الأخير لن يكون قادراً على توقع، وبالتالي التحكم في التوجه الذي يمكن أن تسلكه المناقشة الجماعية، حيث أنه يمكن للمواضيع التي بدت غيرَ ضارةٍ في البداية أن تنحرف نحو مسالك صعبة، كما يمكن للأفراد الذين بدوا مسالمين في البداية أن يخلقوا مشاكلَ عويصةً عندما يبدأ النقاشُ وأن يظهروا حساسيةً مفرطةً إزاء المشاركين الآخرين. وتتسم هذه النقطةُ بأهمية بالغة في استعمال تقنية المجموعة البؤرية نظراً لأنه لا يمكن تحديدُ كلِّ المواضيع الحساسة منذ البداية، لاسيما إذا علمنا أنها ليست ثابتةً وإنما تُبنَى اجتماعياً، أي يمكن لقضايا تبدو عاديةً أن تتحول بفعل التفاعل الاجتماعي إلى قضايا حساسة. فمن المحتمل جداً أن تضمّ المجموعةَ أفراداً متحفظين أو أعضاء متعجرفين، مما يؤدي أحياناً إلى انبثاق وضعيات يبدي فيها بعض الأعضاء ردودَ فعلٍ سلبيةً على بعض الآراء أو التجارب، كما حدث في البحث الذي أجرته دانكومب ومارسدن[74] حول العلاقات الحميمية بين الشركاء، عندما دخل أحد المشاركين الذي كان صامتاً ومتحفظاً في نوبة بكاء هستيرية وهو يحاول تناول الكلمة.




إن المجموعةَ البؤريةَ جماعةٌ ضيقةٌ من الأفراد. وقد اختلف المنظرون حول العدد الذي يكوّن جماعةً صغيرةً من الأفراد يمكن أن نطلق عليها «المجموعة البؤرية».

73 – Kitzinger, J. and Barbour, R., «Introduction: The Challenge and Promise of Focus Groups», in R. Barbourand J. Kitzinger (eds), Developing Focus Group Research: Politics, Theory and Practice, London: Sage Publications, 199.

74 – Duncombe, J. and Marsden, D., «Can We Research the Private Sphere?Methodological and Ethical Problems in the Study of the Role of IntimateEmotion in Personal Relationships», in L. Morris and E. Stina Lyon (eds.), GenderRelations in Public and in Private: New Research Perspectives, Explorations inSociology 43, British Sociological Association, London: Macmillan, 1996, p. 146.



فبعض المصادر تحدد العدد بين 6 و9 أفراد[75]؛ وتوصي أخرى باختيار عينة تتكون من 6 إلى 10 أعضاء[76]؛ وما زال البعض يدعي أن الحجمَ الأمثلَ للمجموعة البؤرية يتراوح بين 6 و12 شخصاً[77]. ينبغي ألا يغيب عن ذهن الباحث أنه كلما زاد حجمُ المجموعة البؤرية كلما زاد احتمالُ تقلص حظِّ البعضِ فيتناول الكلمة؛ وأن الحجمَ الصغيرَ جداً للعينة من شأنه أن يحول دون حصولِ الباحثِ على ما يكفي من الآراء والتجارب ووجهات النظر. لكن شيئاً واحداً يبدو أكيداً: وهو أن حجمُ عينةِ المجموعة البؤرية يتوقف بشكلٍ كبيرٍ على المواضيع التي ينبغي مناقشتها. دون أن ننسى أنه كلما زاد تعقد مشكلة البحث، كلما كان من الأفيد تقليص حجم المجموعة البؤرية.

ب. التنشيط

يحظي موضوعُ أسلوبِ التنشيط باهتمامٍ بالغٍ في خُطَطِ البحثِ المتعلقة بالمجموعة البؤرية. فنجاحُ أيِّ مجموعةٍ بؤريةٍ في إنتاج معطياتٍ وجيهةٍ وذاتِ صلةٍ للبحث مشروطٌ أيضاً بتوفر منشّطٍ متمرسٍ وذي مهارات ملائمة في مجال تنشيط ديناميات الجماعات، يطرح على جماعةٍ مكوَّنةٍ من عدد صغير من الأفراد مجموعةً من الأسئلة المفتوحة. إن مهمّةَ المنشّطِ في المجموعة البؤرية هي تشجيعُ المستجوَبين على مناقشة الموضوع المدروس وعلى معارضة آراء بعضهم البعض وتحديد المواقف المشتركة. وينصح منظرو المجموعة البؤرية المنشّطَ بأن يوجه مجموعةً من الأسئلة الموحَّدة إلى كلِّ مستجوَبٍ على حدة لإثارة النقاش خلال مدة

75 – Pramualratana, A., Havanon, N., and Knodel, J., «Exploring the Normative Basis for Age atMarriage in Thailand: An Example From Focus Group Research»,Journal ofMarriage andthe Family, 1985: 203–210, p. 204.

76 – Morgan,Focus Groups as Qualitative Research, op. cit., p. 43.

77 – Lengua, L. J., Roosa, M. W.., Schupak–Neuberg, E., Michaeles, M. L., Berg, C. N., and Weschler, L. F. «Using Focus Groups to Guide the Development of a Parenting Program for Difficult–to–Research, High–Risk Families»,Family Relations, 41, 1992: 163–168, p. 163.





معينة[78]. ويمكن للمنشط أن يستعمل أساليبَ متعددةً لإثارة النقاش: يجب على المنشط أن يقيس استجابات المشاركين ببعض الأسئلة الخاصة التي يتضمنها دليلُ المقابلة، ويمكنه أن يستعمل بعضَ أسئلة الاستئناف أو الاستكمال وبعضِ الحوامل المرئية كالبطاقات والرسومات والإعلانات الإشهارية وقصاصات الصحف ومقاطع الفيديو. ويقدم المثالُ التالي نموذجاً لدليلِ مقابلةٍ جماعيةٍ استخدمت فيه قصاصاتٌ صحفيةٌ وملصقاتٌ إشهاريةٌ لدراسة مواقف الشباب من التصويت[79]:

الجدول رقم 4: **مثال لدليل مقابلة جماعية**

أ. التصويت

هناك اهتمام متزايد بتقلص عدد الشباب المصوِّت.

عرض عناوين الصحف هنا

- هل تعتقد أن التصويت مهم؟ لماذا؟
اطلب من المشاركين الإعلانَ عن ما دوّنوه، ثم اطلب منهم أن يتحدثوا عن اختياراتهم.
- ما هو الإجراء، من بين الإجراءات المقترحة أدناه، الذي تعتقد أنه سيشجعكم على التصويت؟
- وما الذي يمكن أن يشجع الناس عموما على المشاركة في الانتخابات؟

عرض البطائق

- التصويت في الأسواق الكبرى
- التصويت بالهاتف
- التصويت عبر الأنترنيت
- حملات تحسيسية بأهمية التصويت
- إجبارية التصويت
- تخفيض سن التصويت القانوني إلى 16 سنة

تشكيل مجالس للشباب في المدارس، الخ (اشرح ما المقصود بالاقتراح)

78 – Berg, Qualitative Research Methods..., op. cit., p. 120.

79 – Ibid.







في بعض الأحيان، يمكن أن يصعب على المنشط تسييرَ المجموعة البؤرية. مثلا، بما أن المنشّطَ يسعى دوماً إلى تقوية انخراط المشاركين في النقاش، فإنه من المحتمل دائماً أن يعتبر بعضُ المشاركين ذلك دعوةً إلى محاولة بناءِ موقعٍ مهيمنٍ وإقصاءِ آخرين. لهذا يكون المنشطُ ملزماً باستشراف كيف يمكنه تدبيرُ مثلِ هذه الوضعيات، بحيث ينزع الكلمةَ من الأشخاص المهيمنين ويمنحها لآخرين بدون أن يثير حساسيةَ أحدهما. وقد ابتكر ممارسو المجموعات البؤرية تقنياتٍ لمعالجة مثل هذه الوضعيات، كما يتضح من خلال النموذج التالي[80]:



الجدول رقم 5: **تدبير السلطة في المجموعة البؤرية**

الاحتفاظ بنقطة معينة:
"هذه الفكرة مهمة جداً- سنعود إليها لاحقاً"
متكلمون مهيمنون:
"شكراً فلان. هل هناك من يريد التعليق على الموضوع؟"
"هل هناك من له وجهة نظر مخالفة؟"
"هذه وجهة نظر. هل هناك من له وجهة نظر أخرى؟"
انتقال مشارك من موضوع إلى آخر:
التوقف عن الاتصال معه بواسطة العين بعد 15-20 ثانية.
وجهات النظر: الاتفاق/الاختلاف
"هذه وجهة نظر واضحة جداً. هل هناك من يوافق عليها؟ لماذا؟ ما رأيكم فيها؟
"هل هناك من يختلف مع وجهة النظر هذه؟ لماذا؟ ما رأيكم فيها؟"
أو
"هل هناك من له وجهة نظر مختلفة؟"

80 – Henn et al., A Short Introduction to Social Research, op. cit., p. 169.





يجب على المنشط أحياناً أن يطرح أسئلة على كل واحد من المشاركين.

أسئلة الختام:

«افرض أنه طلب منك أن تقول في دقيقة واحدة ما تعتبره أهم موضوع يواجه الشباب اليوم، ولماذا. ماذا ستقول؟»

قدم بشكل دوري ملخصات لكل وجهات النظر، بما فيها آراء الأقلية.

الجس والحث:

انتظر 5 ثواني (مع الاحتفاظ بالتواصل البصري) بعد طرح السؤال- امنح للمستجوَبين فرصة صياغة وجهات نظر إضافية.

«هل يمكن أن تشرح أكثر؟ هل يمكنك أن تعطيني مثالا على ذلك؟ /هل يمكن لك أن تقول لي أكثر؟ /هل من إضافة؟ /لم أفهم جيداً»







الفصل السادس

البحث الإثنوغرافي

I. نبذة تاريخية عن البحث الميداني
II. تعريف البحث الإثنوغرافي (البحث الميداني والملاحظة بالمشاركة)
III. مراحل البحث الإثنوغرافي

1. دخول الميدان
2. تكتيكات الميدان
3. تدوين ملاحظات الميدان



I. نبذة تاريخية عن البحث الميداني*

يمكن أن نعيد البحثَ الميدانيَّ إلى تقاريرِ الرحالة عن البلدان البعيدة التي كانوا يزورونها[1]. فقد كتب المستكشفون والمبشرون الأوروبيون منذ القرن الثالث عشر تقاريرَ وصفيةً حول الثقافات والشعوب الغريبة التي كانوا يزورونها. وكان القراءُ يستمدون معلوماتهم حول العالم من هذه الكتابات. ومع التوسع الاستعماري الأوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حصّلَ الرحالةُ ثقافةً أكبر، وتزايد عددُ التقارير حول الشعوب «الأخرى» وأضحت تتسم بدقة وجودة أكبر.





لكن البحث الميداني الأكاديمي لم يبدأ إلا في نهاية القرن التاسع عشر مع الأنثروبولوجيا. فقد كان علماء الأنثروبولوجيا الأوائل يكتفون بقراءة تقارير المستكشفين والموظفين الحكوميين والمبشرين. وكان ينقصهم الاتصالُ المباشرُ بالشعوب المدروسة. ومعلومٌ أن كثيراً من كتابات الرحالة كانت تركّز على الجوانب الغرائبية وكانت تتسم بالعنصرية والمركزية العرقية. وكان عددٌ نادرٌ من الرحالة من يتحدثون لغةَ الأهالي، لذلك كانوا يستخدمون المترجمين. ولم يبدأ

* - تقابل عبارة «البحث الميداني» العبارة الفرنسية travail de terrain والمصطلح الإنجليزي Fieldwork.

1 - لمعرفة تفاصيل أكثر عن تاريخ البحث الميداني، يمكن للقارئ الاكتفاء بكتاب باتريسيا أدرلر وبيتر أدلر الذي يقدم عرضاً جيداً لتطور البحث الميداني من أعمال الرحالة إلى الدراسات العلمية المعاصرة:

Adler, P.A. and Adler, P., Membership Roles in Field Research,Beverly Hills, CA: Sage Publications, 1987,pp. 8-35.





الأنثروبولوجيون الأوروبيون السفرَ إلى البلدان النائية لدراسة ثقافاتهم إلا بعد سنة 1890.

ويعدّ الأنثروبولوجي البريطاني برونيسلاو مالينوفسكي (1844-1942) أوّلَ باحثٍ يقيم مع جماعة من الناس لمدة طويلة ويكتب حول كيفيات جمع المعطيات. فقد قدّم في عشرينات القرن الماضي العملَ الميدانيَّ المكثفَ كمنهجٍ جديدٍ ودافع على فكرة فصل الملاحظة المباشرة وأقوال الأهالي عن استنتاجات المُلاحِظ. وحاجج على أن أفضلَ طريقةٍ لبلوغ فهمٍ عميقٍ لجماعةٍ أو ثقافةٍ معينةٍ هي تفاعلُ الباحثِ معها بشكلٍ مباشرٍ والعيشُ مع الأهالي لمدة طويلة وتعلّمُ عاداتهم ومعتقداتهم وعملياتهم الاجتماعية.



وسرعان ما انتقل الباحثون إلى تطبيق تقنيات البحث الميداني على بلدانهم الخاصة. مثلا، استعمل شارلز بوث وبياتريس ويب في العقد الأخير من القرن التاسع عشر البحثَ المسحيَّ والبحثَ الميدانيَّ لدراسة الفقراء في لندن، حيث راقبا الناسَ في وضعياتهم الطبيعية واستعملا مقاربةً استقرائيةً لجمع المعطيات. وربما ظهرت تقنيةُ الملاحظة بالمشاركة أولَ مرةٍ في ألمانيا سنة 1890 عندما عاش بول غوهر (P. Gohre) واشتغل كعامل متدرب لمدة ثلاثة أشهر وكان يسجل ملاحظاته كلّ ليلة في بيته، وذلك بهدف دراسة حياة العمال. وقد أثرت الأعمالُ التي نشرها على الأكاديميين، بمن فيهم عالم الاجتماع ماكس فيبر.



وفي الولايات المتحدة، يعد رواد مدرسة شيكاغو أولَ من استخدم البحث الميداني. ويمكن تقسيمُ تأثيرها على هذا النوع من البحث إلى مرحلتين: الأولى امتدت من عشرينيات القرن العشرين إلى ثلاثينياته، استعمل فيها الباحثون العديدَ من المناهج المرتبطة بدراسة الحالة أو مقاربة تاريخ الحياة، كالملاحظة المباشرة والمقابلات غير المنظمة وفحص الوثائق الرسمية. ففي سنة 1916، وضع روبيرت بارك (1864-1944) برنامجاً بحثياً لدراسة مدينة شيكاغو: فقد دعا الباحثين، متأثراً في ذلك بتجربته السابقة كصحافي، إلى مغادرة مكتباتهم «وتلطيخ





أيديهم» بالواقع من خلال القيام بملاحظاتٍ مباشرةٍ والإنصات إلى المحادثات في ملتقيات الشوارع والحانات والفنادق الفاخرة. وقد ساهمت أعمالٌ مبكرةٌ، مثل كتاب أندرسون **المشرَّد** (1923) وكتاب شاو **جاك رولر** (1930) وكتاب **العصابة** لثراشر (1927)، في تأسيس سوسيولوجيا مدرسة شيكاغو باعتبارها دراسةً وصفيةً لحياة الشوارع مصحوبةً بقليل من التحليل.

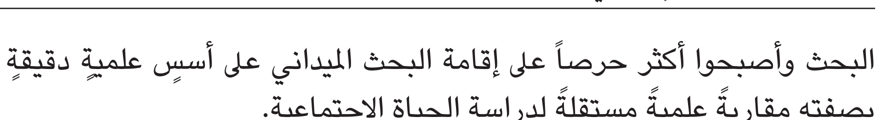
كان البحثُ الميدانيُّ في هذه الفترة مزيجاً من تقنياتِ التحقيق الصحافي والدراسة الأنثروبولوجية. وتتمثل تقنياتُ العمل الصحافي في بلوغِ ما يختفي تحت المظاهر السطحية والسلوكات الظاهرة، والاعتمادِ على المخبرين، ومشاهدةِ الصراعات، وعرضِ ما «يحدث بالفعل» من وقائع. وتتمثل تقنياتُ البحث الأنثروبولوجي في معاشرة جماعة صغيرة من الأفراد لمدة طويلة نسبياً، وإجراء ملاحظات دقيقة، ثم تحرير تقرير حول كيفيات تفاعل أعضاء الجماعة مع بعضهم البعض وكيف يتصورون عالمهم.





وفي المرحلة الثانية لمدرسة شيكاغو التي امتدت من أربعينيات إلى ستينيات القرن العشرين، طور الباحثون الملاحظةَ بالمشاركة بما هي تقنيةٌ مستقلةٌ من خلال نقل البحث الأنثروبولوجي إلى دراسة مجتمع الباحث نفسه. وقد انبثقت ثلاثة مبادئ هي: 1) دراسة الناس في بيئاتهم الطبيعية؛ 2) دراسة الناس بواسطة التفاعل معهم بشكل متكرر لمدة طويلة؛ 3) استخلاص نتائج نظرية واسعة ترتكز على فهمٍ عميقٍ لوجهات نظر الناس حول العالم الاجتماعي.

لكنّ البحثَ الميدانيَّ واجه بعد الحرب العالمية الثانية منافسةً متزايدةً من طرف البحوث المسحية والكمية، مما أدى إلى تراجع نسبته في البحث الاجتماعي خلال السبعينيات والثمانينيات. وبدأ الباحثون الميدانيون يستعيرون تقنيات علم النفس المعرفي والأنثروبولوجيا الثقافية والفلكلور واللسانيات. كما شرعوا في إعادةِ فحصِ الأسسِ الإبستيمولوجية والمسلمات الفلسفية للعلم الاجتماعي من أجل بناء المناهج الكيفية. وباختصار، أصبح هؤلاء الباحثون أكثرَ معرفةً بتقنيات



البحث وأصبحوا أكثر حرصاً على إقامة البحث الميداني على أسسٍ علميةٍ دقيقةٍ بصفته مقاربةً علميةً مستقلةً لدراسة الحياة الاجتماعية.

هكذا أصبح الباحثون الميدانيون المعاصرون يلاحظون الناسَ بشكلٍ مباشرٍ في مجالاتهم الطبيعية ويتفاعلون معهم من أجل الحصول على رؤية «داخلية». وأصبح معظمُ هؤلاء الباحثين يتبنون منظوراً بنائياً (constructionist perspective) حول العالم الاجتماعي: فبدلا من النظر إلى أعضاء المجتمع ككائنات سلبية تخضع لإكراهات البنيات والأنساق الاجتماعية، وإلى الحياة الاجتماعية كأشياء موجودة في الخارج يجب قياسُها، أصبحوا يعتبرون الناسَ فاعلين يخلقون ويحدّدون حياتَهم الاجتماعية باستمرار من خلال تفاعلات... هم اليومية. فالناسُ، وفقاً لوجهة النظر هذه، يقومون بترشيح تجاربهم الاجتماعية عبر المعاني المتدفقة والذاتية التي يحملونها عن الواقع، وبالتالي يتصرفون وفقاً لها. هذه المفترضات حول الحياة الاجتماعية تقتضي من الباحث أن يركز على عمليات التفاوض والنقاش والتعاون والصراع التي تجري يومياً بين الأعضاء وجهاً لوجه والتي يبنون ويغيرون بواسطتها الدلالات الاجتماعية. لذا ينبغي أن يكون البحثُ الميدانيُّ في الآن ذاته وصفاً للواقع الاجتماعي ومشاركةً فيه. فعندما يكون الباحثُ جزءاً من الوضعية الاجتماعية، يصبح القيامُ بالبحث الميداني أكثرَ من مجرّدِ عمليةِ جمعٍ محايدةٍ للمعطيات، وإنما أيضاً وعياً ذاتياً بالتجربة الاجتماعية للباحث نفسه.

II. تعريف البحث الإثنوغرافي* (البحث الميداني والملاحظة بالمشاركة)

لا يمكن فصلُ البحث الإثنوغرافي في البحث الكيفي عن البحث الميداني والملاحظة بالمشاركة. فالباحثون الذين يمارسون البحثَ الإثنوغرافي يستعملون

* – في مقابل العبارة الفرنسية Recherche éthnographique والعبارة الإنجليزية Ethnographic Research.





الإثنوغرافيا والبحث الميداني والملاحظة بالمشاركة كمترادفات: فكلُّها تعني قضاءَ وقتٍ طويلٍ في ملاحظة الناس والحديث معهم حول ما يفعلونه ويفكرون فيه ويقولونه، وذلك بهدف اكتشاف كيف يفهمون عالمهم[2].

إن مصطلحَ إثنوغرافيا هو أكثرُ هذه المفاهيم الثلاثة شمولا. ويعني مصطلح «إثنوغرافيا» حرفياً الكتابةَ عن شعبٍ أو ثقافةٍ؛ وهو مكوَّنٌ من الكلمتين اليونانيتين ethnos التي تعني الشعب و graphei التي تعني الكتابة. ويعني مصطلحُ الملاحظة بالمشاركة البحثَ عن المكان الذي توجد فيه المعطيات التي تحظى بوجاهةٍ في البحث وتنسجم مع أهدافه. بينما يشير مصطلحُ البحث الميداني إلى تقنياتِ جمعِ تلك المعطيات وفق منهجٍ علميٍّ يضمن وثوقيتَها.

يمكن القيامُ بالبحث الميداني في مجالاتٍ اجتماعيةٍ عديدةٍ ومتنوعةٍ: مدرسة، سجن، ثكنة عسكرية، مستشفى، عصابة من الأحداث، دوريات الشرطة، الخ. فليس هناك مجالٌ خاصٌّ يستدعي البحثَ الميداني أكثرَ من غيره. إذ لا تتحدد طبيعةُ هذه التقنيةِ الكيفيةِ بموضوعها، وإنما بالانخراطِ في المجتمع المدروس واستعمالِ طرائقَ كيفيةٍ تتلاءم مع هدف البحث. فإذا اختار الباحثُ دراسةَ أيّ موضوعٍ من هذه المواضيع بطريقة كمية، حيث يمكنه أن يذهب فيها إلى حدّ اختيار ألّا يلتقي بالمبحوثين وأن يقتصر فقط على ملئ الاستمارات بواسطة الهاتف أو الانترنيت، ففي هذه الحالة لا يمكن الحديثُ عن عمل ميداني. ذلك أن البحثَ الميداني يتحدد بواحدةٍ من أهمّ مفترضاته الأساسية وهي قضاءُ وقتٍ طويلٍ إلى هذا الحد أو ذاك في ميدان الدراسة و»التفاعل» مع مخبريه ومبحوثيه. لذا ينبغي على الباحث الميداني أن يستعمل طرائقَ خاصةً قصد جمع المعطيات الكيفية «في الميدان»، أي في بيئتها الطبيعية. ويتوافق هذا التعريفُ مع ذلك الذي قدمته سارة



2 - Delamont, S., «Ethnographie and Participant Observation», in C. Seale, G. Gobo, J.F. Gubrium and D. Silverman (eds.), Qualitative Research Practice, Thousand Oaks, CA, Sage Publications, 2004: 205-217, p. 206.





ديلامون: «إن البحثَ الميدانيَّ كلمةٌ تُستعمَلُ في البحث الكيفي للإشارة إلى مرحلةِ جمع المعطيات عندما يترك الباحثون مكاتبهم ويدخلون «الميدان»[3]. وينبغي قبل الانتقال إلى تعريف الملاحظة بالمشاركة أن ننبه الباحثَ إلى أن كلمة «ميدان» تستعمل في سياق استعاري: فهي لا تعني حقلا واقعياً مثلما يمكن أن نتصور حقلا من الذرة أو مجالا بمعناه الطوبوغرافي، وإنما يعني أساساً مجموعةً من الوضعيات الاجتماعية والثقافية التي تحوي مجموعةً من الناس يتفاعلون في بينهم على أساس مجموعة من الخصائص الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها. فالبحثُ الميدانيُّ لا يقتصر على وصفِ مجالٍ جغرافيٍّ وصفاً مورفولوجياً، أي نقلِ ما يراه الباحثُ ويشمه ويلمسه ويسمعه ويتذوقه، وإنما أن يصل في هذه الوضعيات إلى عمقٍ كافٍ يسمح له بالكشف عما هو خفيٌّ في حياة الناس من خلال رصد أفكارهم وتمثلاتهم وأساليب عيشهم ورؤاهم للعالم وتقديم تفسيرات وجيهة لها، أي الإجابة على سؤال: لماذا هي الأمور على هذا النحو وليست على نحو آخر.

أما الملاحظة بالمشاركة، فإنها منهجٌ كيفيٌّ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبحث الإثنوغرافي، ويهدف إلى مساعدة الباحثين على معرفة رؤى العالم الخاصة بالساكنة المدروسة، وهي رؤى مختلفة جداً. لذلك يسعى الباحثُ الكيفيُّ إلى معرفةِ طبيعة هذه الرؤى والمنظورات وفهمِ كيف تترابط فيما بينها[4]. وتشمل الملاحظةُ بالمشاركة الملاحظةَ والمقابلةَ والبحثَ عن الوثائق الرسمية والمذكرات الشخصية. ذلك أن هدفَ الباحثين الميدانيين هو فهمُ كيف «تشتغل» الثقافاتُ والمجتمعاتُ التي يدرسونها، أي إدراكُ كيف يبدو العالمُ للناس الذين يعيشون فيه. فما يهمّ هؤلاء الباحثين هو معرفةُ معتقدات هؤلاء الناس، وماذا يفعلون في عملهم وفي أوقات فراغهم، وماذا يضحكهم وماذا يغضبهم، ماذا يكرهون وماذا يحبون ومما يخافون، وكيف

3 – Delamont, «Ethnographie and Participant Observation», op. cit., p. 206.

4 – Mack, N., Woodsong, C., MacQueen, K.M., Guest, G. and Namey, E., Qualitative Research Methods : A Data Collector's Field Guide, North Carolina: Family Health International, 2005, p. 13.





يختارون أصدقاءهم ويحافظون على علاقاتهم. كما تعود إلى الباحث الميداني مهمةُ الكشف عن طرق تنظيم حياتهم وما هي العوامل الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية التي تتحكم في تفاعلاتهم والتي تلعب دوراً في نسج العلاقات القائمة بينهم. لهذه الغاية، ينبغي للباحث الميداني أن يعيش معهم ويراقبهم وهم يعملون ويلعبون، وأن يفكر ملياً فيما يراه ويؤوِّله وأن يتحدث إلى الفاعلين للتعرف على تأويلاتهم الخاصة لتلك الوقائع التي يراقبها.

ولابد من التنبيه إلى أن الملاحظة «بالمشاركة» لا تعني المشاركةَ الفعليةَ في أنشطة الساكنة المدروسة: فليس ضرورياً أن يكون الباحثُ مدرِّساً أو سجيناً أو صياداً لكي يدرس فصلاً دراسياً أو سجناً أو مجموعةً من الصيادين. كما أنه ليس مضطراً لتقمص شخصية المريض النفسي لكي يدرس حياةَ نزلاء مستشفى للأمراض العقلية: فمعروف مثلا أن عالمَ الاجتماع الكندي/الأمريكي إرفينغ غوفمان قضى أكثرَ من سنتين في مستشفى للأمراض العقلية ودرس استراتيجياتِ التكيّفِ التي كان يستخدمها نزلاء المستشفى لمقاومة تغيير هويتهم الواقعية دون أن يقدم نفسَه كنزيلٍ مثلِهم[5]. لكن هذا لا يعني أن يظل الباحثُ «خارج» الأنشطة الملاحَظة، بل يجب عليه أن يشارك لدرجة كافية تمكّنه من أن يكتب بشكلٍ «حساسٍ» عن طبيعة تلك الأنشطة، أي ما تسببه من آلام وأفراح، وما يحيط بها من روائح وأصوات، وما تثيره من إرهاق نفسي وجسدي، وكيف ينظم الفاعلون نشاطَهم وما هي القواعد والمعايير التي يستخدمونها لهذه الغاية. هكذا، فالملاحظة بالمشاركة لا تعني قضاءَ كلِّ الوقت مع المبحوثين والقيامَ بما يقومون به، وإنما تعني التفاعلَ معهم أثناء قيامهم بما يقومون به هم أنفسهم. وباختصار، يمكن من حيث المبدأ أن يشارك الباحثُ المبحوثين يقومون به، لكنه ليس شرطاً من شروط الملاحظة بالمشاركة[6].

5 – Goffman, E., Asiles. Études sur la condition sociale des malades mentaux et autres reclus, trad. de Liliane et Claude Lainé, Éditions de Minuit, Paris, 1979.

6 – Delamont, «Ethnographie and Participant Observation», op. cit., p. 206.



للبحث الإثنوغرافي خصائصٌ محدَّدةٌ تميزها عن باقي مناهج البحث الكيفي الأخرى كالمقابلات وتحليل الوثائق، نجملها فيما يلي[7]:

1. يقوم مبدأُ البحث الإثنوغرافي (الذي يسمى أيضاً البحث الميداني) على مبدأ **المذهب الطبيعي**(naturalism). ويتمثل هذا المذهبُ في ضرورة دراسة الأحداث في بيئاتها الطبيعية، وليس في وضعياتٍ يصطنعها الباحث من أجل القيام بالبحث التجريبي. هكذا، تُعَدُّ السمةُ الطبيعيةُ للمعطيات التي تمّ جمعُها بواسطة الملاحظة بالمشاركة أهمَّ خاصيةٍللبحث الإثنوغرافي. وهذه الخاصيةُ هي التي تدفع الباحث إلى إجراء بحثه خارج المختبرات التي تتميز بالودّ والسهولة. ويلاحظ جيلربيرت تونيل[8] أن هناك ثلاثةَ معايير للسمة الطبيعية (naturalness) يمكن تطبيقُها على **السلوكاتِ** المدروسة، وطريقةِ **معالجة** هذه السلوكات، و**الوضعيةِ** التي يجري فيها البحث. ويمكن الاستنادُ إلى الكيفيات التي تتراكب بها هذه الأبعادُ الثلاثة لتقييم درجةِ السمة الطبيعية للدراسة. وسنقدم فيما يلي فكرةً عن هذه الأبعاد الثلاثة للمذهب الطبيعي في البحث الإثنوغرافي كما قدمها وليام كرانو وماريلين بريور[9]:

أ. السلوك الطبيعي

إن أهمَّ هدفٍ للبحث الإثنوغرافي هو دراسةُ السلوك الطبيعي. ويعتبر السلوكُ طبيعياً عندما يكون جزءاً لا يتجزأ من الاستجابات العادية للفرد في وضعيات عادية (مثلا، لا يكون الهدف من السلوك هو أن يستجيب لمطالب دراسية معلنة)، بمعنى أن لا يكون سلوكاً مقصوداً عن وعي، وبالتالي يحدث دون أن يكون استجابةً

7 – Mavasti, Qualitative Research in Sociology, op. cit., p. 36-37.

8 – Tunnell, G. B., «Three Dimensions of Naturalness: An Expanded Definition of Field Research»,Psychological Bulletin, 84, 1977: 426-437.

9 – Crano, W.D. and Brewer, M.B.,Principles and Methods of Social Research, Mahwah, New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates, 2002, pp. 198-202.





لمتطلبات البحث. وانطلاقاً من هذا المعيار، لا تعتبر سلوكاتُ المبحوث التي تخضع للتجريب في المختبرات أو الأقسام الدراسية أو التنظيمات سلوكاتٍ طبيعيةً لأنها تخضع لإكراهاتٍ تؤثر على استجابات المبحوثين. لكن يجب التنبيهُ إلى فرقٍ دقيقٍ يتمثل في إمكانيةِ نقل البحث التجريبي إلى وضعيات طبيعية من أجل دراسةِ السلوكات التي تصدر عن الناس. ففي هذه النوع من الدراسة، يمكن للباحث أن يستخدم مساعداً أو أكثرَ في وضعيةٍ طبيعيةٍ يقدمون فيها مثيراتٍ متفقٍ عليها مسبقاً من أجل التعرف على الكيفيات التي يستجيب بها الناس لتلك المثيرات. وكمثال على ذلك، أجرى طوماس موريارتي[10] دراسةً استعان فيها بمساعديْن «اندسوا» وسط مجموعة من المصطافين؛ فيطلب أحدُ المساعديْن من جاره الذي يتشمس أن يراقب مذياعه بينما سيذهب «للقيام بجولة لبضع دقائق». وبعد مغادرته، يسرق المساعدُ الثاني المذياعَ في غفلةٍ من الشخص المكلف بمراقبته. تعتبر ردودُ أفعالِ الأشخاص على سلوك اللّصّ المزعوم، التي تمثل المتغيرةَ التابعة، سلوكاتٍ طبيعيةً لأنها ليست خاضعةً لإكراهات البحث وليست واعيةً، بمعنى أن المبحوثين لم يكونوا يعلمون أنهم يشكلون جزءاً من هذه التجربة السيكولوجية. وتوزعت ردودُ الأفعال تلك بين الرّدع الجسدي للص وملاحقته وطلب المساعدة ومغادرة المكان قبل وصول صاحب المذياع المسروق وتجاهل الوضع برمته. وقد استعمل موريارتي ردودَ الأفعال الطبيعيةَ التي حصل عليها بفضل هذا البحث في دراسة تأثير تحديد المسؤولية على السلوكات المطابقة للمعايير الاجتماعية أو تبني موقف المتفرج، واعتُبِرَتْ نتائجُ هذه الدراسة من طرف العديد من المنظرين أكثرَ وثوقيةً ووجاهةً من كثير من الدراسات السابقة التي أجريت في وضعيات مخبرية مصطنعة.

10 – Moriarty, T., «Crime, Commitment, and the Responsive Bystander: Two Field Experiments», Journal of Personality and Social Psychology, 31, 1975: 370–376.





ب. المعالجة الطبيعية

وفقاً لوجهة نظر تونيل، تعتبر المعالجةُ الطبيعيةُ «حدثاً يحدث بشكل طبيعي ومتمايز... يجب على الذات أن تجربه... بحضور الباحث أو بدونه»[11]. لكن تعريفَ تونيل يضيّق كثيراً حقلَ المعالجة الطبيعية، ولا يلائم الرغبةَ العامةَ في تدعيم البحث الميداني وتطويره. وبالمقابل، يمكن أن تكون معالجةٌ ما معالجةً طبيعيةً حتى ولو قام بها الباحثُ في البحث التجريبي، لكن شريطةَ أن تستوفي الشرطيْن التاليَيْن: أولا، أن تحدث بدون تدخلِ الباحث؛ ثانياً، أن يكون المبحوثُ على غيرِ علمٍ بمجريات البحث. ولذلك يمكن اعتبارُ ما قام به موريارتي معالجةً طبيعيةً على الرغم من أنه ساهم في صنع السياق العام للتجربة. وعليه، فإن تلاعبَ الباحثِ بوضعيةِ البحث لا تفسد سمتَها الطبيعيةَ نظراً لأن ردودَ أفعال المبحوثين تُظهِرُ أنهم لم يكونوا على علمٍ بأنهم موضوعَ بحثٍ تجريبيّ.

ج. الوضعية الطبيعية

عموماً، يحيل البحثُ الميدانيُّ الطبيعيُّ إلى الدراسةِ التي تتمّ خارج المختبرات. فالوضعيةُ الطبيعيةُ «سياقٌ غيرُ مدرَكٍ كقاعدةٍ أو هدفٍ أساسيٍّ لإجراء البحث»[12]. فأفضلُ طريقةٍ في البحث الإثنوغرافي للحصول على نتائجَ مثمرةٍ علميّاً هو الإمساكُ بالأحداث أثناء وقوعها في واقعها الأصلي، أي في «الميدان». ويجب على الباحث ألا يحاول التحكمَ في التأثيرات العرَضية، وأن يكتفي فقط بملاحظة الظواهر كما تحدث وبوصفها وتدوين ملاحظاته. فالبحثُ الإثنوغرافي يركز على الأساليب التي يتصرف بها الناسُ وهم منشغلين بتجاربِ الحياة الواقعية في بيئاتهم الطبيعية.

2. انخراط الباحث ومشاركته في موضوع بحثه. ذلك أن الدراسةَ الإثنوغرافيةَ تشمل نشاطين متناقضين: المشاركة والملاحظة. فالإثنوغرافي يقوم في نفس الوقت

11 – Tunnell, «Three Dimensions of Naturalness..., op. cit., p. 428.

12 – Cook, T. D., and Diamond, S., An Introduction to Field Experiments. UnpublishedManuscript,Evanston, IL: Northwestern University, 1972, p. 2.





بملاحظةِ موضوعٍ معينٍ والانخراطِ فيه. ويمكن لهذا الانخراط أن يكون خطيراً ومثيراً في الآن ذاته: فقد سبق أن أشرنا في الفصل الأول إلى هذه الوضعية المزدوجة التي عاشها موريس بانتش بمناسبة دراسته للشرطة في أمستردام وكيف أصبح مضطراً إلى إطلاق النار على المجرمين. وعندما كان بيتر ألدر وباتريسيا ألدر يدرسان «تجار المخدرات الكبار»، اختلطت حياتُهما مع حياة مبحوثيهم: «لقد أنشأنا علاقاتٍ اجتماعيةً شبهَ يوميةٍ مع أفراد تجارة المخدرات والتهريب في جنوب غرب المقاطعة، وخصوصا خلال سنوات البحث الأربع الأولى (قبل أن ننجب طفلنا). كنا نشارك في تجارتهم المشروعة، وقضينا إجازاتنا معهم، وحضرنا حفلات زفافهم، ورعينا أطفالهم»[13].

وعموماً، يتفق الباحثون على أن منهجَ الملاحظة بالمشاركة يتطلب تفاعلاً اجتماعياً كثيفاً بين الملاحِظ والملاحَظ في مجال هذا الأخير، يقوم أثناءه الباحثُ بجمع المعطيات بصورة منهجية وخفية[14]. كما عرف شوارتز وشوارتز الملاحظة بالمشاركة بأنها «عمليةٌ يتمّ فيها اعتبارُ حضورِ الملاحِظ في الوضعية الاجتماعية هدفَ البحث العلمي. إذ يقيم الملاحِظ مع الملاحَظين علاقةً وجهاً لوجه ويجمع معطياتٍ من خلال مشاركته معهم في حياتهم الطبيعية. إذ يكون الملاحِظ جزءاً من السياق الخاضع للملاحظة، وبالتالي يغيّر السياقَ ويتأثر به في نفس الوقت»[15].

تختلف طبيعةُ العلاقات التي يقيمها الباحثون الإثنوغرافيون مع مواضيع بحثهم تبعاً لتنوع هذه المواضيعِ ذاتِها والحوادثِ الطارئة في الميدان المدروس.

---

13 – Adler, P., «Researching Dealers and Smugglers», in Constructions of Deviance: Social Power, Context, and Interaction, 2nd ed., P. A. Adler and P. Adler (eds.), Belmont, CA: Wadsworth, 1997: 55–70, p. 59.

14 – Bogden, R., Participant observation in organizational settings, Syracuse,New York: Syracuse University Press, 1972, p. 3.

15 – Schwartz, M. S., and Schwartz, C. G., «Problems in Participant Observation»,AmericanJournal of Sociology, 60, 1955: 343–354, p. 344.



فإذا كان الباحثُ يدرس جناحَ المحكومين بالإعدام ونزلائه مثلا، فلا أحدَ سيقترح أنه يجب عليه أن يرتكب جرائمَ تستوجب عقوبةَ الإعدام إن أراد فهمَ كيف يعيش هؤلاء الأشخاص تجربةَ هذا النوع من العقاب. لكن تبقى هناك قاعدةٌ متفقٌ عليها بين جميع الإثنوغرافيين، وهي أن البحثَ الإثنوغرافي يتطلب أكثرَ من غيره من المناهج الكيفية انخراطاً ومشاركةً في ميدان البحث المدروس. وعلى العموم، يحاول الباحثُ الممارس للملاحظة بالمشاركة (أو البحث الإثنوغرافي، والأمر سيان) أن يعرف أساليبَ عيشِ جماعةٍ من الناس كأنه شخصٌ من «الأهالي» بينما يظل بشكلٍ حتميٍّ «خارج» الجماعة[16].

3. إيلاء الأهمية للسياق الذي يتم فيه جمع المعطيات. فالباحثُ ملزمٌ بأن يولي أهميةً نظريةً للسياق الاجتماعي الذي يجمع فيه معلوماتِه حول ثقافة أو جماعة من الناس. تبعاً لباربارا تيدلوك، «تقوم الإثنوغرافيا على محاولةٍ مستمرةٍ لوضع لقاءاتٍ وأحداثٍ وتمثلاتٍ خاصّةٍ في سياقٍ أشملَ وأوضحَ»[17]. ينبغي للباحثُ الذي ينوي مقاربة موضوعه بالمنهج الإثنوغرافي أن يتذكر دوماً هذه القاعدة الذهبية في هذا النوع من البحث، وهي أنه لا يمكن الفصلُ بين معطيات الدراسة عن الوضعية الخاصة والظروف المحيطة التي تمّ جمعُها فيها. فبخلاف البحث المسحي الذي يمكن فيه للباحث أن يحصل على معطياته من أشخاص بدون أسماء ولا وجوه بواسطة الهاتف أو الإنترنيت، فإن سلوكاتِ المبحوثين وإجاباتِهم في البحث الإثنوغرافي ترتبط دائماً بوضعيةٍ خاصّةٍ ولا تصبح ذاتَ دلالةٍ إلا في علاقتها بهذه الوضعية النوعية. في هذا السياق، يقول نيكولا دوديي وإزابيل باسانجر: «تصبح الدراسةُ إثنوغرافيةً عندما ينشغل الباحثُ الميدانيُّ بربط الوقائع التي يلاحظها بالخصائص النوعية **للخلفية** التي ظهرت فيها هذه الوقائع، وهي خلفيةٌ مرتبطةٌ

16 – Mack, Qualitative Research Methods..., op. cit., p. 13.

17 – Tedlock, B., «Ethnography and Ethnographic Representation», inN. Denzin and Y. Lincoln (eds.),Handbook of Qualitative Research,op. cit., 455–486, p. 455.



بالأحداث التاريخية والثقافية الطارئة»[18]. وبعبارة أخرى، لا يمكن لأيّ دراسةٍ أن تدخل في فئةِ البحوث الإثنوغرافية إذا تجاهلت السياقَ والظروفَ ذاتَ الصلة التي تمّ فيها ملاحظةُ وتسجيلُ أقوال وأفعال الأفراد المبحوثين.

4. طريقة تقديم المبحوثين في نص البحث. وهي خاصيةٌ جوهريةٌ تميز البحثَ الإثنوغرافيّ عن باقي المناهج الكيفية الأخرى. إن المنتوجَ النهائيَّ لأيِّ دراسةٍ إثنوغرافيةٍ هو نصٌّ يصف للقارئ أساليبَ عيشِ فئةٍ من الناس بتفصيلٍ وإسهابٍ كبيريْن. في كثيرٍ من الحالات، يتمّ أولُ لقاءٍ لهذا القارئ مع هؤلاء الناس فقط بواسطة النصّ الإثنوغرافي الذي بين يديه. ولمّا كان من النادر أن اختبرَ القارئُ الثقافةَ أو المجتمعَ الموصوفيْن اختباراً مباشراً، فإن احتمالَ سوءِ فهمِه أو سوء استعماله لنتائج الدراسة يكون كبيراً.

III. مراحل البحث الإثنوغرافي

لنتساءل في البداية عما يفعل الباحث الإثنوغرافي في الميدان. إنه:

• يلاحظ الأحداثَ العاديةَ والأنشطةَ اليوميةَ كما تحدث في بيئاتها الطبيعية، بالإضافة إلى كلّ شيء غير عادي يمكن أن يقع؛

• يندمج بشكل مباشر في الجماعة التي يدرسها ويختبر بنفسه مجرى الحياة الاجتماعية اليومية في الميدان؛

• يتوصل إلى النظر إلى العالم الاجتماعي المدروس من خلال منظورٍ داخليٍّ مع الاحتفاظ بالمنظور التحليلي والمسافة الخاصيْن بالشخص الخارجي؛

• يستعمل تقنياتٍ متعددةً وكفاءاتٍ اجتماعيةً بطريقةٍ مرنةٍ تتوافق مع متطلبات الوضعية؛

---

18 – Baszanger, I. and Dodier, N., « Ethnography: Relating the Part to the Whole»,in D. Silverman (ed.),Qualitative Research: Theory, Method and Practice, London: Sage, 1997: 8-23, p. 10.





• ينتج معطياتٍ في شكلِ ملاحظاتٍ كثيرةٍ مكتوبةٍ وخطاطاتٍ بيانيةٍ وخرائطَ وصورٍ تمكنه من القيام بوصفٍ دقيق للحياة الاجتماعية للجماعة المدروسة؛

• ينظر إلى الأحداث بمنظار تاريخي (أي ككلّ وليس كأجزاء) وبمنظار فردي في سياقها الاجتماعي؛

• يفهم الناسَ في وضعية البحث ويخلق معهم نوعاً من التعاطف، ولا يكتفي بتدوين الوقائع الموضوعية «الباردة»؛

• يدون الأبعادَ الثقافية الظاهرة (المصرح بها من طرف المبحوثين، الواعية) والضمنية (المضمرة، غير المصرح بها، اللاواعية)؛

• يلاحظ السيروراتِ الاجتماعيةَ المتدفقةَ دون أن يفرض عليها وجهةَ نظرٍ خارجيةً؛

• يتكيف مع مستويات عالية من الإرهاق والارتباك والمعضلات الأخلاقية والغموض.

إن إجراءات البحث الإثنوغرافي أكثرُ مرونةً وأقلُّ تبنيناً من تلك الخاصة بالبحث الكمي. لكنيجب على الباحث الميداني مع ذلكأن يوفر استعداداً وتنظيماً جيداً لبحثه. ويمكن تقسيم مراحل البحث الميداني إلى ست مراحل، لكنه يبقى رقماً تقريبياً الهدفُ منه هو اقتراحُ خارطة طريق على الباحث[19]:

1. قراءة الأدبيات المتعلقة بالموضوع والتخلص من الأفكار المسبقة والمركزية الثقافية والإثنية؛

2. اختيار مكان إجراء البحث الميداني ودخوله؛

3. إقامة علاقات اجتماعية مع أعضاء الجماعة المدروسة؛

19 – Neuman, W. L.,Social Research Methods: Qualitative and Quantitative Approaches, 7th ed., Essex: Pearson, 2014, p. 439.





4. تبني دور اجتماعي وتعلم التعامل مع الوضعيات المختلفة وخلق توافق مع المبحوثين؛

5. شاهد، اسمع، واجمع المعطيات الكيفية:

- الشروع في تحليل المعطيات لتوليد معطياتٍ سليمةٍ وتقييمها؛
- التركيز على أبعاد خاصة في الوضعية واستعمال العينة النظرية.
- إجراء مقابلات ميدانية مع المخبرين.

6. الانفصال عن الميدان ومغادرته:

- إتمام التحليلات وتحرير تقرير البحث.

وقد قام بافورد جانكر[20] بتحديدٍ جزافيٍّ للمدة الزمنية التي ينبغي أن تستغرقها كلُّ واحدةٍ من هذه المراحل عندما يحقق الباحثُ دخوله إلى الميدان: سدس الوقت للملاحظة، والثلث لجمع المعطيات، والثلث لتحليلها، والسدس المتبقي لتحرير نتائج البحث.

ولأغراض بيداغوجية، جمع ستيفن تايلور وزميلاه[21] مراحلَ البحث الإثنوغرافي في ثلاثِ مجموعاتٍ كبرى من الأنشطة. المجموعة الأولى تتعلق بخلق شروط تفاعلٍ اجتماعيٍّ ملائمٍ من شأنه الحصولُ على ثقة المبحوثين؛ وتخص المجموعةُ الثانيةُ أساليبَ استخلاص المعطيات، أي ما يسمى استراتيجيات الميدان وتكتيكاته؛ والمجموعة الأخيرة تتمثل في تسجيل المعطيات في شكل ملاحظات ميدانية مكتوبة وتحليلها.

20 – Junker, B. H., Field Work,Chicago: University of Chicago Press, 1960, p. 12.

21 – Taylor, S.J., Bogdan, R. and DeVault, M.,Introduction to Qualitative..., op. cit., p. 54-100.





1. دخول الميدان

أ. الأيام الأولى

يقتضي البحثُ الميدانيُّ تقييمَ الباحث لمؤهلاته الفكرية وقدرته على تدبير انفعالاته وعواطفه. وغالباً ما يكون للتجربة دورٌ مركزيٌّ في التكيف مع متطلبات البحث بما أن «البحثَ الميدانيَّ عمليةٌ تراكميةٌ وتركيبيةٌ يقوم فيها العملُ المثمرُ لأيِّ عالم اجتماع على تجاربه الماضية والتنظيم المحكم والإعداد الجيد»[22]. لكن ليس بمقدور كلّ الباحثين استيفاءُ هذه الشروط مجتمعةً، ولاسيما الذين يتذوقون طعم البحث الميداني لأول مرة. فإذا كان للإعداد والتنظيم أهميةٌ بالغةٌ في إنجاز بحث ميداني علمي، فإن الباحثَ المبتدئ يظل يواجه بصعوبةٍ مباشرةٍ العملَ في الميدان وحده. فمن جهة، تسيطر عليه مشاعرُ تَرَقُّبِ الشروع أخيراً في إنجاز البحث الذي خطط له بعناية لمدة شهور أو ربما سنوات. ويمكن بخلاف ذلك أن يشعر بالعجز بسبب مشاعر الخوف أو عدم الثقة في النفس أوالريبة التي تصاحب الباحث، وخصوصاً الذي يقوم بالبحث الميداني لأول مرة في حياته. إن الاهتياج والفزع والقلق (التي يمكن أن تدفع الباحث إلى التخلي عن العمل الميداني نهائياً) مآزق عادية يواجهها كل الباحثين[23].

يُعتَبَرُ اليومُ الأولُ في الميدان بالنسبة للعديد من الباحثين الميدانيين إنجازاً في ذاته. فقد كتب جون-بيير ديمون أن «دخول الميدان ربما يعتبر أكثرَ الأحداث مأساويةً وفظاعةً»[24]؛ بينما اعتبر شوارتز مرحلتَه الأولى في الميدان «مرحلةَ الارتباك

22 – Veeck, G., «Talk is Cheap: Cultural and Linguistic Fluency During Field Research»,TheGeographical Review, ½, 2001:34–40, p. 34–35.

23 – Clarke, M., «Survival in the Field: Implications of Personal Experience in the Field»,Theoryand Society, 2, 1975: 95–123.

24 – Dumont, J.-P.,The Headman and I: Ambiguity and Ambivalence in the Fieldwork Experience, Austin: University of Texas Press, 1978, p. 48.







والصدمة وفقدان التوازن»[25]؛ وتروي مارثا ماكنتير[26] عن أول أيام وصولها للميدان: «لم أكن أتصور أنني سأكون وحيدة. كنت أتوقع أن أصادف قليلا من الصعوبات البيروقراطية بالنظر إلى الإجراءات الروتينية التي رافقت حصولي على الترخيص بالبحث. كنت أتوقع أن الناس سينتظرون وصولي؛ ربما سيصاحبني مستشارٌ جماعيٌّ. لكني وجدت نفسي هناك وحيدةً ومدركةً لواقعة أنه يجب علي أن أقدم نفسي ومخططاتي للناس الذين يستضيفونني وعلامات الدهشة على وجوههم، والذين كانوا يعتقدون أنني أختٌ ممرضةٌ تقوم بدورية طبية».

عندما يصل الباحث الإثنوغرافي إلى الميدان، فإنه يكون منشغلا بخلق علاقاتٍ مع مخبريه. ويتصرف بطريقة تجعله جزءاً متوارياً من المشهد بهدف أن يعتبره المبحوثون شيئاً بديهياً؛ والوضعية المثالية المنشودة هي أن يجعل مخبريه يتناسون أنه موجودٌ في الميدان للقيام بالبحث. ويستعمل الملاحظُ بالمشاركة تقنياتٍ تطابق القواعدَ اليوميةَ التي تؤسس التفاعلات الاجتماعية السلمية. ويجمع الباحثون الميدانيون على أن سلوكَ الباحث في الميدان يلعب دوراً حاسماً في تحديد ما إذا كان الناس سيتعاونون معه أم لا[27].

عادة ما يبقى الباحث الميداني سلبياً نسبياً طوال فترة العمل الميداني، ولكن خصوصاً في الأيام الأولى للبحث. فالملاحظ الميداني «يشعر بنفسه خارج الوضعية»، أو «يتقدم ببطء»، أو «يترك القرار للظروف»، أو «يتعلم أصول العمل». وتعد

25 – نقلا عن:

Wax, R., Doing Fieldwork: Warnings and Advice, Chicago and London: University of Chicago Press, 1971, p. 18.

26 – Macintyre, M., «Fictive Kinship or Mistaken Identity: Fieldwork on Tubetube Island,Papua New Guinea», in D. Bell, P. Caplan, and W. K. Jarim (eds),Gendered Fields:Women, Men and Ethnography,London: Routledge, 1993: 44–62, p. 44.

27 – Shaffir, W. B., and Stebbins, R. A. (Eds.)., Experiencing Fieldwork: An Inside View ofQualitative Research, Newbury Park, CA: Sage Publications, 1991.







الأيام الأولى التي يقضيها الباحث في الميدان مرحلةً يحاول فيها هذا الأخيرُ أن يخلق مؤانسةً مع الناس، ويبدد الأفكارَ التي يحملونها عن الباحث كمتطفل (مثلا، صورة العالم الذي يرتدي وزرة بيضاء وهو يطرح أسئلة موجهة)، وينشئ هويته كإنسان سوي، وأن يتعلم كيف يتصرف في الوضعية: مثلا، أيّ لباس يجب عليه ارتداؤه، أين يمكنه الجلوسُ دون أن يعيق حركة أو عمل الآخرين، ماذا يجب عليه أن يفعل لتجنب أن يبدو نشازاً بين الآخرين؟ متى يمكنه التجول؟ هل يمكنه الحديث مع فئة معينة من الناس، آخذاً بعين الاعتبار المعايير الاجتماعية للجماعة المدروسة (نساء، أطفال...)؟

خلال المرحلة الأولى من البحث، تحظى عمليةُ التعرف على الوضعية بالأولية، وتبقى عمليةُ جمعِ المعطيات ثانوية. وتلعب الأسئلةُ العامةُ دوراً مهماً في كسر الجليد بين الباحث والمبحوثين واكتساب ثقة الناس قصد تسهيل دخول الميدان، ويستحسن أن لا تتعلق هذه الأسئلة بالمبحوث (وضعيته، مهنته، تاريخه...)، وإنما بأشياء تهم المنطقة (طقسها، معالمها...). وينبغي لك كباحث أن تكون مستعداً لتقبل فكرة أن المبحوثين سيبدون درجاتٍ مختلفةً من تقبلك. فمثلما ستصادف من سيرحب بحضورك بسهولة، وستلتقي أيضاً أشخاصاً مستائين منه. بل ستجد من المبحوثين من يثير حضورُك فضولَه أو توجسَه وسيقضي وقتاً في مراقبتك. فليس شيئاً غريباً أن يجد الباحثُ نفسَه يخوض صراعاً حول السلطة لإثبات حضوره. لذا فمن الأهمية بمكان أن يشرح للجميع مهمته وأهدافه وموقعه في الوضعية.وفي ذات السياق، يجب على الملاحظ الميداني أن يطمئن المبحوثين على أن ما سيقولنه سيظل سريّاً.



من المعتاد أن يشعر الباحثُ في الأيام الأولى للبحث بنوعٍ من عدم الارتياح. ففي حياتنا اليومية، غالباً ما يحدث لنا أن نتجنب الدخولَ في تفاعلاتٍ غيرِ ضرورية مع الناس الغرباء. لذلك من الطبيعي أن يشعر الباحثُ بالحرج في وضعيات جديدة لا يحظى فيها بدور محدد. إذ يواجه كلُّ الباحثين الميدانيين وضعياتٍ مربكةً في





الميدان نظراً لأن هذا الأخير يتميز دائماً بمشاعر الشك الذاتي والإحباط، ولا تبدأ مشاعر الارتياح في الانبثاق إلا مع تقدم الدراسة[28].

عندما يدخل الباحثُ إلى الميدان لأوّلِ مرة، تربكه الكميةُ الكبيرةُ من المعلومات التي يستقبلها. ولهذا السبب، يوصي الباحثون المحترفون الباحثَ المبتدئ بتقسيم زمن الملاحظة الذي يقضيه في الوضعية إلى مُدَدٍ لا تتعدى الواحدةُ منها ساعةً واحدة، ويمكنه زيادةُ هذه المدة كلما تقدم في البحث وازدادت درجة ألفته مع الوضعية وتحسنت قدرته على الملاحظة[29]. فجدير بالإشارة أن العمل الميداني يكون في البداية مثيراً للحماس، وبالتالي يدفع الباحثَ إلى قضاء مدة طويلة في الوضعيات، الشيء الذي يجعله يستقبل معلوماتٍ كثيرةً يعجز عن تسجيلها، علماً أن الملاحظات لا تكون مفيدة للبحث إلا إذا كان الباحثُ قادراً على تذكرها وتدوينها بعد ذلك.



ب. التفاوض حول الدور



يؤكد غابريوم على أن شروطَ البحث الميداني (ماذا يلاحظ الباحث ومتى يلاحظ) يجب أن تكون موضوعَ تفاوضٍ دائم[30]. فالباحثُ ملزمٌ بخلق توازنٍ بين القيام ببحثه بالطريقة التي يراها مناسبةً والتوافق مع مخبريه من أجل بناء علاقة جيدة.

إن أوّلَ مشكلٍ يمكن أن يعترض الباحثَ هو أن يجد نفسَه مضطراً لقبول دورٍ لا يتلاءم مع إجراء البحث نظراً لأن الناسَ المبحوثين غالباً ما لا يفهمون

28 – Shaffir,W. B., Stebbins, R. A., and Turowetz, A. (Eds.), Fieldwork Experience: QualitativeApproaches to Social Research, New York, NY: St. Martin's Press, 1980.

29 – Taylor et al., Introduction to Qualitative Research Methods..., op. cit., p. 56.

30 – Gubrium, J., «Recognizing and Analyzing Local Cultures», In W. B. Shaffir &R. A. Stebbins (Eds.), Experiencing Fieldwork: An Inside View of Qualitative Research, Newbury Park, CA: Sage, 1991: 131–142.



منهجَ الملاحظة بالمشاركة حتى في حالة شرحه لهم. ففي كثيرٍ من الوضعيات، يسند المخبرُ للملاحظ الميداني أدواراً يتعهد بها الغرباءُ في العادة. إذ يمكن مثلا للباحث أن يقوم بأدوار تطوعية في بعض المؤسسات، كالمدارس ومستشفيات الأمراض العقلية ومؤسسات التدخل الاجتماعي ودور المسنين، الخ.

يكون أحياناً لقيامِ الباحثِ بدورٍ مألوفٍ في الوضعية فوائدُ مهمةٌ: إذ يسهّل عليه تحقيقَ الدخول إلى الميدان؛ ويألف المبحوثون الباحثَ ولا يظلون يشعرون بحضوره باستمرار؛ وتتوفر إمكانية الحصول على معلومات أكثر. لكن ينبغي للباحث أن يحترس من أن «تبتلعه» المهمةُ المسندةُ إليه، مما سيجعله يحصل فقط على معلوماتٍ تتعلق بتلك المهمة. لذلك يجب عليه أن يكون منفتحاً لتقبل القيام بأدوار يتم اقتراحها عليه، لكن ينبغي أن يستمر في تقييم ما إذا كانت هذه الأدوار تعيق قدرته على القيام ببحثه وفق الأهداف المحددة له من البداية.



يتمثل المشكلُ الثاني الذي يمكن أن يعترض الملاحظَ الميداني هو أن يحدد له المبحوثون ماذا يجب عليه أن يلاحظ ووقتَ الملاحظة. فعلى المستوى العملي، يحاول الناسُ تقديمَ أنفسهم للغرباء بطريقة يسعون بها إلى ترك انطباع جيد لديهم، حيث يُظهِرُون أبعادَ شخصيتهم التي تظهرهم بمظهرٍ لائقٍ ويخفون ما يمكن أن يخدش صورتهم الشخصية. وينطبق نفس الشيء على التنظيمات بكل أنواعها (إدارات، مقاولات، جمعيات، أحزاب، مستشفيات، الخ). إذ يحدث غالباً أن تعيّن المؤسسةُ شخصاً يقوم بدور الدليل للباحث، ويعمد هذا الدليل إلى تبني إستراتيجيةٍ انتقائيةٍ يقدم للباحث بمقتضاها المعلومات التي تريد المؤسسةُ تعميمَها ويخفي عنه تلك التي يمكن أن تكشف عن بعض أشكال الخلل التي تعتريها. وإجمالا، ينبغي للباحث أن يقاوم محاولاتِ المخبرين التحكمَ في مجرى بحثه، وأن يحرص قدرَ الإمكان على أن يختارَ بنفسه الأشياءَ التي يريد ملاحظتها والوقتَ الملائم لذلك. ويتعلق نجاحُ هذا المسعى بدرجة الثقة المتبادلة بين الباحث والمبحوث، وبالتالي فإن الملاحِظ ينجح في بلوغ عددٍ أكبر من مجالات الملاحظة كلما زادت ثقةُ المبحوثين فيه.





ج. تأسيس العلاقة

ليس من السهل تعريفُ مفهوم العلاقة المعنية هنا والمتعلقة بالبحث الإثنوغرافي، إذ لها دلالات متعددة: إيصال مشاعر التعاطف إلى المخبرين وإقناعهم باعتبارها مشاعر صادقة؛ اختراق «دفاعات الناس ضد الأجانب»؛ جعل الناس يكشفون عن تجاربهم في الوضعية وعما يحملونه من آراء حول ذواتهم والآخرين؛ جعل المبحوثين ينظرون إلى الباحث كشخص طيب؛ اختراق الجبهات التي يفرضها الناس أمام الباحث يومياً؛ تقاسم مع المخبرين عالمهم الرمزي ولغتهم ووجهات نظرهم ورؤيتهم للعالم.

ينبغي التنبيه إلى أن العلاقةَ تتأسس ببطء في معظم ميادين البحث، وتبقى دائماً مؤقتة وهشة.ففي الحياة العادية نفسها، ليس هناك ما يضمن استمرارَ الثقة الكلية بين الأشخاص. لذا من الأهمية بمكان أن يحتفظ الباحثُ في ذهنه بأن علاقةَ الثقة تزداد وتتقلص في مجرى العمل الميداني، ومن المحتمل جداً ألا يقيم الباحثُ علاقةً حقيقيةً مع مخبريه. يكتب جون جونسون: «مع اقتراب نهاية البحوث حول الرعاية الاجتماعية، استخلصتُ أخيراً أن إقامةَ علاقاتِ ثقةٍ واقعٌ مستحيلٌ، لاسيما في وضعيةٍ تضم يساريين راديكاليين ونساء مناضلات من أجل التحرر ومسنين وشباب وطلائعيين ومعتدلين وجمهوريين وديموقراطيين وأعضاء أجانب وقادة الأسطول البحري ورؤساء جيش الاحتياط وأنصار السلام ورافضي الخدمة العسكرية، وهلم جرا... وطورتُ تدريجياً في الأشهر الأخيرة من البحث الميداني فكرةَ «الثقة الكافية» لتعويض الاقتراحات التي حصلت عليها من قراءاتي الأولى للأدبيات التقليدية. وتعني الثقةُ الكافيةُ حكماً شخصياً وبديهياً حول ما يمكن إنجازه مع شخص معين»[31].

وعلى نفس النحو، كان دونيير يعتقد أنه أقام علاقةً وثيقةً مع الباعة المتجولين الذين كان يدرسهم، لكنه عرف أن العديدَ منهم كانوا مرتابين من دوافعه لأنه كان

31 – Johnson, J. M., Doing Field Research, New York, NY: Free Press, 1975, p. 141–142.





يترك آلة التسجيل في وضع الاشتغال عندما كان يتجول معهم. واستنتج، كزميله جونسون، أنه يجب على الباحث ألا يعتبر علاقتَه مع مخبريه مسألةً بديهيةً.

وعلى الرغم من أنه ليست هناك قواعد سريعة وثابتة لإقامة العلاقة مع المخبرين، يمكن تقديم بعض التوجيهات العامة:

• إبداء الاهتمام بأنشطتهم الروتينية: لا يمكن للملاحِظ الميداني أن يقيم علاقةَ ثقةٍ مع مخبريه إلا إذا كيّف نفسه مع حياة المخبرين الروتينية والكيفيات التي يتصرفون بها. فكل الناس يحبون القيام ببعض الأشياء وفي أوقات محددة.

• إبداء المشترك معهم: دائماً ما يكون تبادلُ المعلومات وسيلةً لاستهلال الحديث مع الآخرين (كسر الجليد). مثلا، يمكن للباحث أن يقتسم مع المبحوثين إن كانوا آباء معلوماتٍ حول الأطفال وتربيتهم.




• تقديم مساعدات لهم: إن تقديم خدماتٍ للمخبرين وسيلةٌ فعالةٌ لإرساء علاقة الثقة معهم. فعلى الباحث الميداني أن يجد طرقاً لتبادل الخدمات مع أعضاء الجماعة التي يدرسها. مثلا، يمكن أن ينقلهم بسيارته إلى مكان ما أو يساعدهم على حمل بعض الأغراض والأمتعة أو يقرضهم بعض المال أو يهدي لهم تذاكر السينما أو يقدم لهم نصائح حول السلع والخدمات أو يؤدي عنهم ثمن المشروبات أو يساعد أطفال المبحوثين في القيام بتمارينهم المدرسية أو يعلم المبحوثين بعض المهارات، واللائحة طويلة جداً وتتوقف على طبيعة الناس المبحوثين ومكاناتهم وأدوارهم الاجتماعية. وكمثال على ذلك، تروي لوسيا ثرامبور كيف استطاعت أن تحصل على ثقة سجناء سابقين يزاولون رياضة الملاكمة من أجل إعادة إدماجهم في المجتمع، وذلك من خلال الخدمات العديدة التي كانت تقدمها لهم في صالة للملاكمة: «كنت أساعدهم في مهام عديدة مرتبطة برياضة الملاكمة: كنت أحزم خيوط قفازاتهم، وأضع الواقي في أفواههم، وأدهن خوذاتهم ووجوههم، وأحزم أشرطة الكؤوس. وكنت أصور المباريات التدريبية، وأوفر الماء ودلاء البصق عند نهاية كل جولة، وكان يسمح لي أحياناً بالصعود إلى الحلبة والمشاركة في





المناوشات... وكنت عند الطلب أساعد الملاكمين والمدربين في مهام مرتبطة عادة بالوثائق والتحرير- الحصول على جوازات السفر، ملأ طلبات العمل، تسجيلهم في الدوريات، ونقلهم بالسيارة إلى أماكن إجراء المباريات.وكنت أساعدهم بشرح دروس الحصول على الدبلوم العام، كما كنت أرعى أبناء بعض الملاكمين. وكنت أشتغل لفائدة صالة الرياضة أثناء المباريات الليلية... وكنت أحياناً أقوم بمهام تتعلق بصيانة الصالة»[32].

وكانت تريمبور تجري مقابلاتٍ غيرَ رسميةٍ مع المبحوثين، وأشارت إلى أنها كانت تحصل على إشاراتٍ مضيئةٍ بواسطة المحادثات التي تجريها معهم كلّ يوم، حيث «كنت أتكلم معهم وأنا أَلُفُّ أيديَهم بالضمادات، وعندما كنت أجلس بجانبهم نشاهد التدريبات، أو ونحن نتناول العشاء جميعاً بعد تداريب منهكة»[33].

• التواضع: يهم المبحوثين كثيراً أن يكونوا على يقين من أن الباحثَ شخصٌ يمكنهم أن يكشفوا له عن أنفسهم دون خوف من إفشاء السر أو أن يتم تقييمهم سلبياً. فهم يتفاعلون بإيجابية مع الشخص المتواضع، أي الذي رغم مستواه الدراسي الأعلى يتعامل بتواضع ولا يدعي معرفةَ كلِّ شيء. ففي الغالب، يكون الباحثُ أكثرَ الناسِ الموجودين في الوضعية معرفةً وثقافةً؛ لكن يجب عليه أن يحتفظ بهما لنفسه. كما يجب على الباحث أن لا يكشف عن أشياء سبق أن سمعها من مخبريه حتى وإن لم تكن لها علاقة بحياتهم الخاصة. فعرضُ الملاحِظ لكثيرٍ من المعرفة يجعل المبحوثين يشعرون بأنه شخصٌ غيرُ موثوق.



ويمكن للمخبرين أيضاً أن يمتنعوا عن التعبير عن مشاعرهم إذا كان الملاحِظُ يبدي كثيراً من الذكاء والإطلاع. لذا يجب عليه أن يتركهم يعبرون بحرية، حتى

32 – Trimbur, L., ««Me and the Law is Not Friends» : How Former Prisoners Make Sense of Reentry», Qualitative Studies of Family and Community, 32, 2009: 259–277, p. 236–264.

33 – Ibid., p. 264.







وإن كان بعضهم يقدم معلوماتٍ غيرَ دقيقةٍ وأحياناً عبثية. فلا فائدة له في تصحيح تلك المعلومات والمعتقدات.

• إبداء الاهتمام: قد يحدث للباحث أن يشعر بالملل في الميدان، ولاسيما في وضعيةٍ يحتكر فيها شخصٌ ما الكلام حول مواضيع تافهة أو غير مهمة بالنسبة للبحث. لكن يجب على الملاحِظ الميداني أن يستمر في القيام بشيئين في نفس الوقت: إبداء الاهتمام بما يحدث وتقدير كيف يجب أن يستجيب له.

2. تكتيكات الميدان

أشرنا من قبل إلى أن إقامةَ علاقةٍ مع المخبرين والمحافظة عليها نشاطٌ مستمرٌ طوال البحث الميداني، مما يفرض على الباحث الميداني أن يتكيف مع مختلف الوضعيات وأن يتلمس طريقَه في مجالٍ مليءٍ بالعوائق التي تحول دون حصولِ الباحث على معلومات دقيقة وعميقة. وإليكم بعضَ التكتيكات التي من شأنها مساعدتكم على توسيع وتنويع المعلومات التي يمكن الحصول عليها حول الوضعيات والمخبرين.

أ. كن بسيطاً: إن تقديمَ الباحث لنفسه كشخصٍ بسيط وساذج، لكن مقبلاً على المعرفة والفهم، طريقةٌ مهمةٌ للوصول إلى معلومات كثيرة ودقيقة. ذلك أن تقديمَ الملاحِظ لنفسه كشخصٍ لا يعرف شيئاً يخوّل له إمكانيةَ طرحِ أسئلةٍ على كلّ عضوٍ في الجماعة حول كل الأشياء التي يعرفها. فالناس يتوقعون دائماً أن يكون الغريبُ عن جماعتهم شخصاً يتسم بقدرٍ من السذاجة ولا يعرف كثيراً عن الوسط الذي يعيشون فيه.

ب. كن في المكان المناسب في الوقت المناسب:يمكن للباحث أن يناضل من أجل الحصول على دعوات لحضور بعض الأنشطة، وأن يظهر فجأة بدون دعوة، بمعنى أن «يلعب في الجانبين بدلا من اللعب في الوسط»[34]. وهو تكتيكٌ يشبه

34 – Johnson, Doing Field Research, op. cit.



الاستراتيجيات التي يستخدمها الأطفالُ للحصول على إذن آبائهم للقيام بشيء ما: كأن يوحي لوالدته بأن والده موافق دون أن يقول ذلك بصراحة، الشيء الذي يسمح له بالإفلات من الورطة في حالة انكشاف التكتيك. كما يمكن للباحث مثلا، إن كان يعلم أن المبحوثين قد برمجوا القيامَ بنشاط ترفيهي، أن يلازمهم إلى وقتٍ متأخرٍ على أمل دعوته إلى المشاركة معهم. وإذا لاحظ الباحثُ مثلا أن أحدَ مبحوثيه قليلُ الكلام أو يشعر بالخجل، يمكنهفي هذه الحالة أن يستغل المناسبة التي يكون فيها هذا المبحوث وحيداً لمجالسته وإثارة النقاش معه.

يجد معظمُ الباحثين أنفسَهم مضطرين للتنصت على المحادثات واستراق النظر إلى الوثائق قصد الحصول على معلومات مهمة لم يكونوا ليحصلوا عليها بطريقة أخرى. لكن يجب مراعاة أن اكتشافَ التنصت واستراق النظر سيضع الباحثَ والبحثَ في وضع محرج[35].



ت. أداء بعض المهام وتقديم المساعدة*.

ث. لا تسمح للمبحوثين بمعرفة موضوع البحث بالضبط: من غير الحكمة السماحُ للمخبرين بمعرفة الموضوع الحقيقي للدراسة. وعليه ينصح الباحثون الميدانيون المجربون الباحثَ بأن يحتفظ بأسئلة البحث الحقيقية لنفسه من أجل تقليص مستوى وعي المبحوثين. فعندما يعرف المخبرون كثيراً عن موضوع البحث وأهدافه، يكون من المرجح أن يخفوا أشياءَ معينة عن الملاحِظ أو يبتكروا أشياءَ تستجيب لمتطلبات البحث.

ج. تجنب التصرفات الاستفزازية: حاول تفادي حملَ الاستمارات وأنت تجوب ميدان البحث أو تسجيلَ الملاحظات بحضور المبحوثين أو طرحَ كثيرٍ من الأسئلة المبنينة، لأن من شأن هذه التصرفات أن تخلق ما يسمى «المفعول الارتكاسي»

35 – Ibid.

* – انظر أعلاه.





الذي يمكن أن يتمثل في إبداء المخبرين لنوعٍ من الاحتياط والتحفظ. فكلما كان البحثُ عفوياً كلما جرى التفاعلُ بشكل طبيعي وكلما انخفض مستوى مفعول الإرتكاس.

3. تدوين ملاحظات الميدان

يتوقف البحثُ الإثنوغرافيُّ على تسجيلٍ كاملٍ ومفصّلٍ لملاحظات الميدان. ويجب تدوينُ هذه الأخيرة بعد الانتهاء من كلِّ ملاحظةٍ وبعد كلّ الاتصالات العارضة مع المخبرين كاللقاءات التي تحدث بالصدفة أو المكالمات الهاتفية. وبما أن الملاحظاتِ الميدانيةَ معطياتٌ خامٌّ توفرها الملاحظةُ بالمشاركة، فيجب الحرصُ على تدوين أكبر قدر منها.

أ. ما الذي تنبغي ملاحظته؟

يجب أن تكون الملاحظةُ بالمشاركة عملاً انتقائياً، لأنها لا تستطيع تقديمَ صورةٍ شاملةٍ عن جماعةٍ أو ثقافةٍ معينةٍ. بل يجب على الملاحِظ أن يركز على بعض المواضيع، في الوقت الذي تبقى مواضيعُ أخرى هامشيةً وأخرى خارج اهتمام الملاحِظ تماماً.

إن النظريةَ التي شيدها الباحثُ ويسترشد بها في بحثه هي التي تحدد الأشياءَ التي تجب ملاحظتها بالنظر إلى العلاقة العضوية القائمة بين النظرية والبحث الميداني في العلوم عموماً، والعلوم الاجتماعية خصوصاً. وعموماً يمكن للباحث الذي يرغب في دراسة ظاهرة اجتماعية باستعمال البحث الميداني (الملاحظة بالمشاركة) أن يستأنس بالتصنيف التالي للمواضيع التي يمكن ملاحظتها التي اقترحها كوبيطا[36]:

36 – Corbetta, P.,Social Research: Theory, Methods and Techniques, translated by B. Patrick, Thousand Oaks, CA : Sage Publications, 2003, pp. 247–249.





• المجال المادي: من المهم أن يعرف الباحثُ التصاميمَ الهيكلية للمجال الذي تحدث في السلوكات المدروسة. وليس الهدف من ذلك فقط هو العرضُ الواضحُ لتجارب الباحث الميدانية على القارئ، وإنما أيضاً نظراً لأن الخصائصَ الماديةَ تعكس الخصائص الاجتماعية للسلوكات لأنها تمارس عليها بعض الإكراهات (أو على الأقل تأثيرات). وكمثال على ذلك، يقول باتون: «لاحظنا أثناء زياراتنا لمدارس التعليم الأولي ارتباطاً وثيقاً بين جمالِ المكان (الديكورات التي صنعها الأطفال، صور ملونة على الجدران، مواد مرتبة بعناية، مكان المدرس المنظم) من جهة، وخصائصِ البرنامج الدراسي (مشاركة الآباء، الروح المعنوية لفريق التدريس، وضوح نظرية تنفيذ البرنامج»[37]. ولا حاجة للقول بأن الباحثَ ملزمٌ بأن يتجنب تقديمَ تقييماتٍ أو انطباعاتٍ حول ما يجري حوله: مثلا، عوض أن يكتب إن جاره «فقير»، يجب أن يصف الحي الذي يسكن فيه، أي الشوارع والدكاكين والمساكن ووسائل النقل والخدمات الاجتماعية والمدارس وأماكن العبادة والمرافق الإدارية وغيرها. وإذا كان يدرس تنظيماً معيناً، فمن اللازم أن يصف المرفق بتفصيل: عدد المكاتب، أحجامها، توزيعها المورفولوجي، توزيع المكاتب تبعاً للمواقع التي يشغلها المستخدمون، الخ.

• الوسط الاجتماعي: يجب وصفُ العنصر البشري كما تمّ وصفُ البيئة المادية. تبعاً لمثال الجار الذي تحدثنا عنه لتونا، ينبغي وصفُ الناس في الشوارع في مختلف لحظات اليوم، وملابسهم وأهداف تحركاتهم (التسوق، الذهاب إلى العمل، الترفيه، الخ). ويجب أيضاً جمعُ المعطيات تبعاً لدخل الأسر ومصاريفهم، الخ. وفي مثال التنظيم، ينبغي تقديمُ مخططٍ لكيفية تقسيم المصالح، ووصفُخصائص المستخدمين وأدوارهم ومهامهم، وتوزيعهم إلى مجموعات أو مجموعات فرعية

37 – Patton, M.Q.,Qualitative Evaluation and Research Methods, Newbury Park: Sage, 1990, p. 220.





وأحجام هذه الأخيرة، وعدد المرات التي يتفاعلون فيها وقنوات التواصل بينهم (هل يوجد المستخدمون في أماكن مختلطة؟ هل هناك فصل بينهم؟ ما هي الأشكال التي تتخذها وضعياتهم في المكاتب؟ الخ). ويجب على الباحث أن يكتفي بتقديم وصفٍ دقيقٍ ومفصّلٍ لكلّ هذه الأشياء وأن يتفادى تقديم تأويلات وتفسيرات. ويجب ألا يغيبَ عن بالنا أن تاريخَ الجماعة يلعب دوراً حاسماً في فهمها، وخصوصاً إذا كان البحثُ يركز على التغير الاجتماعي.

• التفاعلات الرسمية: والمقصود بها التفاعلاتُ التي تحدث بين الأفراد داخل المؤسسات والتنظيمات التي تكون فيها الأدوارُ محددةً سلفاً وتتم فيها العلاقاتُ داخل إطارٍ من التقييدات المحددة من قبل. في هذه الحالة، يجب على الملاحِظ أن يدرس كيف يتواصل المستخدمون على مستوياتٍ مختلفةٍ من التراتب التنظيمي، وأن يشخّص دينامياتِ اللقاءات التي تحدث بينهم: من يفتتح الاجتماع، ماذا يقول، توزيع الكلمة بالترتيب، ردود فعل الحضور، الخ. فإذا كان الباحثُ يدرس مركزاً لإيواء الأطفال في وضعيات صعبة، يجب عليه بعد أن يحدد بدقة المجالَ الماديَّ والوسطَ الاجتماعيَّ أن يقدم وصفاً مفصلا للتفاعلات التي تجري بين أعضاء فريق التدخل فيما بينهم، وبينهم وبين النزلاء، وبين النزلاء فيما بينهم. كما سيكون مفيداً للبحث تدوينُ كلِّ المعلومات المتعلقة بطريقة استقبال المتدخل الاجتماعي لنزيلٍ جديدٍ: ما هي طبيعة الأسئلة التي يطرحها المتدخل على النزيل، ما هي الوثائق التي يملؤها وما طبيعة المعلومات التي تتضمنها، ما هي المعايير التي يستند إليها المتدخل لاتخاذ قرار قبوله أو رفضه، ما هي التدابير التي يتخذها في حالة رفضه أو قبوله، الخ.



• التفاعلات غير الرسمية: في أغلب الحالات، تشكّل التفاعلاتُ غيرُ الرسمية الهدفَ الأساسيَّ للبحث الإثنوغرافي. لكنّ دراستَها تتسم بالصعوبة نظراً لطبيعتها الخاصة. ولمّا كانت ملاحظتُها تستلزم دراسةَ وضعياتٍ متعددة ومختلفة، فمن المستحيل تحديدُ مجموعةٍ من القواعد أو توجيهات عامة للقيام بذلك. ومع ذلك،





يجب على الباحث مراعاةُ مجموعة من الشروط نجملها فيما يلي: يمكن للباحث أن يبدأ بملاحظة التفاعلات المادية. فكلُّ وضعية اجتماعية تتحدد بثلاثة عناصر: المكان والفاعلين والأفعال. وعندما يكون الباحثُ الإثنوغرافي يلاحظ الأفعال، «يمكن له أن يرى سيلا من السلوكات، أي آلاف الأفعال التي تبدو غيرَ متمايزة. ومع الملاحظة المتكررة، تبدأ الأفعالُ الفرديةُ في الانتظام في أنماطٍ واضحةٍ من النشاط كالصيد والجري وطلب مشروب واختيار مقعد في الحافلة ووضع السلع في أكياس في السوق وأداء الفاتورة»[38].

تبدأ الملاحظة بالمشاركة دوماً بالسلوك العادي الذي يحدث كلَّ يوم، وهو أصعبُ ما يمكن تحليله نظراً لأنه يتكون من مجموعةٍ كبيرةٍ من الأفعال العفوية التي يستحيل على الفاعل أن يكون واعياً بها. فالشخصُ الذي ينتظر دورَه في طابورِ الحافلة بالكاد يلاحظ ما يحدث حوله (الآخرون الذين ينتظرون دورهم، لباسهم، ماذا يفعلون، حركة السير، طفل يسوق دراجة هوائية، المتسولون، الخ). بل لا يكون على وعي بسلوكه الخاص نظراً لأنه سلوكٌ عادي وآلي ومتكرر. بيد أن الباحثَ ملزمٌ بالانتباه إلى كلّ هذه الأشياء وتمييزِ بعضها عن بعض إن أراد دراستَها. كما يجب عليه أن يتمكّن من التقاط التفاعلات التي تجري بين الناس الذين يلاحظهم: كيف يصعدون إلى الحافلة، هل يتسابقون أم يصعدون في هدوء، كيف يتخذون مقاعدهم، هل يخلق التلاميذ ضوضاء أم لا، ما هي ردودُ أفعال الركاب الآخرين، ماذا يقول المتسولون إن كانوا متواجدين، كيف يتفاعل الركاب مع طلباتهم بواسطة اللغة والأجساد، الخ.

ومن شروط مراقبة التفاعلات التلقائية أن يركّز الباحثُ الميدانيُّ على تلك التي ترتبط بأهداف بحثه فقط. إذ يجب عليه أن يضيّق مجالَ ملاحظاته بعد أن يكون في البداية قد لاحظ مجالا أوسع. لنتصور باحثاً يريد أن يدرس علاقةَ الموظف

38 – Spradley, J. P.,Participant Observation, op. cit., p. 41.





بالمرتفقين في الإدارات العمومية. وبعد أن يقضي فترة في ملاحظة مرافق متعددة، يتبيّن له أن التفاعلات بين الموظفين والمواطنين تحدث بنسبةٍ أكبر في المستشفيات، فيكتفي بدراسة هذه الأخيرة. ومع مرور الوقت، يلاحظ أن أكبرَ قدرٍ من هذه التفاعلات يحدث في مكاتب الاستقبال، مما يدفعه إلى الاقتصار على دراسة العلاقة بين الموظفين والمرتفقين في هذه المكاتب فقط. وما يبرر هذه «القاعدة» هو ضرورةُ أن يكون الباحثُ في وضعٍ يسمح له بملاحظة تفاصيل الأحداث التي تجري، كخلافٍ بين الموظف ومواطنٍ مثلا: كيف حدث الخلاف، وخصائص الأشخاص المعنيين (جنسهم، سنهم، مهنة المواطن)، وردود فعل الأشخاص الآخرين سواء كانوا موظفين أو مرتفقين، والتطورات التي سيتخذها الحدث، الخ.

• تفسيرات الفاعلين الاجتماعيين: ليس الأفرادُ مواضيعَ بحثيةً سلبيةً، وإنما هم فاعلون نشيطون فيه. إذ تشكّل تفسيراتُهم للواقعِ جزءاً أساسياً من المعرفة العلمية. لذلك فإن تواصلهم اللفظي مع الباحث يصبح قناةً مفضلةً للتواصل: «لجميع السلوكات البشرية بعدٌ تعبيريٌّ. إن طريقةَ تنظيمهم للمجال وملابسهم وحركاتهم الجسدية تنقل رسائلَ حول الناس. إذ يمكن اعتبارها أشياءَ تشير إلى جنسهم ومكاناتهم الاجتماعية ومهنهم والانتماء الإثني والمواقف، الخ. إلا أن القوةَ التعبيريةَ للغة توفر أهمَّ مورد للتقارير... فالناس يقدمون كلَّ يومٍ وباستمرار تقارير لغوية إلى بعضهم البعض: يروون أخباراً حول «ما حدث» في وضعيات خاصة، ويناقشون دوافع بعضهم البعض وروحهم المعنوية وكفاءاتهم، الخ»[39].

يحدث كلُّ ذلك بين المبحوثين أنفسِهم، مثلما يمكن أن يحدث بين الباحث والمبحوثين. فالباحثُ «يشارك» ويلاحظ ويطرح أسئلة؛ وتُستعمَلُ هذه الاستجواباتُ، الرسمية وغير الرسمية، كأداةٍ بحثيةٍ إلى جانب الملاحظة نظراً لأن

39 - Hammersley and Atkinson, Ethnography: Principles in Practice, 3rd ed., London: Routledge, 2007, p. 107.





الملاحظةَ بالمشاركةَ تشمل المشاهدةَ وطرحَ الأسئلة. إن المحادثاتِ غيرَ الرسمية التي تهدف إلى تحصيل المعلومات وفهمِ وجهات نظر المبحوث ودوافعه تمثل واحدةً فقط من وسائل البحث الإثنوغرافي كالمقابلات الرسمية. بيد أنه لا يجب المغالاة في تعميق الفروق بين هذه الأخيرة والمحادثات غير الرسمية، ويجب بالأحرى «اعتبارهما مورداً وليس كمشكلة... بما أن هدفَ الإثنوغرافيا يتجاوز مجردَ الحصول على الوصف... فقد تكون هناك مزايا إيجابيةٌ يمكن تحصيلها من خلال تعريض الناس لمثيراتٍ لفظيةٍ مختلفةٍ عن تلك التي تسود في الوسط الذي يتصرفون فيه عادة»[40].




40 – Ibid., p. 119.



الفصل السابع

تحليل المعطيات الكيفية

I. التحليل والترميز

1. الرمز
2. المقولات

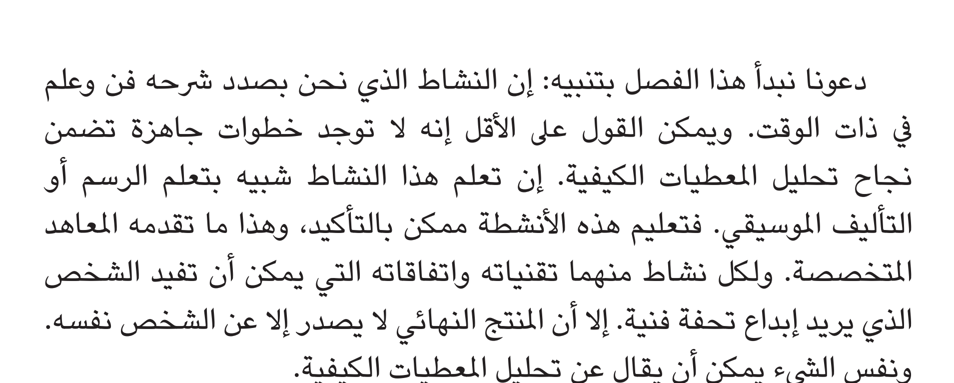
II. أنماط الترميز

1. الترميز الوصفي
2. الترميز في المتن
3. ترميز العمليات

III. خطوات الترميز

1. عداد المعطيات الكيفية
2. الترميز الافتتاحي
3. الترميز المحوري
4. الترميز الانتقائي





دعونا نبدأ هذا الفصل بتنبيه: إن النشاط الذي نحن بصدد شرحه فن وعلم في ذات الوقت. ويمكن القول على الأقل إنه لا توجد خطوات جاهزة تضمن نجاح تحليل المعطيات الكيفية. إن تعلم هذا النشاط شبيه بتعلم الرسم أو التأليف الموسيقي. فتعليم هذه الأنشطة ممكن بالتأكيد، وهذا ما تقدمه المعاهد المتخصصة. ولكل نشاط منهما تقنياته واتفاقاته التي يمكن أن تفيد الشخص الذي يريد إبداع تحفة فنية. إلا أن المنتج النهائي لا يصدر إلا عن الشخص نفسه. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن تحليل المعطيات الكيفية.



فقد طور الباحثون في نفس الوقت تقنيات منهجية وصارمة خاصة بهذا النوع من البحث. وهذه التقنيات هي ما سنحاول عرضها في هذا الفصل. حيث سنحاول تقديم كيفية ترميز المعطيات الكيفية وكيفية كتابة المفكرات وعرض المفاهيم تخطيطياً.

وكما سبق أن أشرنا إلى ذلك في أماكن متفرقة من هذا الكتاب، يقتضي البحث الكيفي تفاعلا متواصلا بين النظرية وعملية جمع المعطيات وعملية تحليلها. فبخلاف الباحث الكمي الذي يتبع خطوات منهجية تتعاقب في الزمن، ينبغي على الباحث الكيفي أن يحتفظ في ذهنه بفكرة أن النظرية وجمع المعطيات وتحليلها متداخلة فيما بينها، وبالتالي يجب عليه أن يقوم بها منذ شروعه في إنجاز دراسته إلى نهايتها.



I. التحليل والترميز

لكن ما المقصود بالتحليل في البحث الكيفي؟ يختلف الباحثون في مسألة ما إذا كان التحليل هو الترميز. وعلى الرغم من وجود من يميز بينهما ويضع فروقاً دقيقة بينهما، فإننا سنتبنى هنا، من أجل أن نسهل على الباحثين المبتدئين استيعاب البحث الكيفي واستعماله بيسر، وجهة نظر أولئك الذين يطابقون بين التحليل والترميز، وسنستعملهما كمترادفين.

يعني التحليل (أو الترميز) عملية تحويل المعطيات الخام إلى «نتائج». فهذا هاري والكوت[1] يقول إن عملية التحويل هذه تعني في المستوى الأولي تحويل «قطع المعطيات إلى مقولات واسعة»؛ أو بلغة أكثر تجريداً، إنها اتباع «إجراءات نسقية... من أجل تحديد الخصائص الجوهرية والعلاقات التي تتناسب مع المواد الوصفية». وبالمثل، يرى روبيرت إميرسون أن التحليل هو «الانتقال إلى ما وراء الخصائص الوصفية للظواهر المدروسة من أجل تقديم تفسيرات لهذه الظواهر الملاحظة، أو من أجل اقتراح أطر مفاهيمية أكثر تفصيلا لهذه المواضيع»[2]. وعلى نفس النحو، يرى لورانس نيومان[3] أن التحليل في البحث الكيفي يعني القيام بشكل نسقي ومنهجي بتنظيمها ودمجها وفحصها؛ حيث أن الباحث يبحث عن الأنماط والعلاقات بين معطيات خاصة، ويحدد تيمات ومفاهيم من أجل تحسين فهمه للظواهر الاجتماعية.





في البحث الكيفي، يقوم الباحث بتنظيم المعطيات الخام في تيمات (أفكار متكررة)، يقوم بعد ذلك في إدماجها في مقولات (مفاهيم)، ويعمد بعد ذلك إلى

1 – Wolcott, H., Transforming Qualitative Data : Description, Analysis, and Interpretation, Thousand Oaks, CA: Sage, 1994, pp. 23-24.

2 – Emerson, R., Contemporary Field Research : Perspectives and Formulations, (2nd ed.), Long Grove: Waveland Press, 2001, p. 282.

3 – Neuman, W. L., SocialResearch Methods: op. cit., p. 477.





تركيب هذه الأخيرة في بناءات نظرية، مسترشداً في ذلك بأسئلة بحثه التي تجنبه فقدان البوصلة بسبب التفاصيل الهائلة للمعطيات الخام، وتمكنه من مساءلتها على مستوى أعلى من التجريد، حيث تسمح له بالانتقال من المواد الخام إلى النظرية والتعميمات.

يضع لوفلاند وزملاؤه[4] أربعة خصائص لعملية تحليل المعطيات الكيفية:

(1) تنبثق النتائج من عملية تحليل تقوم على **مبدأ الاستقراء** وليس الاستنباط. فقد أشرنا سابقاً في هذا الكتاب إلى أن التحليل الاستنباطي يبدأ بفرضيات مستخرجة من النظرية ثم ينتقل إلى مرحلة التحقق من صدقها أو خطئها من خلال إخضاعها لحكم المعطيات التي يتم جمعها وفقاً للمنظور النظري الذي يوجه البحث. أم التحليل الاستقرائي، فإنه ينطلق من المعطيات التي تكون الأساس الذي يولد منه الباحث نظريته وفرضياته. لكن ينبغي أخذ هذا المبدأ بحذر، لأنه لا يوجد بحث ينطلق من فراغ، ويكون الباحث ملزماً بالانطلاق من «حد أدنى من النظرية» الذي يتمثل أساساً في أسئلة البحث التي يستمدها الباحث من قراءاته السابقة[5].

(2) بالنظر إلى الطابع الاستقرائي للتحليل الكيفي، فإن **الباحث هو الفاعل الرئيسي في عملية التحليل**. فسواء أجرى البحث باحث واحد أو فريق من الباحثين، فإن الفاعلين التحليليين الأساسيين هم الباحثون أنفسهم. إذ لا يمكن إسناد مهمة التحليل لباحث آخر لا يشارك في البحث ولا إلى البرامج الحاسوبية المعروفة.

4 – Lofland, J., Snow, D. A., Anderson, L., Lofland, L. H.,Analyzing Social Settings: A Guide to Qualitative Observation and Analysis, (4th ed.), Belmont, CA : Wadsworth Thomson, 2006, pp. 195–196.

5 – Snow, D. A., Morrill, C. and Anderson, L., «Elaborating Analytic Ethnography: Linking Fieldwork and Theory», Ethnography, 4, 2003 : 181– 200.







(3) بالنظر إلى الطابع الاستقرائي للتحليل الكيفي والمكانة المركزية للباحث التي يشغلها فيه، فإن التحليل الكيفي يتميز بكونه **عملية تفاعلية قوية** بين الباحث ومعطياته. وترجع هذه الخاصية إلى مطلب انغماس الباحث الكيفي في الميدان وخلق ألفة معه.

(4) بالنظر إلى لطابع الاستقرائي للتحليل الكيفي والمكانة المركزية للباحث وطابعه التفاعلي القوي، فإنه يقتضي **عملا كثيفا ووقتا طويلا**. لذلك ينبغي متابعة التحليل بطريقة متواصلة ومنهجية وليس بطريقة اعتباطية.

(5) غير أن الملاحظ أن الباحثين الكيفيين نادراً ما يكشفون عن الطرق التي اتبعوها لإنتاج تقريرهم العلمي النهائي. وكما أشار إلى ذلك مارغريت لوكونت وجان شينسول، «يصف العديد من الإثنوغرافيين التحليل الذي قاموا به بطريقة صوفية، حيث يوحون للقراء بأن التيمات والأنماط انبثقت من المعطيات أثناء قراءتهم وإعادة قراءتهم لملاحظاتهم الميدانية، كما ينبثق أشخاص متجولون من سديم شاطئ ضبابي. لكن للأسف إن كيفية انبثاق تلك التيمات والأنماط وما الذي سبب انبثاقها يظلان غامضين»[6].

(6) يلح معظم منظري البحث الكيفي على نقطة أساسية، وهي أنه عندما ينهي الباحث الكيفي عمله الميداني، يجد نفسه أمام العشرات من التسجيلات الصوتية أو المرئية التي تتضمن المقابلات الفردية و/أو الجماعية التي أجراها ومئات الصفحات التي تحتوي على ملاحظاته الميدانية. لذلك فإن الكثير من الباحثين المبتدئين يتخلون نهائيا عن البحث بفعل الإحباط الذي يسببه ما أطلق عليه المنظرون الكيفيون «أزمة الألف صفحة». فماذا ينبغي على الباحث أن يقوم به لتفادي الوقوع في هذه الأزمة؟

---

6 – LeCompte, M. and Schensul, J., Designing and Conducting Ethnography Research, Maryland: AltaMira Press, 2010, pp. 45–64.





(7) تجدر الإشارة هنا إلى أنه ليس هناك إجماع بين الباحثين حول التحليل في البحث الكيفي، شأنه شأن باقي قضايا النظرية والمنهج المرتبطة بالعلوم الاجتماعية. ومن بين الأشياء التي اختلفوا فيها، هناك عدد المراحل التي تمر منها عملية التحليل وترتيبها وتسمياتها، وكذا طبيعة التقنيات المستعملة في تلك العملية. إن إلقاء إطلالة على كتب البحث الكيفي، سواء النقدية أو البيداغوجية، تكفي لاستنتاج أنها تقترح طرق تحليل عديدة ومختلفة للمعطيات الكيفية. إلا أنها تشترك في كثير من المبادئ التحليلية. وبالنظر إلى الطبيعة البيداغوجية لهذا الكتاب، فقد قررنا عدم الخوض في مناقشة الاختلافات القائمة بين مختلف هذه التصورات، وفضلنا تجنب التشويش على ذهن باحث العلوم الاجتماعية غير المتمرس بفيض المعلومات المتعلقة بهذه الطرق. لذلك اقترحنا نموذجاً تحليلياً واحداً، مستلهماً من عدد من النماذج المتاحة لنا التي تستند إلى «النظرية المتجذرة في الواقع» Grounded Theory التي وضع أسسها عالما الاجتماع الأمريكيان بارني غلازر وأنسليم ستروس في كتابهما **اكتشاف النظرية المتجذرة في الواقع: استراتيجيات للبحث الكيفي**[7].

(8) إن الجواب على السؤال المتعلق بما ينبغي على الباحث المبتدئ القيام به وهو يواجه ركام المعطيات الكيفية التي جمعها، يكمن في اتباع مراحل تحليل المعطيات الكيفية التي تبدأ بمعالجة المعطيات الكيفية، أي تفريغها وإعدادها من أجل تقطيعها، ومراحل الترميز الثلاث التي اقترحها أول مرة بارني غلازر وأنسليم ستروس واستخدمها بعده باحثون آخرون وطوروها، ثم الانتقال إلى المرحلة الأخيرة المتمثلة في بناء السرد النظري الذي يربط التيمات (أو البناءات النظرية) بأسئلة البحث التي توجه البحث برمته.

7 – Glaser, B. and Strauss, A. The Discovery of Grounded Theory..., op. cit.





1. الرمز

قبل الشروع في عرض مراحل تحليل المعطيات الكيفية بتفصيل، يجب أن نعرف ما يعنيه «الرمز» و«المقولات» اللذين تقوم عليهما عملية التحليل برمتها. يعرف جوني سالدانا[8] الرمز في البحث الكيفي بأنه كلمة أو جملة قصيرة تشير رمزياً إلى صفة بارزة تلخص جوهر قطعة من اللغة أو المعطيات المرئية. ويعرفه مايلز وزميلاه[9] بأنه علامة وصفية أو استنتاجية يتم إسنادها إلى قطعة معطيات. وبصيغة أبسط، إن الرمز كلمة أو جملة قصيرة تستخدم كعلامة على قطعة واحدة من المعطيات، والهدف منها هو تسهيل تنظيم المعطيات في وحدات قابلة للاستعمال في عملية التحليل. ويمكن ترميز كل المعطيات الكيفية، سواء كانت مقابلات منسوخة أو ملاحظات ميدانية للملاحظة بالمشاركة أو جرائد أو وثائق إدارية أو نصوص أدبية أو مذكرات شخصية أو صور أو فيديوهات أو مواقع إلكترونية أو مراسلات مكتوبة أو إلكترونية، الخ. ويمكن لقطعة المعطيات التي سيتم ترميزها في مرحلة الترميز الأولى أن تكون كلمة واحدة أو جملة كاملة أو فقرة كاملة أو صفحة أو وصلة من فيديو أو صورة أو مجموعة صور، الخ. وفي عملية الترميز الثانية، يمكن أن تكون قطعة المعطيات نفس الوحدات المتعلقة بعملية الترميز الأولى، مقاطع أطول، أو إعادة تشكيل الرموز نفسها. فالرمز يلخص مضمون قطعة المعطيات مثلما يلخص العنوان مضمون كتاب أو مقال.

إن الهدف من الترميز، الذي يعتبر «أصعب عملية على الفهم والإتقان بالنسبة للباحثين غير المتمرسين»[10]، هو تنظيم المعطيات، ويساعد الترميز على التحليل لأنه يسمح باستخراج الأنماط من مصادر معطيات متعددة، وتحديد العلاقات

---

8 – Saldaña, J., The Coding Manual for Qualitative Researchers, London, CA: Sage, 2009, p. 3.

9 – Miles, M. B., Huberman, A. M., & Saldaña, J., Qualitative Data Analysis: A Methods Sourcebook, 3rd Ed., Thousand Oaks, CA: Sage, 2014.

10 – Ibid., p. 55.





القائمة بين الأنماط، وبناء تيمات ومفاهيم مشتركة بواسطة معطيات غير موحدة. وكما يقول ويل فان دين هونارد وديبوراه فان دين هونارد[11]، «ينطوي تحليل المعطيات على شكل من الترميز. ويعكس الترميز العادات التحليلية الشخصية للباحث والمبادئ العامة التي تنبجس من مناهج كيفية خاصة ورؤى نظرية. يمكن لتحليل المعطيات، في أكثر أشكاله صرامةً، أن يتمثل في ترميز النص سطراً بسطر، حيث يستطيع الباحثون أن يمسكوا في كل سطر بأي ورود تجريبي أو مفاهيمي. ففي التحليل المحادثاتي، يتم قياس مدة التوقف عن الكلام واستعمالها كقطعة معطيات. ويمكن لبعض الباحثين أن يتبنوا مقاربة أكثر مرونة، حيث يرمزون فقرات أو مجموعات جمل برمتها في الوقت الواحد».

إن الرمز الجيد، حسب ريتشارد بوياتزيس هو الرمز»الذي يغطي الغنى الكيفي للظاهرة. ويستعمل في التحليل والتأويل وتقديم البحث»[12]. ولكي يقوم الباحث بترميز المعطيات في مقولات أو تيمات، يجب عليه أن يتعلم أولا كيف «يرى» المقولات والتيمات في المعطيات وكيف يتعرف عليها. ويشرط بوياتزيس «رؤية» المقولات والتيمات على أربع كفاءات: (1) التعرف على المقولات والتيمات في المعطيات؛ (2) التفكير بواسطة الأنساق والمفاهيم؛ (3) امتلاك معرفة ضمنية أو خلفية معرفية عميقة (مثلا، إن معرفة تاريخ المغرب يساعد على فهم الممارسات الدينية الحالية للمغاربة)؛ (4) امتلاك معرفة ذات صلة (مثلا، يجب على الباحث أن يكون على معرفة كافية بالموسيقى المغربية إذا أراد يرمّز مقولات وتيمات الموسيقى الشبابية)[13].



11 – van den Hoonaard, D. K., and van den Hoonaard, W. C., «Data analysis», In L. Given (Ed.), The SAGE Encyclopedia of Qualitative Research Methods, Thousand Oaks, CA: Sage, 2008: 186-188, p. 187.

12 – Boyatzis, R. E., TransformingQualitative Information: ThematicAnalysis and Code Development, ThousandOaks, CA: Sage, 1998, p. 31.

13 – Ibid., p. 8.







ويحذر طوماس شفانت[14] الباحثين الكيفيين من السقوط في الأخطاء الثلاث القاتلة: (1) البقاء في المستوى الوصفي، أي عدم الانتقال إلى المستوى التحليلي؛ (2) التعامل مع الترميز وكأنه عملية ميكانيكية خالصة؛ (3) التعامل مع الرموز كأشياء ثابتة وغير مرنة.

ويتكون الرمز، وفقاً لنيومان[15]، من خمسة أجزاء؛ ويجب على الباحث أن يضع لكل رمز بطاقة تتضمن هذه الأجزاء الخمسة المتمثلة في التالي: علامة (اسم) تتكون من كلمة واحدة إلى ثلاث كلمات؛ تعريف يتضمن الخاصية الجوهرية؛ تعريف «ضعيف» لكيفية التعرف على الرمز في المعطيات؛ تعيين الاستثناءات والصلاحيات.

2. المقولات

إن المقولة أكثر تجريداً من الرمز. وهي تركيب لمجموعة من الرموز التي تشترك في خاصية أو خصائص معينة. مثلا، يمكن للباحث أن يسند رمز «سياسي» إلى كل قطع المعطيات التي تتضمن هذا الوجه السياسي، ورمز «ممثل» لكل الأشخاص الذين ينتمون إلى هذه الفئة، ورمز»رياضي» لكل من يمارس هذا النشاط. ولتقليص عدد الرموز التي تشترك في هذه الفكرة المكررة، يبتكر مقولة «شخصيات شهيرة» يجمع فيها كل هذه الشخصيات. ويتوقف اختيار المقولات على أهداف الدراسة وأهداف الباحث. وترتبط المقولات التي ينبغي استخراجها بقضايا معينة، أو أنشطة وأحداث، أو علاقات اجتماعية، أو وضعيات وسياقات، أو سلوكات.

يجب على الباحث الكيفي أثناء صياغة المقولات أن يقارن بين جميع وحدات

14 – Schwandt, T. A., Qualitativeinquiry: A Dictionary of Terms,Thousand Oaks, CA: Sage, 1997, p. 17.

15 – Neuman, W. L., SocialResearch Methods..., op. cit., p. 482.





المعنى المرمَّزة (أي قطع المعطيات المرمَّزة) المحصل عليها[16]. ومعنى ذلك أنه عندما يختار وحدة معنى جديدة، فإنه يقوم بمقارنتها بمجموع وحدات المعنى الأخرى ويقوم بعد ذلك بضمّها إلى وحدات المعنى الأخرى التي تشبهها تحت رمز واحد. وإذا لم يجد وحدات معنى تشبهها، يبتكر رمزاً جديداً. وينبغي على الباحث أن يدرك أن هذه العملية تترك المجال مفتوحاً للتدقيق المتواصل: إذ تتغير المقولات الأولى، وتنشأ مقولات جديدة، وتلغى مقولات سابقة، وتكتشف علاقات جديدة[17]. وباختصار، يسعى الباحث أثناء عمليتي صياغة المقولات والترميز إلى بناء مجموعة من المقولات التي تسمح له بأن يبني من جديد وبطريقة منطقية المعطيات التي جمعها.

ويجب على المقولات أن تكون:

- مستخرجة من المعطيات وليست مفروضة على المعطيات من دراسة أخرى؛
- شاملة، بمعنى أن كل المعطيات يجب أن تدخل في مقولة أو أخرى؛
- متبادلة الإقصاء، بمعنى أن قطعة معطيات تدخل في مقولة واحدة؛
- تخضع لنفس المستوى من التحليل ومرتبطة بنفس المعيار (الذي يجب أن يكون ذا علاقة بموضوع البحث).

يقترح جون لوفلاند وزملاؤه[18] ستة طرق للبحث عن المقولات في البحث الكيفي. دعنا نفترض أنك تريد تحليل استغلال الأطفال في مدينة معينة. فلكي تستخرج المعنى من المعطيات الخام التي جمعتها في الميدان، يجب أن تطرح على نفسك الأسئلة التالية:

16 – Glaser and Strauss, The Discovery of Grounded Theory, op. cit.

17 – Maykut, P. and Morehouse, R., Beginning Qualitative Research. A Philosophic and Practical Guide, London & Washington, D.C.: The Falmer Press, 1994, p. 123.

18 – Ibid., pp. 149–165.





1. التكرارات: كم عدد حالات استغلال الأطفال التي تحدث في المدينة التي أدرسها؟ (يجب الحرص على التمييز بين التكرار الفعلي وما يرغب الناس في قوله).

2. درجة الأهمية: ما هي درجة خطورة الاستغلال؟

3. البنيات: ما مختلف أنواع الاستغلال: جسدي، ذهني، لفظي، جنسي؟ هل ترتبط هذه الأنواع بطريقة معينة؟

4. العمليات: هل هناك ترتيب بين عناصر البنية؟ هل يبدأ الترتيب بالاستغلال الذهني ثم ينتقل إلى الاستغلال الجسدي والجنسي، أم أن ترتيب العناصر يتغير؟

5. الأسباب: ما هي أسباب استغلال الأطفال؟ هل هي ظاهرة منتشرة أكثر في طبقات اجتماعية معينة أو جماعات دينية أو إثنية خاصة؟ هل تتواتر أكثر في فئات عمرية محددة؟

6. الانعكاسات: كيف يؤثر استغلال الأطفال على الضحايا على المدى القريب والمدى البعيد؟ ما هي انعكاساته على أسر الضحايا؟

II. أنماط الترميز

يميز ماثيو مايلز ومايكل هبيرمان وجوني سالدانا[19] بين ثلاثة أنماط أساسية لعملية الترميز وهي: الترميز الوصفي، والترميز في المتن، وترميز العمليات.

1. الترميز الوصفي

يسند الترميز الوصفي علاماتٍ معينةً إلى المعطيات، وذلك بغرض تلخيص الموضوع الأساسي لقطعة معطيات (وحدة معنى) في كلمة أو جملة قصيرة (في الغالب تكون اسماً). والمنتظر من هذه العملية هو توفير جردٍ بالمواضيع التي

19 – Miles, M.B., Huberman, A.M. and Saldaña, J., Qualitative Data Analysis..., op. cit., pp. 80–81.





ينبغي فهرستها وتحويلها إلى مقولات. ويرى هؤلاء الباحثون أن الرموز الوصفية تلائم البيئات الاجتماعية أكثر مما تلائم الفعل الاجتماعي، لذلك فإنها تستعمل بشكل أكبر في البحث الإتنوغرافي والدراسات التي تشمل أشكالا متعددة من المعطيات. ويقدم مايلز وزملاؤه مثالا عن هذا النمط من الترميز من ملاحظات ميدانية تتعلق بحي تسكنه طبقة متوسطة:

[1] في طريقي إلى المدرسة، لمحت متاجر توجد بمحاذاة بناية إدارية صغيرة: صانع نظارات، طبيب أخصائي أقدام وعيادات صحية/طبية أخرى. وبعيداً في الشارع، هناك بقعة أرضية فارغة يوجد بجانبها مطعم بورغر كينغ.	[1] **تجارة**



يجب على الباحث الذي يمارس نمط الترميز الوصفي أن يستخرج جميع المقاطع التي تحمل الرمز «تجارة» من مختلف الملاحظات الميدانية من أجل تقديم جرد مفصل لهذه الحالة ومن أجل بناء وصف سردي لأجواء التجارة في المنطقة.



2. الترميز في المتن

إنه من أشهر أنماط الترميز الكيفي. ويستعمل الترميز في المتن كلمات أو جملا قصيرة من اللغة الخاصة بالمبحوث ويستخدمها كرموز. ويمكن للرموز المستعارة من لغة المبحوثين أن تكون كلمات شعبية أو محلية تنتمي لثقافة أو ثقافة فرعية أو ميكرو ثقافة (مثلا، يمكن أن تسمع في المستشفى مصطلحات «الإقامة»، «التحليلات»، الخ، وفي جماعة الشباب والمراهقين مصطلح «الساط»، الخ). إن الترميز في المتن يلائم مجموع أنواع الدراسات الكيفية، لكنه يناسب بالخصوص الباحثين الكيفيين المبتدئين اللذين يتعلمون كيف يرمزون المعطيات، والدراسات التي تعطي الأولوية لصوت المبحوثين. وتجدر الإشارة إلى أنه يمكن للباحث أن يسترشد بالكلمات أو الجمل التي تتكرر نظراً لأنها تشير في الغالب إلى





انتظامات أو أنماط في الوضعية. ويجب على الباحث أن يضع الرموز المستعارة من لغة المبحوث بين قوسين لتمييزها عن الرموز التي يصيغها الباحث في لغته الخاصة. والمثال التالي مقتطف من مسودة مقابلة مع مراهقة تتحدث عن تجربتها المدرسية:

[1] كنت أكره المدرسة السنة الماضية. كانت سنتي الأولى مريعة، كنت أكرهها. لكن [2] هذه السنة أفضل في الواقع، مممممم، لست أدري لماذا. أعتقد، في الصيف قررت [3] التوقف عن الاهتمام بما يفكر فيه الناس واهتممت فقط بـــ... لست أدري.	[1] **"كنت أكره المدرسة"** [2] **"هذه السنة أفضل"** [3] **التوقف عن الاهتمام"**

3. ترميز العمليات

يستعمل هذا النمط من الترميز فقط «أسماء المصادر» للإشارة إلى الأفعال الملاحظة أو المفهومية التي تتضمنها المعطيات. وتشمل العمليات أيضاً الأفعال المتداخلة مع ديناميكيات الزمن، مثل الأشياء التي تنبثق، تتغير، تحدث في متواليات معينة. ويلائم ترميز العمليات جميع أنواع الدراسات الكيفية، ولكنه يناسب أكثر النظرية المتجذرة في الواقع التي تستخرج فعل/تفاعل المبحوث ونتائجهما. فيما يلي مثال عن هذا النوع من الترميز مقتطف من مسودة مقابلة مع مراهقة تشرح كيف تنتشر الشائعات:

حسنا، هذه مشكلة أولى، وهي أن مدرستي صغيرة جداً، لذلك [1] إذا قلت شيئاً واحداً لشخص واحد، وقرر أن يخبر شخصين آخرين، وقرر هذان الشخصان إخبار شخصين آخرين، فإن الجميع سيكون على علم بالخبر بعد فترة. [2] الجميع في المدرسة يعرف أنك قلت شيئاً ما، مهما كان. لذلك....	[1] **انتشار الشائعات** [2] **معرفة ما تقول**





III. خطوات الترميز

يقترح كارل أورباخ ولويز سيلفيرشتاين[20] طريقة تتكون من عدة خطوات لبلوغ فهم ملائم للمعطيات، ويطلقان عليها عبارة «خطوات الترميز». ويدعوان الباحث المبتدئ إلى تصور هذه العملية كسلم ينتقل فيه من أدنى إلى أعلى مستوى من الفهم، أي من المستوى الأقل تجريداً إلى المستوى الأكثر تجريداً. إن المستوى الأدنى هو النص الخام والمستوى الأعلى هو السرد النظري. وتتمثل خطوات الترميز الكيفي في:

الشكل رقم 1: **مستويات تحليل المعطيات الكيفية**

مستوى تجريد أعلى

- الترميز الانتقائي
- الترميز المحوري
- الترميز الافتتاحي
- النص الخام

مستوى تجريد أدنى



قبل الشروع في تحرير التقرير النهائي للدراسة، يجب على الباحث الكيفي أن يعرض الأفكار المتكررة والمقولات والتيمات بشكل مختصر. ويقدم أورباخ

20 – Auerbach, C. F. and Silverstein, L. B, Qualitative Data. An Introduction to coding and Analysis, New York and London: New York University Press, 2003, p. 35–36.





وسيلفيرشتاين مثالا من بحث أجرياه حول فكرة الأب في هايتي، قاما فيه ببناء المعطيات الكيفية على النحو التالي:

الشكل رقم 2: **الأفكار المتكررة، المقولات، التيمات بالنسبة لدراسة الأب الهايتي**

I. دور الذرية الجندري المزدوج الثقافة

أ. تمجيد أبعاد الأب التقليدي الهايتي

1. كان حلمي أن أشبه والدي.
2. ليس في والدي ذرة من الكسل.
3. أحب الطريقة التي يعامل بها والدي والدتي.

ب. عدم الرضى عن أبعاد الأبوة التقليدية الهايتية.

4. لم يقل أبداً "أحبك".
5. الراشدون لا يلعبون.
6. عندما ترى أباك قادماً تتوارى بالداخل.
7. يهتم أبي بالأطفال الآخرين أكثر مني.




II. بناء تعريف أكثر بهجةً للأبوة.

أ. تعريف الأب الجيد.

8. مهمتي هي رعاية أسرتي.
9. أنت صديق للأطفال أكثر مما أنت رئيسهم.
10. يجب أن تكون حاضراً وقتما احتاجك طفلك.
11. تدعو طفلك وتقول له أحبك.
12. كان عيسى المسيح قدوتي.

ب. معنى معزَّز للذات

13. الأبوة تغيرك، تعيد بناءك.
14. أنت تنظر إلى أبنائك يكبرون؛ إنه لأمر جميل.





يتكون هذا الملخص الترميزي من ثلاثة تيمات (بناءات نظرية)، هي «دور الجندر المزدوج الثقافة»، «بناء تعريف أكثر بهجة للأبوة» و»بناء معنى معزز للذات». وتتكون كل تيمة من مجموعة من المقولات: فالتيمة الأولى مثلا تتكون من مقولتين هما «تمجيد أبعاد الأب التقليدي الهايتي» و»عدم الرضا عن أبعاد الأبوة التقليدية الهايتية». وتتكون المقولة الأولى الخاصة بالتيمة الأولى من ثلاث أفكار مكررة (مفاهيم) هي «كان حلمي أن أشبه والدي» و»ليس في والدي ذرة من الكسل» و»أحب الطريقة التي يعامل بها والدي والدتي». وتجدر الإشارة إلى أن التيمات تسمح للباحث بصياغة سرد نظري ذي علاقة بأسئلة البحث وأهدافه المتعلقة بالتجربة الذاتية للآباء الهايتيين.

إن الوصول إلى هذه النتيجة يتطلب من الباحث المرور عبر أربع مراحل، هي تلك التي عرضناها من قبل في الشكل رقم... فبالإضافة إلى المرحلة الأولى المتمثلة في إعداد المعطيات الكيفية (النص الخام)، يدعو أنسليم ستروس[21] الباحث الكيفي إلى مراجعة معطياته ثلاث مرات، يستعمل في كل مرة نوعاً مختلفاً من الترميز.

1. إعداد المعطيات الكيفية (النص الخام)

قبل الشروع في تحليل المعطيات الكيفية، ينبغي على الباحث أولا أن يحول المقابلات إلى نصوص، أي إلى **مسودات** تتضمن المعطيات المنطوقة التي سبق له تسجيلها مع المشاركين في الميدان. يعرف غيبسون وبراون[22] المسودة كما يلي: «عندما يتحدث الباحثون عن المسودة، فإنهم يقصدون نمطاً من عرض قطعة معطيات تم جمعها [في الميدان]. وتحيل «المعطيات» إلى المواد التي تم جمعها (أو توليدها) أثناء البحث، بينما يعني «التفريغ» عملية عرض تلك المعطيات في شكل

21 – Strauss, A. QualitativeAnalysis for Social Scientists, NewYork: Cambridge University Press, 1987.

22 – Gibson, W., and Brown, A., Working with Qualitative Data, London, UK: Sage, 2009, p. 109.








جديد. فمن خلال التفريغ، **يعرض** الباحثون أو **يعيدون تقديم** المعطيات التي جمعوها».

ليست عملية تحويل المعطيات السمعية أو السمعية-المرئية إلى مسودات عملية محايدة[23]، بل هي إجراء نشيط من عملية التحليل وليست إجراء ميكانيكياً. وفي هذا السياق تقول شارون رافيتش ونيكول ميتينفيلنر ريغان: «إن تبني مقاربة نظرية لتفريغ المعطيات - أي التركيز الواعي والمقصود على الأبعاد التي يجب تفريغها من أجل دراسته بدقة - ليست عملية إعداد للمعطيات من أجل تحليلها، وإنما هي التحليل نفسه»[24]. إن عملية تفريغ المعطيات الكيفية إذن تتسم بالإبداع والتجديد. ذلك أن المسودات ليست مجرد عرض للمعطيات، بل هي أيضا شكل من التأويل. فعلى الرغم من الدعوة إلى التفريغ الحر في للمعطيات، فإن المسودات وعملية التفريغ لا تتسمان بموضوعية مطلقة كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن: إذ يطرح الباحث على نفسه سؤال ما إذا كان ينبغي له أن ينقل الأصوات التي يمكن أن تعبر عن حالات داخلية متعددة مثل التردد وفراغ الذهن والاحتياط، الخ، وما إذا كان يجب عليه تحويل الكلام «الدارج» إلى العربية الفصحى، علماً أن هذه الأخيرة بناء اجتماعي. إن عبارة «تنظيف المعطيات» المتداولة بين أوساط الباحثين الكيفيين تثير قضايا إيديولوجية وسياسية وأخلاقية، وبالتالي ينبغي تناولها بحذر كبير. فمازال بعض المنظرين للبحث الكيفي يتساءلون عن جدوى التفريغ الحرفي نظراً لأنهم يعتبرون كلمات «أوه» و»بف»، مثلا، عرضية ولا فائدة تحليلية لها[25].

---

23 - Ravitch, S. M., and Riggan, M., Reason and Rigor: How Conceptual Frameworks Guide Research,Thousand Oaks, CA: Sage, 2012.

24 - Ibid., p. 98.

25 - Ravitch, M. Sharon and Mittenfelner Carl, N. M., Qualitative Research. Bridging the Conceptual, Theoritical, and Methodological, Thousand Oaks, CA: 2016, p. 228





هكذا يتضح أن التفريغ الحرفي لا يعني الصرامة والدقة ولا يضمنهما[26]؛ ومع ذلك، فإن الباحثين ملزمين باحترام مبدأ الأمانة في نقل تجارب المبحوثين وكلماتهم والطريقة الأصلية التي صاغوا بها تجاربهم. عندما لا يقوم الباحث بالتفريغ الحرفي للمقابلات، عليه أن يوضح ذلك ويفسر اختيارك بأسباب وجيهة. فلا يكفي القول إن المقابلات كانت عبارة عن تسجيلات صوتية وتم تفريغها، وإنما ينبغي توضيح من قام بتفريغها (مثلا، الباحث نفسه، أعضاء محددين من فريق البحث، أفراد خارجيون، برنامج إلكتروني) وكيف تم تفريغها (مثلا، بطريقة حرفية، بطريقة منقحة). كما ينبغي الإشارة إلى أن المقابلة تمت ترجمتها من لغة أخرى وإلى من قام بالترجمة. ويجب أيضا وضع الكلمات الأصلية التي يصعب ترجمتها بين قوسين أو معقوفتين.

إن كل المسودات عبارة عن ترجمات[27]: أين ستوضع علامات التنقيط؟ أية حركات جسدية ستقوم باعتبارك باحثاً كيفياً بوصفها؟ أية حركات ستهلملها؟ كيف ستشير إلى التواصل بالنظر، ونبرة الصوت، والتوقفات القصيرة والطويلة؟ إن هناك قرارات عديدة يتخذها الباحث أثناء تفريغ تسجيلات المقابلات، لذلك ينبغي أن يكون حذراً وشفافاً إزاء الأسباب التي تقف خلف تلك القرارات. يلاحظ سابين كوال ودانييل أوكنيل[28] أن «كل تفريغ يمثل من حيث المبدأ عملا **انتقائياً** وينطوي بشكل حتمي على مخاطر التحيز الدلالي من هذا النوع أو ذاك. إلا أنه يمكن تفادي هذا الخطر باتخاذ قرارات على أساس اختيارات معلَّلة وليس على

26 – Barbour, R. S., «Quality of data analysis», In U. Flick (Ed.), The SAGE Handbook of Qualitative DataAnalysis (pp. 496–509), London, UK: Sage, 2014.

27 – Kress, G., Jewitt, C., Bourne, J., Franks, A., Hardcastle, J., Jones, K., and Reid, E., English inUrban Classrooms: A Multimodal Perspective on Teaching and Learning, London, UK: Routledge Falmer, 2005.

28 – Kowal, S., and O'Connell, D. C., «Transcription as a Crucial Step of Data Analysis», In U. Flick (Ed.),The SAGE Handbook of Qualitative Data Analysis (pp. 64–78), London, UK: Sage, 2014, p. 66.







أساس اختيارات اعتباطية وغير متبصّرة. لذلك يجب على الباحثين في العلوم الاجتماعية مباشرة التفريغ بعين (وأذن) نقدية جداً».

2. الترميز الافتتاحي Open Coding (إسناد رموز/مفاهيم إلى «وحدات المعنى»)

ينجز الباحث الكيفي الترميز الافتتاحي أثناء «مروره الأول» بالمعطيات التي جمعها. يعرف ستروس وكوربين[29] هذا النوع من الترميز كما يلي: «لكي نكتشف المفاهيم ونسميها ونطورها، يجب علينا أن نفتح النص ونعرض الأفكار والمعاني التي يتضمنها. وبدون الخطوة التحليلية الأولى، لن تتحقق الخطوات التحليلية اللاحقة. وعموماً، يتم أثناء الترميز الافتتاحي تقسيم المعطيات إلى أجزاء متمايزة، ويتم فحصها عن قرب ومقارنتها من أجل تحديد التشابهات والفروق. إذ أن الأحداث والعمليات والمواضيع والأفعال/التفاعلات التي تبدو أنها متشابهة مفهومياً من حيث الطبيعة أو ترتبط بمعنى واحد يتم جمعها في مفاهيم أكثر تجريداً تسمى **مقولات**».

يقوم الباحث في هذه المرحلة من الترميز بتعيين أفكار متكررة ويسند لها رموزاً أولية في محاولته الأولى تكثيف المعطيات في مقولات. حيث يبحث أثناء قراءته المتأنية للمعطيات عن مصطلحات نقدية أو شخصيات مركزية أو أحداث رئيسية. ثم يكتب رمزاً أولياً في أعلى بطاقة بلون خاص. ويجب عليه أن يبقى على استعداد لابتكار رموز جديدة أو تغيير الرموز الأولية في مرحلة التحليل اللاحقة. فالإطار النظري يمكن أن يكون عوناً له إذا طبقه بطريقة مرنة. إن الترميز الافتتاحي يخرج الأفكار المكررة إلى السطح من أعماق المعطيات. وتوجد هذه الأفكار في مستوى أدنى من التجريد وتنبثق من سؤال البحث الأولي أو المفاهيم المستمدة من الدراسات السابقة أو المصطلحات التي يستعملها المبحوثون في

29 – Strauss and Corbin, Basics of Qualitative Research..., p. 102.





الوضعيات الاجتماعية، كما يمكن أن تصدر من الأفكار الجديدة التي يثيرها انغماس الباحث في المعطيات.

لنتأمل قطعة المعطيات التالية المقتطفة من مقابلة متخيلة مع شاب يتحدث عن علاقاته بالنساء:

[1] عندما أكون برفقة امرأة، أحرص على حس الرجولة حيث أؤدي ثمن المشروبات حتى ولو كانت تلك المرأة موظفة.	[1] **حس الرجولة**

إن الجملة الموجودة على اليمين هي «قطعة المعطيات» التي تم اقتطاعها من المقابلة المفترضة، بينما تمثل العبارة الموجودة على يسار الصفحة «رمز» القطعة. هذه الطريقة في الترميز تنطبق على متن المقابلة برمته. فيما يلي قطعة معطيات أطول مقتطفة من مقابلة متخيلة مع طفل معاق يتحدث عن تجربته في مركز للرعاية، الغرض منها تسليط الضوء على طريقة الترميز الافتتاحي:




[1] أشعر أن المركز كان دائما بجانبي، حتى عندما تخلى عني والداي. [2] في الحقيقة أشعر بالأمان وأنا داخل المركز لأنني أشعر بأن هناك شيئاً يحميني من الشارع. [3] فأنت لابد أن تجد مساعدة عند أحد الموجودين في المركز، المساعدين الاجتماعيين والإداريين والنزلاء.	[1] **الاستقرار** [2] **الأمان** [3] **التضامن**

أولا، لاحظ معنا أننا ابتكرنا رموزاً وأسندناها لبعض قطع المعطيات، واستعرنا أيضاً كلمة من لغة المستجوب («الأمان»). ولاحظ ثانياً أن وضعنا كلمة أمان بين مزدوجتين لكي نتذكر طوال عملية التحليل والتأويل أنها مستعارة من لغة المبحوثين. ثالثا، ربما لن تتفق معنا في اختيارنا لهذه الرموز: إذ يمكن لك أن





تعترض، وتختار لقطعة المعطيات رقم 1 رمز الاعتراف بدلا من الاستقرار. يجب أن تعلم أن هذا أمر طبيعي في البحث الكيفي نظراً لأن عملية الترميز ليست عملية ميكانيكية ونسخية وليست علماً بالمعنى الدقيق للكلمة، بل هي نشاط تأويلي يعالج آراء وتمثلات ووجهات نظر يمكن أن نختلف حولها، وليس أشياء مادية سيحصل الإجماع حولها بالضرورة.

في المثال السابق، أسندنا لكل قطعة معطيات رمزاً فريداً خاصاً بها. ويرجع ذلك إلى قصر طول تلك القطعة. لكن عندما نكون أمام متن النص بكامله، فإننا سنجد أنفسنا أمام رموز تتكرر. وهذا أمر طبيعي نظراً لأن الناس يحملون أفكاراً مشتركة ويقومون بأفعال متشابهة ويتوفرون على تجارب مشتركة بفعل انتمائهم إلى أوساط اجتماعية متشابهة. كما أنه أمر مقصود لأن واحداً من أهم أهداف الباحث الذي يقوم بالترميز هو العثور على أنماط متكررة من الفعل والآراء والتجارب التي تتمظهر في المعطيات.




وكما أشرنا من قبل، تختلف قطع المعطيات التي يتم ترميزها من حيث الحجم وكمية التفاصيل، حيث يمكن أن تطابق سطراً أو كلمات قليلة أو فقرة أو فقرات أو صفحة أو صفحات. فضلا عن ذلك، يمكن التخلي عن بعض المعطيات أو عدم ترميزها والاحتفاظ بها للاستعمال اللاحق حسب الحاجة. إن كمية التفاصيل التي ينبغي ترميزها تتوقف على أسئلة البحث وأهداف الباحث و«غنى» المعطيات.

3. الترميز المحوري Axial Coding (ربط المفاهيم في مقولات)

في مرحلة الترميز الافتتاحي، يركز الباحث على المعطيات الخام ويسند لكل «وحدة معنى» (قطعة معطيات) رمزاً معيناً. ففي هذه المرحلة، لا يكون اهتمام الباحث منصباً أساساً على ربط العلاقات بين المفاهيم/الرموز أو بناء المقولات. وبالمقابل، يبدأ الباحث الترميز المحوري بمجموعة منظمة من الرموز الأولى، ويركز على المفاهيم أكثر مما يركز على المعطيات الخام. يمكن أن تنبثق رموز أو أفكار





جديدة أثناء هذا «المرور الثاني» بالمعطيات. وإذا كان الباحث ملزم بتدوينها، فيجب ألا يغيب عن باله أن مهمته الرئيسية في هذه المرحلة من الترميز هي دراسة الرموز/المفاهيم التي حصل عليها في مرحلة الترميز الافتتاحي، وبالتالي يجب عليه أن ينتقل إلى تنظيم الأفكار وتحديد محور المفاهيم الرئيسية في التحليل. فليتذكر الباحث الكيفي أن ابتكار الرموز ومراجعتها مبكراً أو في مرحلة متأخرة أقل أهمية من العثور على نظامها المفاهيمي والبنيوي المشترك؛ وينبغي لذلك ربط الرموز بعضها ببعض بطريقة متسقة ومتماسكة نظراً لأنه ينبغي أن تكون جزءاً من بنينة تنظم الكل[30].

يتساءل الباحث أثناء الترميز المحوري حول:

- الشروط السببية: وهي الشروط التي تؤدي إلى نشأة المقولات، بمعنى الأحداث التي تؤدي إلى ظهور المقولات.
- السياق: أي الخصائص التي تتعلق بمقولة معينة والسياق البنيوي العام الذي تندرج تحته المقولة: الزمان، المكان، الثقافة، الوضع الاقتصادي، الوضع التكنولوجي، التاريخ، البيوغرافيا.
- استراتيجيات الفعل/التفاعل: أي أفعال يقوم بها الأفراد في علاقة بالمقولة؛ كيف تتصرف الجماعات وتتفاعل في علاقة بالمقولة.
- النتائج: أي ما تؤدي إليه هذه الاستراتيجيات التفاعلية.

يجب على الباحث في هذه المرحلة أن يطرح التساؤلات التالية: هل يمكن أن أقسم المقولات المتوفرة إلى أبعاد فرعية أو مقولات فرعية؟ هل يمكن أن أركب بين مقولات في بناء نظري أعم؟ هل يمكن أن أنظم المقولات في متتالية (أ، ثم ب، ثم ج)، أو من خلال موضع ورودها في المتن، أو من خلال علاقتها بموضوع بحثي رئيسي؟

30 – Miles, M.B. and Huberman, A.M. Qualitative Data Analysis..., op. cit, p. 62.





بالعودة إلى مثال دراسة الأبوة في هايتي، نلاحظ كيف انطلق الباحثان من «الأفكار المكررة»، أي التي استعملاها لترميز «وحدات المعنى» المقتطعة من متون المقابلات («مهمتي هي رعاية أسرتي»، «أنت صديق للأطفال أكثر مما أنت رئيسهم»، «يجب أن تكون حاضراً وقتما احتاجك طفلك»، «تدعو طفلك وتقول له أحبك»، «كان عيسى المسيح قدوتي»)، وكثفاها في مقولة واحدة تحتوي على المعنى المتضمن في هذه الوحدات، وهي مقولة «تعريف الأب الجيد». وقاما بنفس الشيء بالنسبة للمقولة الثانية «معنى معزَّز للذات» التي تشمل وحدتيْ معنى هما «الأبوة تغيرك، تعيد بناءك» و «أنت تنظر إلى أبنائك يكبرون؛ إنه لأمر جميل». ويكون الباحث هنا قد وصل إلى مرحلة أصبحت فيها المقولات تمثل الظاهرة المدروسة أو الظواهر الفرعية المكونة لها.

3. الترميز الانتقائي Selective Coding (ربط المقولات في تيمات)



يهدف الباحث في هذه المرحلة من الترميز إلى تحديد **المقولة المركزية** لكل المقولات التي تم بناؤها في مرحلة الترميز والتي تشترك في معنى معيناً. هذه المقولة المركزية هي **التيمة** التي ترتبط بها جميع المقولات التي تندرج في تلك الفئة. إذ تتم إعادة بناء المقولات التي تنتمي لفئة معينة باعتبارها أبعاداً للمقولة المركزية (التيمة). وبالعودة إلى مثال دراسة الأبوة في المجتمع الهايتي، عمد الباحثان إلى ربط العلاقة بين مقولتيْ «تعريف الأب الجيد» و«معنى معزَّز للذات» وإدراجهما في تيمة واحدة هي «بناء تعريف أكثر بهجةً للأبوة». والملاحظ أن التيمة الأخيرة هي أكثر تجريداً وأعم من المقولتين اللتين تكونانها.

ولمزيد من التوضيح، سنختلق مقابلات أجريناها مع أشخاص حول موضوع المثلية الجنسية. فبعد أن أجرينا المقابلات وقمنا بتفريغها وأنجزنا الترميز الافتتاحي الذي سمح لنا باستخلاص مجموعة من الرموز/المفاهيم، ثم ربطنا بين هذه الرموز بفضل الترميز المحوري تحت مقولتي «فاحشة» و«عرش الرحمان





يتحرك»، ننتقل إلى الترميز الانتقائي لنقيم علاقة بين هاتين المقولتين تحت تيمة واحدة هي «التبرير الديني لمعارضة المثلية الجنسية».

ويشمل الترميز الانتقائي ثلاث عمليات: تقديم وصف تحليلي للمقولة المركزية (التيمة) والتي تعتبر الخيط الذي تنتظم حول القصة التي نريد سردها حول موضوعنا؛ وربط المقولات الأخرى بهذه التيمة، والبرهنة على مصداقية هذه القصة. لكن يمكن للباحث بعد أن يستخرج المقولات ويربط بينها أن يحصل على تيمتين. فماذا عليه أن يفعل؟ يجب منظرو البحث الكيفي: يجب عليه أن يتخلى عن إحداهما نظراً لأن الباحث ملزم في هذه الحالة بإعطاء الأولوية لتيمة واحدة تكون بمثابة خيط يسترشد به في سرد قصته. لذلك ينبغي عليه أن يتساءل عن التيمة الأكثر أهمية بالنسبة لبحثه، أي عن تلك الأكثر ارتباطاً بأسئلة بحثه وأهدافه، والتي يمكن أن يفسر بها المقولات الأخرى.



بعد التحليل المكثف، يكون الباحث قد وصل إلى مرحلة توليد الإطار التفسيري الذي يصف نتائجه. ويتم توليد هذا الإطار من خلال الربط بين التيمات في نص سردي يوضح النتائج التي توصل إليها الباحث أثناء التحليل. لكن يجب على الباحث أن يستمر أثناء بناء النموذج في تحليل المقولات والتيمات وإعادة تحليلها. إذ ينبغي دراسة النموذج الناشئ ودراسته عدة مرات، ومقارنته ومواجهته بتلك المقولات والتيمات، وإجراء مقارنة بين مكونات النموذج. ويجب أن تستمر هذه العملية إلى أن يتحقق الباحث من عدم حدوث أي تغيير، أي إلى أن يتأكد من أنه لم تعد هناك إمكانية لانبثاق مقولات وتيمات جديدة. ويطلق الباحثون الكيفيون على هذه الحالة اسم «التشبع». وعندما يتحقق تشبع المقولات والتيمات، فإن ذلك يعني أولا، أن كل المعطيات قد تم أخذها في الاعتبار، وثانيا، أنه تم تفسير كل المقولات بما يكفي من العمق بواسطة المعطيات.





الفصل الثامن

أساليب تحليل المعطيات الكيفية




I. التحليل البنيوي
II. التحليل المقامي الفينومينولوجي البنيوي
III. التحليل المتجذر في معطيات الواقع
IV. التحليل النسقي للأفعال التواصلية



I. التحليل البنيوي*

إن ما يهم بالنسبة للطريقة التي يقترحها كلود ليفي ستروس ليس هو الأسطورة في حد ذاتها، وإنما بنيتها؛ أي الأسطورة وقد اختزلت إلى كلية من العلاقات الأولية. غير أن هذه الكلية لا ينطبق عليها اسم بنية إلا إذا شكلت، إلى جانب كليات أخرى، نسقاً عاماً مشفوعاً بقواعد تسمح بأن نتحول، بطريقة آلية، من بنيةٍ إلى أخرى. وهكذا، فإن استخراجَ بنيةِ أسطورةٍ ما، يقضي بأن نضعها داخل متنٍ استكشافيٍّ عريضٍ من الأساطير؛ بحيث كلما اتسع المتن، كلما حظيت عمليةُ استخراج البنية بمصداقية أكبر.





واستجابةً لهذا المبدأ، عيَّن ليفي ستروس متناً يتسع لثلاثة عشر وثمان مائة أسطورة؛ منها ما جمعه هو بنفسه خلال إقامته بأمريكا، ومنها ما جمعه إثنولوجيون أمريكيون منذ القرن التاسع عشر، ولم تتم معالجتُه على نحوٍ إجمالي. كان عليه أن يقوم بتصنيف مختلف الصيغ التي تتخذها نفسُ الأسطورة، ويعين قواعدَ التحويل التي تسمح بالانتقال من صيغة إلى أخرى. لكن، قبل ذلك، كان لزاماً عليه أن يشتغل على طريقة اللسانيين، وتحديداً الفونولوجيين، فيفكك الأساطير إلى وحدات خطابية أولية يسميها «ميتيمات» (Mythèmes) تيمنا بفونيمات اللساني، ثم يبين بعد ذلك أن هذه الوحدات في وسعها أن تنتظم في بنيات انطلاقا من نظام تقابلات ثنائية. ويبقى الفرض الأساسي الذي يوجه طريقة اشتغال

* – مقتطف من كتاب: فزة جمال، بنيوية كلود ليفي-ستروس أو نحو فونولوجيا للثقافة، دار أبي رقراق، الرباط، 2017، صص. 134-148.





ليفي ستروس في تحليله للأساطير، هو أن هذه الألوان الخطابية بإمكانها أن تتعرض لتحولات من حيث المعنى أثناء انتقالها من جماعة إلى أخرى؛ وذلك وفقا لقواعد التقابل أو التشابه أو التماثل أو القلب أو التكافؤ، غير أنها تحتفظ مع ذلك ببنيتها العميقة. وهكذا فإن التحليل البنيوي للأساطير يكمن في العمل على كشف هذه البنية المتوارية خلف ثراء الحكايات وتشعب مضامينها. ولقد بسط كلود ليفي ستروس، في كتابه الأنثروبولوجيا البنيوية، طريقته في تحليل الأساطير مستعينا بمثال من اليونان القديمة؛ يتعلق الأمر بأسطورة أوديب التي تشتمل على ثلاث حكايات هي على التوالي: حكاية قدموس وحكاية أوديب ثم حكاية أنتيغون. ونقلا عن الطاهر وعزيز في كتابه بنيوية كلود ليفي ستروس، يمكن تقديم محتوى هذه الحكايات باقتضاب شديد كالآتي:



"يتمثل زيوس في صورة ثور وحشي ويختطف فتاة إنسية، هي أوروبا. ويخرج أخوها قدموس للبحث عنها. ويقال له أن يتبع بقرة معينة، ويتعين على قدموس أن يبني مدينة ثيبة حيث تقف البقرة بعد أن يضحي بها لأثينا. ويلاقي قدموس تنينا يحمي عينا مقدسة، فيصرع قدموس التنين ويأخذ أسنانه ويزرعها في الأرض. وكان ثمرة هذا الزرع رجال هم السبارتوي، فيتصارعون ويقتل بعضهم بعضا، ويعين الباقون منهم قدموس على بناء مدينة ثيبة...

وكان الملك لايوس مع الملكة جوكاستا يحكمان ثيبة. وعندما ولد لهما أوديب، وتنبأ العرافون بأنه سوف يقتل أباه، وضعاه على جبل ورجله مربوطة إلى الأرض، فظنوه ميتا، ولكنه عاش إلى أن صادف أباه مرة وقتله.

وكانت مدينة ثيبة قد وعدت من يحل لغز أبي الهول الذي كان يقتل من يعجز عن الجواب، بأن تزوجه الملكة، وانتحر أبو الهول بعد أن أجابه أوديب الذي تزوج أمه من غير أن يعرفها. وولد لأوديب ابنان: بولينسوإتيوكلس، وهما في نفس الوقت أخوان له من أمه.

وبعد أن اعتزل أوديب العرش عندما عرف حقيقة أمه، كان على ابنيه أن يتناوبا على الملك، فاعتلى إتيوكلس العرش أولا لكنه رفض أن يتنازل عنه لأخيه، فثار عليه هذا وقتل كل واحد منهما الآخر. فحرم خالهما دفن بولينس. ولكن أونتيغون تقيم جنازة طقوسية لأخيها فيعاقبها خالها كريون ويدفنها حية".







يجري التحليل البنيوي للأساطير في خمس خطوات أساسية: 1- في البداية نعين، من داخل المتن الأسطوري، عددا من الحكايات القابلة للمقارنة فيما بينها؛ أي تلك التي تفصح عن تشابه ما على المستوى الهيكلي العام. 2- نفكك هذه الحكايات مختزلين إياها إلى عدد قليل من الميتيمات، وهي عبارة عن مشاهد أو مقاطع موجزة تتشابه من حكاية إلى أخرى. 3- ننتقل إلى بناء المصفوفة البنيوية؛ وهي عبارة عن جدول يسمح بتصنيف الميتيمات، ووضع المتشابه منها في قوائم أو حزمات موحدة. 4- نعمل على استخراج المعنى المشترك الذي تحيل إليه ميتيمات كل حزمة على حدة. 5- ننتهي إلى استخراج المعنى العام بفضل تنظيم التشابهات والتقابلات بين الميتيمات في قالب منطقي واحد.




في المثال الذي بين أيدينا، نفترض أن ليفي ستروس قد عين، من داخل متن عريض من الأساطير اليونانية، الحكايات الثلاث أعلاه باعتبارها تفصح عن قدر كبير من التشابه على مستوى هيكلها العام. وعن طريق المحاولة والخطأ، يفكك ليفي ستروس هذه الحكايات إلى وحدات خطابية متشابهة من حيث الوظيفة؛ فيتمكن بذلك من بناء مقولات عامة تعطي لأحداث أساسية من الحكاية معنى محددا. كأن نقول مثلا أن الزواج من الأم وتحدي الخال الذي أمر بمنع الدفن يتشابهان من حيث كونهما فعلان يخرقان قاعدة ما، وتلك وظيفتهما معا. ومن ثمة، فإن وحدة المعنى التي يتمتع بها كل ميتيم تقوم أساسا على وظيفته الدالة نسبة إلى السياق، وقياسا إلى باقي الميتيمات التي تتألف منها الأسطورة. على هذا النحو يتمكن ليفي ستروس من تفكيك كل حكاية إلى ثلاثة ميتيمات أو مقاطع أساسية، وهي كالآتي:

- أسطورة قدموس

1 – قدموس يبحث عن أخته التي اختطفها زيوس

2 – السبارتوي يتقاتلون فيما بينهم

3 – قدموس يقتل التنين



- أسطورة أوديب

1 – أوديب يتزوج أمه جوكاستا

2 – أوديب يقتل أباه لايوس

3 – أوديب يدفع أبا الهول إلى الانتحار

- أسطورة أونتيغون

1 – أونتيغون تدفن أخاها بولينس منتهكة التحريم

2 – إتيوكلس يقتل أخاه بولينس

تجدر الإشارة إلى أن كلود ليفي ستروس، إلى غاية الآن، لا يزال ملتزما بالتحليل البنيوي–الوظيفي؛ فهو يفكك الأسطورة إلى وحدات وظيفية أساسية، ويعبر عن كل وظيفة بفعل عياني مثل: يبحث ويتزوج ويقتل ويدفن الخ. لكن كلود ليفي ستروس لا يتوقف عند التحليل البنيوي–الوظيفي، بل يعتبره لحظة لابد أن نمر منها، وفي نفس الوقت لابد أن نتجاوزها.





يبحث كلود ليفي ستروس عن القاسم المشترك بين الميتيمات، وهي نفسها الوظائف الأساسية التي يضطلع بها كل بطل من أبطال الحكايات، ثم يبني جدولا يخصص كل عمود منه لحزمة من الوظائف التي لها سمة مشتركة، وذلك بصرف النظر عن موقعها من تسلسل أحداث كل حكاية على حدة. وبهذا يكون معنى كل ميتيم مستقلا عن تعاقب الوقائع في الزمان. لكن كيف ينتقل كلود ليفي ستروس، في تحليله للأساطير، من الوظيفة إلى الدلالة؟

أولا وقبل كل شيء، لا ينبغي أن ننسى بأن ليفي ستروس يبحث عن معنى يسمح ببروز تقابل ثنائي أساسي يتيح إمكانية ما للتعبير عن الوظيفة، أو قل حدتها، إيجابا أو سلبا. وهو في ذلك إنما يحاكي الذهن البشري وهو يزاول نشاطه الأكثر عمقا؛ يتعلق الأمر بالقدرة على التمييز بفضل اللجوء إلى مبدأ التقابل أو التعارض؛ «فقد أجرى ليفي ستروس دراساته على أساس الافتراض القائل بأن





لدى العقل الإنساني طريقة تسمح له بتصنيف الأشياء في ألفاظ أو معان متقابلة، الأمر الذي جعل الإنسان يميز بين نفسه وغيره، أو بين الحيوان والذات الإنسانية، وبين الطبيعة والثقافة. هذه القدرة على التمييز تمثل في نظر ليفي ستروس جوهر الاختلاف بين الإنسان والحيوان، كما أنها سهلت قيام الإنسان بالتفاهم والتخاطب عن طريق استخدام مجموعة من التجريدات والرموز، التي ساهمت في بلورة تشكيل نمط الثقافة السائدة وتمييزها عن غيرها من الثقافات الإنسانية»[1].

ثانيا، يستعين ليفي ستروس بالمجاز، «ومن مجازاته المفضلة إحلال المجرد محل المجسد، وهو مجاز أميل إلى الندرة، ويندرج تحت اسم المجاز المرسل synecdoche؛ وفيه تستعمل صفة من الصفات معادلا للشخص أو الشيء المتصف بها: كأن يشير إلى ثمرة القرع بكلمة الحاوية وإلى المشروب الذي فيها بكلمة المحتوى. والحداء الجلدي هو عنده شيء ثقافي، والعشب شيء طبيعي»[2]. ويسمح المجاز المرسل بأن يصير المحمول موضوعا والموضوع محمولا، كأن نستبدل على سبيل المثال عبارة «معزة أخ» بعبارة «أخ عزيز». ولعل هذا الاستبدال هو ما يسمح بالتجريد؛ أي بالحديث عن الصفة في ذاتها ثم تقييمها إيجابا أو سلبا. وفي المثال الذي بين أيدينا، يكون كلود ليفي ستروس قد تمكن من بناء مصفوفة بنيوية تلخص الحكايات الثلاث. على أنه يضيف عمودا رابعا يضم حزمة من الميتيمات تشترك في معنى واحد: وجود عائق أو صعوبة في المشي السليم لدى كل من أوديب وأبيه وجده. (أنظر المصفوفة البنيوية في الجدول رقم 6).

يلاحظ كلود ليفي ستروس أن العمود الأول من المصفوفة البنيوية يضم مشاهد أسطورية أساسية تجمع بين أبطالها رابطة دموية (أخت، أم، أخ). لكن الملاحظة الأهم هي أن آصرة القرابة، كما تم التعبير عنها في هذه المشاهد، تتجاوز الحدود

1 – فهيم حسين، قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة، 1986، ص.230

2 – ستروك جون، البنيوية وما بعدها: من ليفي ستروس إلى دريدا، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة، 1996، ص.33





الجدول رقم 6: **المصفوفة البنيوية**

إعزاز علاقات القرابة	**تبخيس علاقات القرابة**	**إنكار أديمية الإنسان**	**إثبات أديمية الإنسان**
قدموس يبحث عن أخته اوروبا التي اختطفها زيوس			
		قدموس يقتل التنين	
	سبارتوي يتقاتلون		
			لابداكوس (أب لايوس) أعرج
	أوديب يقتل أباه لايوس		لايوس (أب أوديب) أيسر
		أوديب يقضي على أبي الهول	
			أوديب رجله متورمة
أوديب يتزوج أمه جوكاستا	إتيوكل يقتل أخاه بولينيس		
أنتيغون تدفن أخاها بولينيس منتهكة التحريم			







التي ترسمها القواعد والمعايير الاجتماعية. فإذا كان أبطال المشاهد المذكورة قد وقعوا في المحظور، فليس لأنهم لا يثمنون آصرة القرابة كما يطلب منهم المجتمع أن يفعلوا، بل لأنهم يقدرونها أكثر من اللازم بكثير. وإذن، فإن السمة المشتركة بين ميتيمات العمود الأول هي «إعزاز علاقات القرابة».

بالنسبة للعمود الثاني، يلاحظ كلود ليفي ستروس أن الأمر يتعلق كذلك بأقارب، لكن، على خلاف العمود الأول، تشترك مشاهد العمود الثاني في خاصية أساسية تتمثل في تقاتل الأقارب فيما بينهم. فلكأن آصرة القرابة غائبة تماما، أو تفعل فعلها في المنحى المعاكس لما يطلبه المجتمع ويلح عليه. هكذا يكون في وسعنا أن نحمل ميتيمات العمود الثاني على دلالة واحدة، وهي «تبخيس علاقات القرابة». وكما يتضح جليا، فإن الدلالة التي تتخذها ميتيمات العمود الثاني تقع على طرف نقيض للدلالة التي تتخذها ميتيمات العمود الأول.




العمود الثالث من المصفوفة البنيوية يجمع مشاهد أساسية عنوانها العريض نجاح أبطال إنسيين في القضاء على وحوش. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الوحوش لها علاقة بالأصل الترابي للإنسان؛ فقدموس كان يتعين عليه أن يقتل التنين كي يزرع أسنانه، فيخرج السبارتوي من الأرض كما لو أن الأمر يتعلق بنباتات. وأبو الهول وحش نصفه العلوي امرأة ونصفه السفلي أسد، وقد يظهر في روايات أخرى مجنحا، والمهم أنه وحش يشهد على حالة انتقالية هجينة من الحيوان إلى الإنسان. وما أكثر الحكايات التي تتحدث عن الأصل الترابي للحيوانات، وتنين قدموس واحد منها. هذا وإن الأحجيات التي يواجه بها أبو الهول كل من يتحداه تدور حول أصل الإنسان وطبيعته. أما إذا ركزنا أكثر على فعل القضاء على هذه الوحوش، فإن الدلالة النهائية التي تتخذها ميتيمات العمود الثالث هي «نفي أديمية الإنسان وإنكارها».

ويضيف كلود ليفي ستروس عمودا رابعا يصف فيه بعض الخصائص الجسمية لأبطال إنسيين. ويشير، تحديدا، إلى إعاقة ما أو إلى شكل من أشكال





الاختلال في ممارسة الجسم لوظائفه؛ كأن يعاني الشخص مثلا من تشوه يجعله عاجزا عن المشي بطريقة سوية، أو يكون، في أحسن الأحوال، أيسرا. أما المعنى الذي يلمح إليه كلود ليفي ستروس، وهو ينوه بهذه الصفات ويشدد عليها، فيستقيه من اطلاعه على أساطير أخرى تصف كيف يخرج الإنسان من الأرض وينفصل عنها؛ حيث يكون لزاما عليه أن يتعود على المشي السوي لمدة لا بأس بها، حتى يتخطى حالة التمايل والتخبط والمشي غير السوي التي تميزه في اللحظات الأولى من انفصاله عن الأرض. بهذا المعنى تحضر هذه الصفات باعتبارها شاهدا على أديمية الإنسان مثبتا لها. وفي الأخير، يتبين أن الدلالة النهائية التي تتخذها ميتيمات العمود الرابع تقع، هي بدورها، على طرف نقيض من الدلالة التي تشترك فيها ميتيمات العمود الثالث.





لقد انتهينا الآن من القراءة العمودية للمصفوفة، وما يتبقى فعله هو أن نقرأها أفقيا، وذلك بأن نستخرج الإشكالية العامة التي تعالجها هذه الحكايات، مستعينين في ذلك بالبحث عن علاقة إجمالية تنتظم وفقها الدلالات التي عملنا على استخراجها إلى غاية الآن. وعلى ما يبدو، فإن الإشكالية العامة التي تعالجها هذه الأساطير، هي الاستحالة التي يوجد عليها كل مجتمع في إثبات أديمية الإنسان، في الوقت الذي تخبره الوقائع يوميا أن استمرار النوع الإنساني يتوقف على اجتماع رجل وامرأة. نجد أنفسنا إذن أمام إشكالية البداية أو الأصل، والذي لا يسعفنا في حلها ميكانيزم التوالد كما يؤكده الواقع ويشهد له. لكن فيم أهمية استحضار إعزاز علاقة القرابة وتبخيسها في حل الإشكالية التي نطرحها؟

تقدم لنا بنيوية كلود ليفي ستروس بهذا الشأن درسا أصيلا؛ فهي تعلمنا أسلوب تفكير جديد يسمح بأن نتخطى عجز العقل البشري عن البت في البداية. إنها تدعونا إلى تغيير وجهة البحث تماما؛ وذلك بأن نكف عن اقتفاء أثر المجهول والمستحيل، والانصراف، بالمقابل، إلى إيجاد معادلة أو صيغة تناسبية تسمح لنا





بأن نقيس المجهول على المعلوم، ونقترب من المستحيل من خلال فحص الممكن. وفي هذا أهمية استحضار إعزاز علاقات القرابة وتبخيسها. إن الرسالة النهائية التي تنطوي عليها الحكايات الثلاث هي أن نسبة نكران أديمية الإنسان إلى إثباتها كنسبة إعزاز علاقات القرابة إلى تبخيسها.

أكيد أن الواقع يكذب النظرية؛ حيث إن التوالد بين ذكر وأنثى يدحض فكرة الأصل الترابي للإنسان، لكن المؤكد كذلك هو أن الحياة الاجتماعية تثبت، بشكل من الأشكال، قصة التكوين التي يعتقد بها المجتمع وتؤكدها، وذلك لأنها تنتظم وفق بنية تقابلية تكافئ تلك التي تنتظم وفقها قصة التكوين. ولعل هذا التكافؤ هو ما يسند قصة التكوين ويقوم دليلا على صحتها.




وتظل البداية دوما المسألة الأولى التي تعالجها الأساطير. وفي ميثولوجيات كلود ليفي ستروس، كان الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة هو البداية، وكانت الرموز التي تعبر عن هذا الانتقال، الذي سيظل سرا يستغلق على الفهم، هي ثنائيات النيء والمطبوخ، العسل والتبغ، أصل آداب المائدة ثم العري واللباس.

II. التحليل المقامي الفينومينولوجي البنيوي*

تربط بين هذه التقنية وتقنية التحليل البنيوي وشائج قوية؛ الأمر يتعلق

* – مقتطف من كتاب:

Paillé, P. et Mucchielli, A., L'analyse qualitative en sciences humaines et sociales, Paris, Armand colin, 4 édition, 2016, pp. 171–174 (التعريب والحاشية من عندنا)

تجدر الإشارة إلى أننا نحمل المقام والوضعية على نفس المعنى؛ فحين ترد كلمة الوضعية (situation) في صيغة نعت أو صفة (situationnelle)، كما هو الشأن بالنسبة لاسم التقنية (L'analyse situationnelle phénoménologique et structurelle) نفضل استعمال كلمة المقام لكونها تتبع منعوتها بحسب قواعد النحو في اللسان العربي بطريقة ميسرة؛ فنقول «التحليل المقامي الفينومينولوجي البنيوي» بدل «التحليل الوضعياتي الفينومينولوجي البنيوي»، هذا بينما نحتفظ بكلمة الوضعية حينما لا ترد في الجملة صفة أو نعتا؛ نظرا لانتشار هذه الكلمة وشيوعها في لغة العلوم الإنسانية.





بجملة من العمليات الذهنية التي تعنى بمعالجة حالات هي عبارة عن أفعال نتجت داخل مقام معين (وضعية). وتفيدنا هذه التقنية في تفسير** معاني الأفعال التي تنبثق داخل مقامات متماثلة بنيويا، علما أن المرجع الذي نعود إليه للحكم على تماثل الوضعيات من عدمه، هو الطريقة التي يعيش بها الفاعلون الوضعية. وعلى المستوى العملي الملموس، يتعلق الأمر بجمع عدد من الحالات تتكون من أفعال قام بها أشخاص خلال ممارسة حياتهم اليومية، ثم إخضاعها لسلسلة من الخطوات التحليلية تقفل في النهاية على تأويل إجمالي لمعنى الفعل.

يمكن استعمال هذه التقنية في شتى المجالات العلمية، يكفي أن نتمكن من رد الأفعال إلى وضعيات أو مقامات يعتبرها الفاعلون نموذجية، وهو أمر ممكن في جميع الأحوال؛ حيث إن الفكرة المحورية التي تدور حولها الفلسفة الوجودية، ومفادها أن الإنسان قذف به في هذا الوجود، وأنه في مواجهة مستمرة مع شروط وجوده، تتحول، في الحياة الاجتماعية، إلى مصادرة من مصادرات سوسيولوجيا الفهم، التي تفيد أن الأشخاص، في حياتهم اليومية، يواجهون باستمرار وضعيات نموذجية.

ولا تكون المقامات النموذجية للفعل من منظور الفاعلين لا نهائية، بل إنها محدودة العدد. حتى إذا شد انتباهنا فعل ما فرغبنا في فهم معناه، وجدنا أنفسنا أمام عدد محدود من المقامات النموذجية التي يتخذ في كنفها الفعل المدروس دلالاته الممكنة. وإذن، فإن الفعل، من هذا المنظور، هو بمثابة جواب استراتيجي يقدمه فاعل يواجه مشكلة تطرحها وضعية معيشة معينة. ويفترض أن ما يعيشه هذا الفاعل يشاطره إياه فاعلون آخرون يواجهون وضعيات مماثلة.

** - نتحدث في هذه التقنية عن تفسير المعنى وليس عن فهمه أو تأويله؛ لأن المعنى الإجمالي للحالات المدروسة لا يتأتى لنا بفضل تأويل أو فهم كل حالة على حدة، بل بفضل المقارنة بين الحالات والوقوف على التناظر البنيوي العام فيما بينها.





1. مراحل التحليل المقامي الفينومينولوجي البنيوي

يتمفصل التحليل المقامي الفينومينولوجي البنيوي حول ست خطوات، وهي كالآتي:

1 – جمع عدد من الحالات

2 – انتقاء حالات تفصح عن تماثل عام؛ وذلك بفضل اللجوء إلى مقولات قبلية كبرى

3 – تفكيك الحالات التي تم انتقاؤها إلى وضعيات صغرى (ميكرو–تفاعلية) متماثلة بنيويا

4 – صياغة هذه الوضعيات الصغرى في عبارات مقتضبة، ووضعها في جدول تمثل أعمدته الوضعيات بينما تمثل خطوطه الحالات.

5 – تحليل الأعمدة واستخراج المعنى الكلي لكل عمود




6 – التحليل الإجمالي لمجموع الأعمدة، واستخراج المعنى العام الذي يتخذه سلوك الفاعلين داخل هذا النوع من الوضعيات.

2. مثال من سوسيولوجيا الفهم

لننظر إلى هذا المثال المقتطف من كتاب ج بيشلر (J. Baechler) (الانتحارات، 1975) (Les suicides, 1975) والذي يعالج الخطوات الثانية والثالثة والرابعة من التقنية. وتجدر الإشارة إلى أن الحالات التي سوف نعرض إليها ها هنا قد تم انتقاؤها مسبقا من بين عدد كبير من الحالات؛ نظرا لما تفصح عنه من تناظر على المستوى الإجمالي والعام.

<u>الحالة (1)</u>

ج. نادين البالغة من العمر 23 سنة هي طفل وحيد لأم أمنيتها أن تنجب ولدا، ولأب يعاني مرضا مزمنا. لم تعش نادين طفولة مستقرة، فقد قضت طفولتها







متأرجحة بين عائلة الأب وعائلة الأم. وحينما بلغت ربيعها العاشر، فارق أبوها الحياة. لكن نادين لا يبدو أنها قد تأثرت لفقد الأب أو تأسفت لغيابه. فقد كان أبوها قاسيا عليها، وغالبا ما كان يغيب عن البيت، ودونك المرض المزمن الذي كان يعاني منه.

وما كاد يمر العام الثاني على وفاة الأبحتى تزوجت الأم مجددا. ونادين التي كانت تعرف زوج أمها منذ مدة طويلة، لم تفاجأ بالأمر، ولم تعترض عليه، ولم يكن لديها في البداية أي موقف سلبي من الشريك الجديد. لكن موقفها سرعان ما سوف يتغير مع الأيام.

حينما كان يتراوح سنها بين 12 و13 سنة، كانت تعيش في بيت جدها وجدتها، وكانت تشعر حينها بالارتياح. كانت نادين متميزة نسبيا في دراستها، ومع ذلك رسبت في اجتياز المرحلة الأولى من الباكالوريا؛ لذلك عادت نادين لتعيش مع أمها بباريز، فتمكنت من اجتياز امتحانات المرحلة الأولى من الباكالوريا بنجاح لكنها، مع الأسف الشديد، لم تفلح في تخطي المرحلة الثانية من الباكالوريا؛ فالتحقت بالمدرسة النسوية متعددة التقنيات.




هي الآن في السنة الثالثة بالمدرسة النسوية متعددة التقنيات، تجد صعوبات جمة في المواصلة والنجاح، وتفسر إخفاقاتها المتتالية بالارتباك الذي غالبا ما يسيطر عليها أثناء اجتياز الامتحانات.

أمها التي تبلغ من العمر 41 سنة هي امرأة محبوبة. كانت في البداية ممرضة ثم صارت بعد ذلك مساعدة اجتماعية، والآن هي نائبة مديرة الموارد البشرية داخل معمل. وعلى ما يبدو فإن الوضعية الحالية تضم أما وابنتها من جهة وزوجا جديدا من جهة أخرى؛ فنادين لم تعد تتحمل المزاج الصارم والتحكمي للزوج الجديد، والذي يمنعها من الخروج مع الأصدقاء. هذا وقد حال دونها والحصول على غرفة في الحي الجامعي. لقد أصبحت نادين تتمنى أن تفترق أمها عن الزوج





الجديد، وحينما باتت تفقد الأمل، حاولت الانتحار حيث ابتلعت عددا من العقاقير دفعة واحدة. وعلى إثر ذلك، أصبحت الأم تفكر جديا في الطلاق.

الحالة (2)

س. جان يبلغ من العمر 15 سنة. فارق أبوه الحياة على عمر يناهز الأربع والثلاثين عاما بسبب مرض مزمن، فتزوجت أمه التي تبلغ من العمر 44 سنة بعد وفاة أبيه. لجان س. أخ في ربيعه الثامن عشر وأختان. قضى جزء مهما من طفولته بعيدا عن المنزل؛ فقد تركته أمه في البادية حتى بلغ سن الثانية عشر. كان جان س. يعاني من صعوبات كبيرة في الاندماج العائلي، وكان يشعر باستمرار أنه غريب وأنه ليس من أهل الدار.

صار س. جان متمردا وأضاع تعليمه، وبطريقة انتقامية صار يتبول في الفراش. لكن أمه وأخته واجهتاه بصرامة وهددتاه بوضعه في مؤسسة للمتأخرين عقليا. وعلى إثر حادث جديد، دخل إلى غرفته التي تقع في الطابق الخامس متربصا قدوم أخته. وحين شعر أنها تهم بدخول الغرفة، فتح أبواب النافذة وتهيأ للإلقاء بنفسه أرضا. لكن أخته تمكنت بسهولة من إخراجه من هذه الوضعية؛ فقد اتخذ كل احتياطاته كي لا يسقط؛ لأنه لم يكن في نيته أن يضع حدا لحياته. وفي الأخير، أخبر أخته أنه يفضل أن يضع حدا لحياته على أن يعيش حبيس أربعة جدران.

الحالة (3)

م. مارسيل، 49 سنة، عامل يدوي، هو آخر عنقود أسرة تتكون من 13 عضوا، تلقى تربيته في البادية وأكمل المشوار بعد ذلك في بيت أبويه. لكن حينما فارق أبوه الحياة، أصبح يعيش مع أحد إخوته.

الحالة (4)

هي امرأة شابة في ربيعها الثامن والعشرين، تمتهن الدعارة. وهي الآن في







مستشفى تتلقى العلاج؛ فقد أصيبت بتسمم عقب ابتلاعها عددا من العقاقير دفعة واحدة. هي ثالثة عنقود يتكون من ثمانية أبناء جميعهم كانوا ثمرة علاقات جنسية غير شرعية. اشتغلت خادمة في البيوت وسنها لا يتجاوز 14 سنة، لكنها تورطت في سرقة بعض الأغراض المنزلية، فتم وضعها في إصلاحية للأحداث. وفي سن السادسة عشر، تم نقلها إلى إصلاحية أخرى أكثر صرامة وتشددا؛ وذلك في أعقاب ما اقترفت يداها من عنف تجاه زميلة لها في الإصلاحية تقول أنها أثارت غضبها.

بدأت تستعمل الانتحار وسيلة للمساومة؛ حيث حاولت الانتحار خمس مرات أو ست على مرأى زميلاتها وحارسات الإصلاحية. ولما أفرج عنها في سن الثامنة عشر، امتهنت الدعارة وكانت النتيجة غير المرتقبة لهذا النشاط طفلا، وضعته لدى أمها وغادرت فرنسا باتجاه الداهومي مع رجل تقول أنه خطيبها.




وعلى إثر نزاع حاد مع عائلة خطيبها، حاولت الانتحار من جديد بعدما باحت داخل الكنيسة، كما هو معروف لدى المسيحيين، باعتزامها الانتحار.

تشتمل الحالات الأربع التي تم عرضها ها هنا على ثلاث وضعيات ميكرو-تفاعلية أساسية. وما يتعين على الباحث أن يقوم به في الخطوة التالية، هو وضع هذه الحكايات في جدول تمثل خطوطه الحالات، بينما تمثل أعمدته الميكرو-وضعيات.

يضم كل عمود من أعمدة الجدول وضعيات ميكرو-تفاعلية متماثلة فينومينولوجيّاً، وهو ما يسمح لنا باستخراج المعنى المشترك لهذه الوضعيات والتعبير عنه في صيغة مقتضبة.





الجدول رقم 7: **جدول الحالات والميكرو-وضعيات في التحليل المقامي الفينومينولوجي البنيوي**





الميكرو-وضعية (1)	الميكرو-وضعية (2)	الميكرو-وضعية (3)
ترغب أمها في إنجاب ولد طفولتها غير مستقرة (تارة لدى عائلة الأب وتارة أخرى لدى عائلة الأم) يفارق أبوها الحياة وهي في ربيعها العاشر	إخفاق مدرسي ومواجهة حادة مع الأب	التضييق عليها ومنعها من الخروج من البيت الحيلولة دونها والحصول على غرفة في الحي الجامعي الخوف من أن تخسر أمها بسبب كل هذه النزاعات
موت الأب قضاء مرحلة الطفولة في البادية إلى غاية بلوغ سن الثانية عشر صعوبة الاندماج العائلي	يصير متمردا يضيع تعلمه، ويتبول في فراشه	تهدده أمه وأخته بوضعه في مؤسسة للمتأخرين عقليا
هو أصغر إخوته سنا عاش مع أبويه قبل أن ينتقل إلى العيش مع أحد إخوته	تعاطى للكحوليات في سن مبكرة وهو الآن لا يكف عن شرب الخمر	تعاتبه زوجته باستمرار على كسله وتحذره من أن تسوء الأمور ويفوته الأوان للاستدراك
هي ثالثة إخوتها سنا، وكلهم ثمار علاقات جنسية غير شرعية اشتغلت خادمة في البيوت منذ سن الرابعة عشر ولجت الإصلاحية في سن السادسة عشر	تقترف السرقة وتمارس العنف على زميلتها في الإصلاحية تودع طفلها لدى أمها	نزاع مع عائلة خطيبها





• الوضعية (1): ماض عاطفي مضطرب وعلاقات غير مستقرة يطبعها التخلي

• الوضعية (2): مواجهة حادة ومتواصلة بين الشخص ومحيطه القريب

• الوضعية (3): يعيش الشخص حاليا تهديدا عاطفيا

بعد هذا التفكيك الفينومينولوجي البنيوي للحالات المدروسة، يصبح الباحث بمستطاعه أن يقرأ الوضعيات قراءة إجمالية جديدة، وفهم المعنى الذي تنطوي عليه محاولة الانتحار في مثل هذه الوضعيات. إن التناظر البنيوي بين الوضعيات الميكرو-تفاعلية هو ما يسمح بالحديث عن وضعية نموذجية إجمالية، يتخذ فيها الانتحار دلالته النهائية. وفي الحالة التي بين أيدينا، تظهر محاولة الانتحار باعتبارها **مساومة يقوم بها الشخص المعني تجاه محيطه القريب (العائلة) من أجل تفادي عقابا عاطفيا.**

III. التنظير المتجذر في معطيات الواقع*

1. تعريف

التحليل من خلال سيرورة تنظير متجذرة في معطيات التجربة الاجتماعية هو ضرب من ضروب التحليل الكيفي، عرف في أوساط البحث الاجتماعي بالتحليل من خلال عملية تنظير متجذرة. (Analyse par théorisation ancrée). ويسعى هذا النوع من التحليل إلى توليد تدريجي لنظرية في موضوع ثقافي أو اجتماعي أو سيكولوجي، وذلك بفضل تحويل معطيات إمبيريقية كيفية إلى مفاهيم، ثم ربط هذه المفاهيم بعلاقات مندمجة تتمتع بصلاحية وتنطوي على معقولية.

* - انظر كتاب:

Mucchielli, A., Dictionnaire des méthodes qualitatives en sciences humaines, Paris, Armand Colin, 3 édition, 2009, pp. 206-212





يعتبر غلازر وستروس (Glaser et Strauss) أول من استعمل هذه التقنية؛ وذلك في مقاربتهما المعروفة باسم :

(Grounded theory) (Glaser et Strauss, 1967 ; 2009)

لكننا نعتزم تقديمها إلى القراء في هذا الكتاب بطريقة مختلفة نسبيا عما نجده لدى كل من غلازر وستروس؛ وذلك للاعتبارات التالية:

1 – نريدها في هذا الكتاب منهجا لتحليل المعطيات أكثر من كونها منهجية بحث؛ أي استراتيجيا عامة تقود البحث وتحكم على عناصره بالاتساق النظري والعملي. ولعل هذا الأمر سوف يساعدنا، لا محالة، في الاستقلال نسبيا عن الاختيارات والتوجهات النظرية لكل من غلازر وستروس، كما سوف يمكننا من تكييف المنهج مع غايات مختلفة وجديدة، والابتعاد نسبيا عن المواضيع التي عالجها هذان الباحثان.




2 – ما يهمنا هنا أكثر ليس هو النظرية باعتبارها منتجا نهائيا للتحليل، وإنما التحليل نفسه باعتباره إنضاجا تدريجيا متواصلا لنظرية ما.

3 – بدل التركيز على تعدد السنن وتنوعه، نهتم هنا أكثر بعرض خطوات التحليل انطلاقا من العمليات المتتالية التي تسهم في انبجاس النظرية وتشكلها.

يتحقق التحليل الكيفي من خلال التنظير التدريجي المتجذر في معطيات الواقع في ست خطوات؛ بدءاً بالترميز (codification)؛ أي قراءة المتن واستخراج التيمات الأولى، وانتهاء بتحقق التنظير الذي يتم وفق استراتيجيات متعددة، مرورا باشتغال يمس في العمق أهم أداة في هذا التحليل؛ ألا وهي المقولة (la catégorie). ويتطلب هذا المنهج توافر كفايتين؛ إحداهما تتعلق بمهارات الاشتغال التقني على متن إمبريقي، والأخرى تتمثل في القدرة على بناء كيان مفهومي. الأمر الذي يتطلب الهبوط إلى أسفل باتجاه المتن من أجل فحص معطياته الإمبيريقية، في نفس الوقت الذي يسعى الباحث فيه إلى الارتقاء بالمقولات الأساسية للظاهرة المدروسة ورفعها



نحو الأعلى. هذا يعني أن منهج التحليل الكيفي عبر التنظير المتجذر في الوقائع له بعدان؛ بعد ملموس يهم مختلف الإجراءات التي تسمح بالاشتغال على المتن، وبعد مجرد يتطلب من الباحث أن يتمتع منذ الخطوة الأولى للتحليل بحس نظري. إنه منهج للتحليل يتزاوج فيه الحس النظري بالمهارات الإمبيريقية.

وكما يتضح جليا من خلال الاسم، فإن هذا المنهج يقوم أساسا على بذل جهد من أجل التنظير انطلاقا من الوقائع؛ ما يعني أن الباحث يجب أن ينسى كل ما تعلمه عن طبيعة العلاقة بين النظرية والتجربة كما تصورها العلم التجريبي، الذي يلزم الباحث بصياغة فروض ونماذج تحليل محكمة قبل النزول إلى الميدان من أجل التحقق التجريبي من صلاحيتها ودرجة دقتها؛ فلربما يتلاءم هذا التصور لعلاقة النظرية بالتجربة أكثر مع العلوم الطبيعية، بينما يكون منطق البناء النظري في العلوم الإنسانية والاجتماعية مختلفا تماما (Passeron, 1991).




ويعتبر مفهوم النظرية هنا أكثر تكيفا مع طبيعة السببية في العلوم الإنسانية والاجتماعية والتعقيد الذي يطبع الموضوع في هذه العلوم. وتجدر الإشارة إلى أننا نفضل استعمال التنظير (Théorisation) بدل النظرية (Théorie) لأن التنظير يشير إلى السيرورة وفي نفس الوقت إلى الخلاصة التي ينتهي إليها العمل التنظيري، على أنه لا ينبغي أن نغفل عن مسألة غاية في الأهمية، وهي أن خلاصة العمل التنظيري نفسها لا تعتبر في حد ذاتها نهاية وإنما، بالأحرى، الحالة التي توجد عليها سيرورة تنظير معينة في لحظة ما. باختصار، ليس التحليل الكيفي من خلال تنظير الوقائع تقنية نتحصل بفضلها على نتيجة، بل هو وصف لنشاط متواصل في الزمن ومساءلة مستمرة لمعطيات واقعية.

ومهما كانت الأهمية التي يكتسيها التنظير، يجب أن يظل ملتصقا دوما بمعطيات الواقع. فالعدة الإمبيريقية هي نقطة انطلاق عملية التنظير وهي، في نفس الوقت، المكان الذي يجري فيه التحقق من الفرضيات المنبثقة من المعطيات، وعندها ينتهي الاختبار الكلي للبناء برمته. إن التنظير لا ينبغي أن يفارق موضوعه





لحظة واحدة، بل ينبغي أن يتحقق ببطء وتأن، دون أن يضحي بثراء الواقع وتناقضاته ونشازه. والجهد الذي يتعين على الباحث أن يبذله من أجل ضمان توافق عملية التنظير مع المعطيات الإمبيريقية، يجب أن يظل متقدا يتمتع بكامل حيويته منذ بداية التحليل إلى نهايته؛ وهو ما يتحقق بفضل المقارنة الدائمة بين التنظير والواقع الإمبيريقي، والقدرة على الذهاب والإياب فيما بينهما باستمرار.

إننا ها هنا بصدد الحديث عن أهم خاصية تميز التحليل الكيفي من خلال تنظير الوقائع عما كان سائدا ومنتشرا في البحوث الميدانية التقليدية؛ فقد كان الباحث التقليدي يعمل أولا على صياغة إشكاليته بعناية فائقة قبل أن يتوجه إلى الميدان. وكان يفكك إشكاليته إلى سلسلة من الأسئلة الدقيقة التي يوجهها فيما بعد إلى مبحوثين من أجل التحقق من صدق فرضياته، مستعينا في ذلك بالمقابلات التي يكون قد أعدها سلفا. هذا بينما يسير التحليل الكيفي من خلال تنظير الوقائع في مسار لولبي يستدعي العودة دوما إلى الوقائع من أجل تجويد عملية التنظير؛ وذلك عن طريق الانخراط في لعبة قوامها تحسين عملية المفهمة وتطويرها من خلال تقريب المفاهيم إلى الوقائع وتنقيحها المستمر. وإذن، فإن هذه المنهجية لا تتحقق من خلال الاستعانة بمقابلات ثابتة ونهائية، بل يجب على الباحث أن يغير مقابلاته مع تقدم البحث؛ فبرنامج مقابلات لا يتغير يعني باحثا لا يتعلم شيئا.



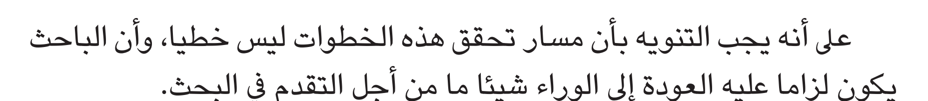


2. مراحل التنظير المتجذر في معطيات الواقع

يتمفصل التحليل الكيفي من خلال تنظير الوقائع حول ست خطوات أساسية، وهي:

1 – الترميز
2 – توليد المقولات
3 – إنشاء العلاقات
4 – الإدماج
5 – النمذجة
6 – التنظير





على أنه يجب التنويه بأن مسار تحقق هذه الخطوات ليس خطيا، وأن الباحث يكون لزاما عليه العودة إلى الوراء شيئا ما من أجل التقدم في البحث.

أ. التـرميز

لا يرفع التحليل الكيفي من خلال التنظير المتجذر دعوى إنتاج أحكام قطعية ونهائية، فهو يسعى إلى بناء معنى الظواهر المدروسة بعناية واحترام، ويساهم في مد الجسور بين المعاني التي يحملها المبحوثون على أفعالهم والمعاني التي يبنيها الباحث؛ وذلك من خلال حوار حذر ومتأن وملتزم بالقواعد الأخلاقية التي يتطلبها البحث في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية. فإذا كان الباحث هو، في نهاية المطاف، من يعود له الامتياز في التنظير واستخراج المعنى، فإن الفاعل، أولا وقبل كل شيء، هو من يتكلم. وإذن، فإن الامتياز الذي تمنحه هذه التقنية للباحث يتحول تجاه المبحوث إلى مسؤولية كبرى. لذلك يتعين على الباحث أن يتحلى بالحذر والتأني، وأن يختار صياغاته للوقائع بعناية فائقة مستعينا بعبارات أصيلة وأمينة؛ أي متطابقة قدر الإمكان مع ما يوجد حقا.

يعني الترميز (codification) قراءة المتن أو الاستماع إليه بتأن واستخراج أهم ما تشتمل عليه الشهادة أو الوضعية الملاحظة، لكن دون أن نسعى إلى الحكم عليها أو مفهمتها؛ فذلك ما سوف نقوم به في الخطوة المقبلة المتعلقة بتوليد المقولات.

يمكن أن يكون المتن من طبيعة غير خطابية كشريط فيديو مثلا. في هذه الحالة، يتعين على الباحث أن يقوم بالترميز من خلال التحكم بعناية في تشغيل الشريط وتقطيع مجريات الأحداث وتجزيئها، بحيث يكون الرمز متطابق مع المشهد أو الحدث.

سوف نقتصر هنا على تحليل معطيات تم الحصول عليها من خلال إجراء مقابلات، مع العلم أن منطق التحليل يظل هو نفسه بالنسبة لملاحظات تم



تسجيلها مباشرة من الواقع. يبدأ الباحث أولا بتفريغ المعطيات، وهي العملية التي إما أن تكون مجهدة حقا، وإما فإن الباحث سيؤدي عنها ثمنا باهظا وستكلفه منذ البداية ضياع جزء مهم من المعنى.

لنأخذ مثلا مقابلة استغرق إجراؤها ما يزيد على ساعة من الزمن، فربما تتحول بعد تفريغها إلى نص مكتوب في عشرين صفحة أو يزيد. يضع الباحث محتوى النص في الوسط تاركا هامشين على يمين الصفحة ويسارها، فيهما سوف يشتغل الباحث منجزا الخطوتين الأولى والثانية من التحليل؛ أي الترميز يمينا وتوليد المقولات الموافقة له يسارا. وذلك كما هو مبين في الجدول أسفله:

الجدول رقم 8: **ترميز قطع المعطيات في التحليل المتجذر في معطيات الواقع**




الترميز	محتوى المقابلة	المقولات
العمل من خلال التقيد الحرفي بالتعليمات	نحن لا نسلك في العمل كما نريد، ولا ننجز مهامنا بحسب تقديراتنا وما يبدو لنا صحيحا. نحن نتقيد بالتعليمات التي يوجهها لنا رؤساؤنا لأننا نخشى العقوبات التي تترتب عن عدم تقيدنا بالتعليمات.	تنشئة تنظيمية

يهدف الترميز إلى حصر ذلك السيل من الكلمات التي يدلي بها المبحوث بشان شهادة ما في عبارة شديدة الاقتضاب، مع الاحترام التام لفحوى الشهادة المدلى بها؛ بحيث يلتزم الباحث بتفريغها دون انقطاع أو تعليق في مشروع الأطروحة أو تقرير البحث. إن العبارات المقتضبة التي يتعين على الباحث أن يختارها بعناية لتمثيل عملية الترميز يجب أن تمكننا من عرض أهم ما يوجد في النص دونما الحاجة إلى قراءة المتن مرة أخرى.



إن التنظير المتجذر في الوقائع ليس تمرينا تقنيا أو وصفة جاهزة، بل هو طريقة لمساءلة الوقائع. وكل خطوة من خطوات التحليل يمكن أن نوجزها في بعض الأسئلة التي يوجهها الباحث لمتن المقابلة. وبالنسبة لخطوة الترميز، فإن الأسئلة التي يطرحها الباحث هي من قبيل: ماذا يوجد في هذه الفقرة؟ ماهذا؟ ماذا يقول المبحوث هنا؟

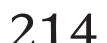
ب. توليد المقولات

على الرغم من أن الترميز يحمل بذور مفاهيم، وبعضها يكاد يصير مفهوما، إلا أن الباحث يكون ملزما بالرجوع إلى المتن نفسه عند مباشرة هذه الخطوة، وكأنه يخلق حوارا جديدا بين الرمز والنص الخام من أجل توليد المقولة.



يمكن تعريف المقولة باعتبارها كلمة أو عبارة مقتضبة تنطوي على قدر عال نسبيا من التجريد، تمثل ظاهرة ثقافية أو اجتماعية أو سيكولوجية تم التعبير عنها بواسطة خطاب ما. وتعتبر المقولة حجر الزاوية في التحليل الكيفي من خلال التنظير المتجذر في الوقائع؛ حيث إنها تمثل البداية الفعلية في سيرورة تشكل النظرية. فالمقولة تعتبر بمثابة اللبنة التي سوف ينهض بها وعليها البناء النظري برمته، وهي التي ستشكل مادة اشتغال الباحث، فبفضل تطويرها وتحديد أبعادها وخصائصها، يستطيع الباحث أن يتصور مختلف العلاقات التي يمكن ان تربط المقولات فيما بينها.

إن المهمة التي تضطلع بها المقولة ليست هي الوصف، ولعل هذا ما يميزها عن الرمز؛ فعبارة: «التقيد الحرفي بالتعليمات» التي وضعناها على يمين المقتطف في الجدول أعلاه تمثل الرمز، بينما تمثل عبارة: «تنشئة تنظيمية» (socialisation organisationnelle) المقولة. وكما يتضح جليا، فإن الرمز أكثر التصاقا بالشهادة المدلى بها، هذا فيما تقودنا المقولة إلى النظر بعيدا. إنها أكثر ثراء من الرمز وأفضل منه من حيث إثارة خيال الباحث؛ ولعل هذا ما يضفي عليها قوة وأناقة في نفس الوقت. وكما هو الشأن بالنسبة لجميع







خطوات التحليل الكيفي من خلال تنظير الوقائع، يمكن أن نلخص الخطوة المتعلقة بتوليد المقولات في جملة من الأسئلة البسيطة من قبيل: بماذا يتعلق الأمر هنا؟ نحن أمام أي ظاهرة؟ ومن خلال الإجابة عن هذا النوع من الأسئلة، نسجل المقولات في الهامش المقابل على يسار المتن.

قد يبدو الأمر مسليا، لكنه في الحقيقة غير ذلك، ففي هذه المرحلة إما أن يرتكز البناء على أساس صلب، وإما فإنه لن يكتمل أبدا أو سيرى النور في صورة مشوهة. فتوليد المقولات يمثل في الواقع نقطة انطلاق عمل طويل وشاق من بناء المفاهيم وتنقيحها وتعديلها حتى تتوافق مع المعطيات الإمبيريقية. لذلك يكون لزاما على الباحث أن يشتغل على مقولاته اشتغالا رصينا، فيلتزم في تعريفها بكافة شروط التعريف السليم، وهي الملاءمة والدقة والإيجاز، ثم العمل فيما بعد على تفكيك المقولة وتحديد خصائصها؛ أي عزل العناصر المتمايزة التي تدخل في تكوينها، وتحديد شروط وجودها والأشكال التي تتخذها؛ كأن تكون الظاهرة التي تعبر عنها المقولة ثابتة أو واعية أو تكون شديدة الكثافة، الخ.



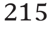
انطلاقا من هذه الخطوة، يصير التحليل أكثر تعقيدا وفي نفس الوقت أكثر فائدة. والثمار التي يجنيها الباحث على مستوى إثراء الوصف وبروز فروق دقيقة وصقل الفهم وتشكل الملامح الأولى للتنظير سوف تساعده، لا محالة، على تصور العلاقات الممكنة بين المقولات.

ت. إنشاء العلاقات

في هذه المرحلة، يعنى الباحث بإضفاء الطابع النسقي على التحليل. والأسئلة التي تراوده تكون من قبيل: هل ما يوجد هنا له علاقة بما يوجد هناك؟ ماهي طبيعة العلاقة بين المقولات؟ كيف تتحقق هذه العلاقة؟

وبما أن المقولة تمثل دوما ظاهرة من ظواهر الواقع، فإنه بإمكاننا أن نشتغل على مثال من أجل توضيح طبيعة المعالجة. فلنفترض أننا بصدد تحليل متن







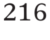
مقابلة تخللتها أكثر من مرة عبارات ثابتة ومتكررة تصف علاقة إستراتيجية بين رئيس ومرؤوسه داخل تنظيم ما (مقاولة مثلا). وأننا تمكننا من اختزال هذه العبارات وتكثيف مضمونها في مقولة واحدة هي «تحالف استراتيجي». يتعلق الأمر بمقولة معرفة بدقة وتشير داخل مقاولة ما إلى ارتباط بين مرؤوس في وضعية هشة لكنه حيوي ونشيط، ورئيس يحتل مكانة رفيعة في التنظيم لكنه مشغول على الدوام ولا وقت لديه يصرفه في معالجة المشاكل التي يطرحها العمل. في هذه الحالة نتساءل فيما إذا كان لهذه المقولة علاقة بمقولة «تنشئة تنظيمية»، التي يبدو أنها عامة وبمستطاعها أن تشمل أكثر من واقعة إمبيريقية، ويمكن تعريفها مؤقتا على أنها مجموع العمليات المتعلقة بتكييف سلوكات المرؤوسين كيما تتوافق ومعايير المقاولة وأهدافها.



يشتغل الباحث في هذه المرحلة على مستويين: الأول ملموس ومرتبط بالمتن، والثاني ينطوي على درجة معينة من التجريد ويرتبط بالظاهرة المدروسة. على المستوى الملموس، يرجع الباحث إلى المتن، ويرى فيما إذا كانت هناك علاقة بين المقولة (أ) والمقولة (ب) كما تمت صياغتهما للتعبير عن فقرات أو جمل داخل النص. أما على المستوى المرتبط بالظاهرة المدروسة، فيتعين على الباحث أن يطرح سؤال العلاقة التي يمكن أن تجمع بين ارتباط فاعلين فيما بينهما والتنشئة التنظيمية.

للمستوى الأول فضل كبير على منهج التحليل الكيفي من خلال التنظير المتجذر؛ فهو يحد نشاط التنظير بحدود العدة الإمبيريقية، ولا يسمح له بأن يحلق بعيدا عنها. وفي المقابل، يسمح المستوى الثاني بتخمين العلاقات الممكنة بين الظاهرتين. وهذا يعني أن منهجية التحليل من خلال التنظير المتجذر تسمح بالبحث عن العلاقات وتخيلها، في نفس الوقت الذي نعمل فيه بحرص على إيجاد سبل ربطها بالعدة الإمبيريقية.

إن إنشاء العلاقات هي العملية الأكثر تعقيدا في التحليل الكيفي من خلال







التنظير المتجذر؛ فلا ينبغي أن ننسى بأن لكل مقولة خصائص (Propriétés) تستجيب لشروط وجود معينة، وتتمظهر في أشكال مختلفة ومتنوعة. هذا وإن لكل خاصية أبعاد وذلك بحسب التعقيد الذي يطبع المقولة، وكل هذه العناصر يمكنها أن ترتبط فيما بينها بعلاقات.

لنعد إلى بحثنا الافتراضي، ولنفحص الظاهرة الممثلة بمقولة «تحالف استراتيجي». في هذه الحالة يبدو أنه بإمكاننا أن نتصور شكلين (Formes) لهذه المقولة: تحالف استراتيجي متفق حوله وتحالف استراتيجي مفروض. كما يمكننا أن نجرد أربع خصائص أساسية للشكل الثاني من التحالف وهي: 1- تحالف بمبادرة من مرؤوس مؤتمن على وضعيته أو رئيس يحتل مرتبة أعلى، لكن لا تأتي المبادرة في التحالف أبدا من مرؤوس في وضعية هشة 2- التحالف مطبوع بعلاقة غير متوازنة بين الطرفين وبادية للعيان 3- يكون التحالف شاقا بالنسبة للمرؤوس في وضعية هشة 4- لا يتمسك به المرؤوس في وضعية هشة إلا لأنه يسمح له بالبقاء داخل المقاولة والاستمرار في العمل.




وإذا ما توقفنا مليا عند الخاصية الثانية للتحالف الاستراتيجي المفروض، وهي اختلال العلاقة بين طرفي التحالف، سوف نجد أن لها أبعادا (Dimensions) من ضمنها بعد مهم يتمثل في «وعي المرؤوس في وضعية هشة باختلال العلاقة لصالح الرئيس». ويبين التحليل أن هذا البعد يظهر ويتطور مع تطور الزمن؛ حيث إن المرؤوس في وضعية هشة يصبح شيئا فشيئا واعيا باختلال العلاقة لحساب الرئيس، وشيئا فشيئا يكتسي هذا الوعي طابعا حادا ويصير، من ثمة مهددا، لعلاقة الثقة التي تسعى المقاولة إلى ترسيخها داخل العمل. يبدو، إذن، أنه بعيدا عن تعزيز التنشئة التنظيمية وتثمينها، يعمل التحالف الاستراتيجي المفروض بالمقابل على زرع بذور عدم الثقة داخل العمل. وبهذا نكون قد ربطنا مقولتين أساسيتين هما «التحالف الاستراتيجي المفروض» و«خلق جو من الثقة داخل العمل» بعلاقة تتغير حسب الزمن.



يمكن أن نفهم هذه الخطوة من التحليل جيدا إذا ما عرضنا مكوناتها في خطاطة إجمالية؛ حيث يتبين لنا كيف تنبجس مقولات أساسية وأخرى إجمالية خلال المحاولة التي يقوم بها الباحث من أجل البحث عن العلاقات. أما خصائص المقولات، فيبدو أنها ترتبط فيما بينها على التوالي في مستوى الخصائص الثانية. وتجدر الإشارة إلى أن «خلق جو من الثقة أثناء العمل» هي مقولة إجمالية بينما «تحالف استراتيجي مفروض» هو شكل خاص لمقولة إجمالية. وتفيدنا الخطاطة أسفله في وصف العلاقة التناقضية بين شكل التحالف ونوع التنشئة التنظيمية وتمثيلها على محور أفقي يمثل تقدم الزمن.

ث. الإدماج

نستطيع، بالتأكيد، أن نتصور المدى الذي يمكن أن يصل إليه تفكيك المقولات؛ فبقدر ما يتقدم الباحث في هذا المضمار، بقدر ما يكون مهددا بالضياع داخل متاهة التحليل، الذي يبدو ألا نهاية له. لمواجهة هذه المعضلة، لا ينبغي للباحث أن ينسى أن الغاية من التحليل ليست هي مفهمة حقل من الحقول، وإنما مفهمة ظاهرة من الظواهر. والسؤال الذي ينبغي على الباحث أن يطرحه هو: ما هي الظاهرة الرئيسية التي تنبجس خلال التنظير؟ وما دام التنظير ينبجس تدريجيا، فإن الموضوع، أو على الأقل جزء منه، ينبجس هو بدوره شيئا فشيئا.

في مرحلة الإدماج يكون الباحث أمام معضلة حقيقية؛ إنه يتواجد في لحظة يتقاطع فيها التحليل الذي يكتسب شيئا فشيئا مزيدا من التعقيد، وموضوع يلزمنا أن نجمع أطرافه ونحصر دلالته بشكل نهائي. والحال هذه، فإن الأسئلة التي يواجه بها الباحث المتن هي من قبيل: ما هو المشكل الرئيس؟ أنا أمام أي ظاهرة بوجه عام؟ ما هو، في نهاية التحليل، موضوع دراستي؟



نادرا ما يكون الجواب عن هذه الأسئلة، في مرحلة الإدماج، واضحا؛ فالأمر، على ما يبدو، يتطلب بذل جهد ملحوظ حتى تكتسي الدراسة طابعا مندمجا.









الشكل رقم 3: **طريقة إنشاء العلاقات في التحليل المتجذر في معطيات الواقع**

استراتيجيات للإدماج

مقولات

أساسية

ممارسات
تتعلق بالتنشئة التنظيمية

تحالف استراتيجي

مقولات

إجمالية

خلق جو من الثقة
أثناء العمل

تحالف استراتيجي
تفاوضي

تحالف استراتيجي
مفروض

أشكال

للمقولة

1 2 3 4

1 2 3





علاقة يظهر عليها
الاختلال بوضوح

خصائص

المقولة

ثلاثي العلاقات
التراتبية أثناء العمل

علاقة تناقضية

1 2 3

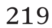
الوعي باختلال
العلاقة

أبعاد

الخصائص

الوعي المتزايد بعدم توازن العلاقة = تناقض يهدد التنشئة التنظيمية

محور الزمن







والباحث ينبغي أن يتحلى بحس مرهف تجاه القوى المهيمنة، والسيرورات الحاسمة، والرهانات الأساسية داخل الوضعية المدروسة. إن الإدماج يسمح بالحصر النهائي للموضوع ويمنح للدراسة، على نحو ما، عنوانها العريض. فإذا كان مشروع البحث، على سبيل المثال، يحمل في البداية عنوان: «دراسة الهشاشة خلال الشهور الأولى من ممارسة عمل جديد»، فإن التقرير النهائي يمكن أن يحمل عنوان: «خمس استراتيجيات من أجل البقاء والاستمرار داخل وضعية تنظيمية تطبعها الهشاشة». وكما يظهر جليا، فإن العنوان الثاني يعبر عن تمكن الباحث، خلال تطور الدراسة، من تحديد الظاهرة الرئيسة، التي تشكلت تدريجيا بفضل جهوده. فقد تبين له جليا أنه يعالج بالتحليل ما يمكن أن نطلق عليه: «استراتيجيات حفظ البقاء داخل التنظيمات».

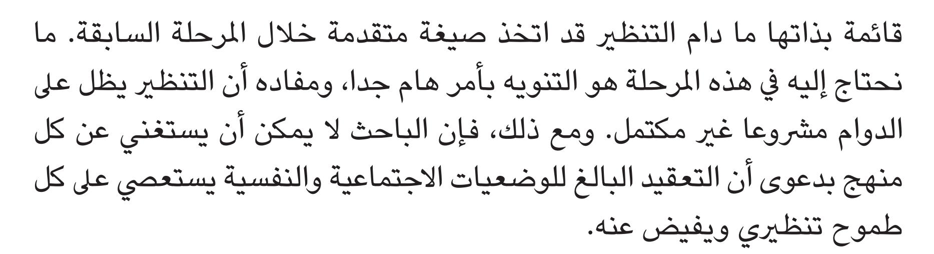
ج. <u>النمذجة</u>

تضعنا الخطوة السابقة أمام سلسلة جديدة من الأسئلة، تقع في مستوى رفيع من التجريد. فالتحليل سيرورة معقدة وشاملة، والعملية التي تفرض نفسها علينا في هذه المحطة هي نمذجة هذه السيرورة. يتعلق الأمر بإبراز الطريقة التي تنتظم بها العلاقات البنيوية والوظيفية المميزة للظاهرة المدروسة، والتي أطلقنا عليها اسم عملية الإدماج. وعلى غرار الخطوات السابقة، يمكن أن نعبر عن المهام التي ينبغي على الباحث أن يضطلع بها في هذه المرحلة بجملة من الأسئلة من قبيل: ما هي خصائص الظاهرة المدروسة؛ أي خصائص استراتيجيات حفظ البقاء داخل التنظيم؟ ما الذي يسبق هذه الظاهرة، فيكون لها بمثابة الشرط الضروري أو الممهد أو السبب؟ ما هي النتائج التي تترتب عن الظاهرة المدروسة؟ ما هي العمليات الأساسية التي تتحكم في الظاهرة؟

د. <u>التنظير</u>

أخيرا، يمكن الحديث عن عملية سادسة، وهي، في واقع الأمر، ليست عملية





قائمة بذاتها ما دام التنظير قد اتخذ صيغة متقدمة خلال المرحلة السابقة. ما نحتاج إليه في هذه المرحلة هو التنويه بأمر هام جدا، ومفاده أن التنظير يظل على الدوام مشروعا غير مكتمل. ومع ذلك، فإن الباحث لا يمكن أن يستغني عن كل منهج بدعوى أن التعقيد البالغ للوضعيات الاجتماعية والنفسية يستعصي على كل طموح تنظيري ويفيض عنه.

يبقى أن نشير إلى أنه بإمكاننا الاقتصار على الخطوات الثلاث الأولى؛ وهي استخراج التيمات وتوليد المقولات وإنشاء العلاقات، حتى نحصل على تحليل مهم وكاف لمتن من المعطيات بمعزل عن الأهداف والرهانات التي تقود عمل الباحث. وهذا إن كان يعني شيئا، فإنما يعني أن ما تبقى من الخطوات يتصل بغايات البحث وأهدافه ومراميه.




IV. التحليل النسقي للأفعال التواصلية

ينطوي منهج التحليل النسقي للأفعال التواصلية- كما يطرحه ألكس موكيلي- على خلفية إبستيمولوجية بنائية؛ فهو لا يدعي، بأي حال، تفسير حقيقة العلاقات الاجتماعية، أو إيجاد سبل تمكن الباحث من الوقوف وجها لوجه أمام الواقع الاجتماعي الخام. كما أنه لا يسعى إلى إقامة قطيعة مع الحس المشترك، وبناء الموضوع السوسيولوجي بعيدا عن الآراء المتداولة بين الناس. وهذا يعني أن الباحث ينبغي عليه أن يبتعد قدر الإمكان عن إبستيمولوجيا التحقق التجريبي؛ حيث لن يكون من المفروض عليه أن يهيئ نموذجه النظري بشكل قبلي، كي يختبر فيما بعد صدقه تجريبيا، بل سيعمل على نمذجة التفاعلات في نفس الوقت الذي يعمل فيه على إبرازها تدريجيا.

من مصادرات منهج التحليل النسقي للأفعال التواصلية أن التفاعلات اليومية التي نعبر عنها بفضل اللغة العادية لا تفتقد لكل أشكال التفكر، بل إنها تنطوي





في ذاتها على نظرية أولية محايثة للفعل، وما ينبغي على الباحث أن يقوم به هو إبداع التقنيات الكفيلة بإبراز هذه النظرية.

ويهتم منهج التحليل النسقي للأفعال التواصلية أكثر بالنمذجة؛ أي بالكيفية التي تنبثق بها النماذج؛ فهو يسمح بتتبع عملية تشكل الأنساق وبروزها، ولا يسلم بوجود أنساق وكليات سابقة على التفاعل. حتى إذا كان لا بد من الحديث عن حقيقة اجتماعية ما، فإن هذه الحقيقة لن يكون لها وجود في بداية العمل ولا في نهايته، وإنما في التخوم بين البداية والنهاية؛ أي في تلك العملية التي تميز الإنسان عن باقي الكائنات؛ والمتمثلة في قدرة الشخص على العودة إلى ذاته وإلى أفعاله باستمرار من أجل الحكم عليها والتفكير فيها، وهذا ما نسميه بالتفكر (la réflexion).

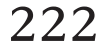


لقد ساهم ألكس موكيلي، من خلال إبداع وتطوير تقنية تحليل أنساق التواصلات، في ردم الهوة بين الترنسندنتالي والإمبيريقي؛ حيث أصبح بإمكاننا أن نتتبع أشكال التفكر الميكرو-اجتماعية، وكيف تساهم في خلق أشكال التفكر الماكرو-اجتماعية، بدل التسليم بوجود أنساق سابقة على الأفعال الفردية، وتقع خارجها.



1. أهداف ووسائل

يعتبر التحليل النسقي للأفعال التواصلية منهجا علميا؛ وهو كذلك، لأنه نشاط ذهني يهدف إلى الكشف عن طريقة ما لفهم التبادلات. ويستلزم هذا النشاط إعمال عدة نظرية خاصة تتمفصل حول مبادئ، ومفاهيم، وتقنيات ثم قواعد للتأويل. أما الهدف النهائي الذي يتوخاه هذا المنهج، فهو الكشف عن كليات من أشكال التبادلات الدالة، والمساهمة في حل المشاكل التي تطرحها هذه الكليات بعد فهم إواليات اشتغالها.





إن فهم ظواهر التواصل هو الهدف الذي يتغياه منهج التحليل النسقي للأفعال التواصلية. ومن أجل تحقيق هذه الغاية، ينبغي على الباحث أن يعمل على التأليف بين الفاعلين، والمبادلات التي يقومون بها داخل وضعية معينة. ويسمى هذا التأليف أو التنظيم الخاص للمبادلات بين الفاعلين نمذجة (modélisation). إنه مصطلح يشير إلى فاعلية ما؛ حيث ينخرط الباحث في عملية النمذجة من خلال الملاحظة، وتحديد أنماط المبادلات، والقيام بخطاطات، والبحث عن الدلالات، وفي الأخير القيام بتأويل إجمالي للخطاطة النهائية.

2. السياقية النسقية

يندرج تحليل أنساق التواصل في إطار الدراسات الكيفية، ويهتم بالدراسة العلمية للسياق التواصلي؛ فهو تقنية كيفية من جهة، لأنه يبحث في دلالات، ومعاني التبادلات، ثم ينتهي في الأخير إلى إضفاء معنى نهائي على نسق التبادلات المنبثق. وهو علمي من جهة أخرى، لأن الشخص الذي يبني السياق الذي يحتضن دلالات ومعاني المبادلات، ويتخذ فيه النسق معناه النهائي، محلل يقع خارج نسق المبادلات.




إن إعمال طرق محددة ومقننة وقابلة للتكرار من أجل صياغة السياق الذي يمنح للتبادلات دلالات خاصة، هو ما يضفي على هذه التقنية طابع العلمية. فالسياق موضوع الدراسة هنا ليس معطى إمبيريقيا مباشرا، بل إنه يقتضي بناء وصياغة منهجية. وحالما يصير بناء، يصبح هو الأساس الذي يقوم عليه أي فهم للظواهر؛ ما دام أن الدلالات والمعاني، مثلما هو الشأن بالنسبة لكل منهج تأويلي كيفي، ليست معطيات، وإنما هي سيرورات انبثاقية تبرز بفضل هذا العمل المضني الذي يقوم به الباحث، من أجل رد الظواهر إلى أنساق.



3. باحث بحس نظري

حتى يتمكن الباحث من كشف السياق النسقي للتواصلات، ينبغي عليه أن يتوفر على حس نظري تركيبي؛ أي أن يكون قادرا على رؤية الأشياء في صورة كلية، وأن يدخل في اعتباره فاعلين يبدو، للوهلة الأولى، أنهم بعيدين عن التأثير أو التأثر بالظاهرة المدروسة. هكذا، ينبغي على الباحث أن يؤطر التبادلات على نحو موسع إن على مستوى الزمان أو المكان، وأن يتجاوز ثنائية مرسل/ متلقي، التي، باقتصارها على دراسة التبادل بين فاعلين اثنين وفي لحظة واحدة، تختزل التحليل وتحصر التأويل ضمن شروط ضيقة جدا.

ويقتضي سياق التبادلات النسقية، بعد ذلك، أن يتوجه الباحث نحو البحث عن أنساق للتبادلات؛ إذ من المفروض أن ينطلق الباحث، في هذا الموضوع، من مبدأ أساسي يفيد أن المبادلات بين الفاعلين تميل عادة إلى التكرار، وتعمل في الغالب ككلية طقوسية، لاسيما داخل الجماعات المغلقة نسبيا.





4. منهج بنائي

إن وضع التواصلات في إطار سياق نسقي هي مسألة بناء، أو إنشاء ل «واقعة علمية». والظواهر التي يسمح لنا هذا البناء بتحليلها، تستلزم طريقة عقلية تصبح منذئذ منهجا يحظى بإجماع الباحثين. والجدير بالذكر أن هذا المنهج، يترك مجالا للتقويمات التقنية، سواء كان ذلك على مستوى الملاحظة، أو على مستوى التحليلات، والتأويلات التي تتخذ طابعا كيفيا بامتياز.

5. مبادئ عامة للمقاربة النسقية

تندرج المقاربة النسقية في إطار سوسيولوجيا الفهم عموما. لكنها، وطلبا لمزيد من العمق، تضيف للأساس الأكسيمومي لسوسيولوجيا الفهم خمسة





مبادئ، من شأنها أن توفر لنا شروطا للملاحظة، والتأويل أكثر دقة مما توفره لنا المبادئ القاعدية العامة للفهم.

أ. المبدأ النسقي: لا وجود لظواهر معزولة عن بعضها البعض.

ب. مبدأ التأطير: لا يمكن فهم ظاهرة ما إلا من خلال تأطيرها ضمن كل معين. فهذا التأطير هو الذي يسمح لنا بتحديد الفاعلين، الذين ينبغي أخذهم بالحسبان أثناء التحليل.

ت. مبدأ أولوية السياق النسقي: تتخذ الظواهر المدروسة معانيها داخل السياق المشكل من النسق نفسه.

ث. مبدأ العلية الدائرية: توجد الظواهر المدروسة داخل لعبة معقدة من التبادلات، تستلزم أفعالا وردود أفعال




ج. مبدأ استقلالية النسق: يتشكل النسق بفضل قواعد خاصة هي التي تتحكم في التفاعلات بين عناصره، وتزود النسق بمنطق عام يشكل مصدر قوته وإعادة إنتاجه. هذا المبدأ يضع المقاربة النسقية على أنقاض التحليل التاريخي.

6. مبادئ المقاربة النسقية للأفعال التواصلية

عندما يتعلق الأمر بتطبيق المقاربة النسقية على ظواهر التواصل الإنساني، فإن الباحث يكون في حاجة إلى إضافة مبدأين اثنين على المبادئ الخمسة، التي تشكل القاعدة الأكسيومية للمقاربة النسقية وهما:

أ. مبدأ طبيعة التواصل قيد الدراسة

يكون التواصل أثناء التحليل النسقي للتواصلات صريحا؛ أي معبرا عنه في شكل نمط تبادل دال. ومن شروط صلاحية هذا النمط التبادلي، أن يكون قادرا على إدراج عدد مهم من المضامين التجريبية الملاحظة إمبريقياً في إطار دلالة واحدة.





ب. مبدأ رجعية الألعاب التفاعلية

عندما نكون بصدد معالجة الجماعات البشرية المغلقة نسبيا، مثلما هو الشأن بالنسبة لمجموعات العمل أو التنظيمات، فإن دراسة الظواهر التواصلية تتمثل في كشف شكل من أشكال السيناريوهات، أو الألعاب المتكررة والراجعة.

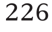
يظهر من خلال هذين المبدأين كيف أن المنهج النسقي المطبق على موضوع التواصل، يكمل المقاربة النسقية، وينجم عنها في نفس الوقت. فالمنهج النسقي يتأثر دائما بحقل الظواهر المدروسة.

7. خطوات تقنية التحليل النسقي لسياق الأفعال التواصلية




- الخطوة الأولى: تستمد هذه الخطوة أساسها من المبدأ الثاني؛ حيث ينبغي على الباحث أن يحدد إطار الملاحظة، أو الدراسة بصفة عامة. وذلك بما يتلاءم والمشكلة المطروحة. فهناك دائما ترابط وثيق بين الإشكالية والتأطير. وهذا يعني أن المشكلات التي يتم معالجتها ينبغي أن تكون في حدود ما يتوفر لدينا من شروط للملاحظة، مثلما يعني أن إطار الملاحظة نفسه، والشروط التي تتوفر لدينا لإنجاز البحث تتحدد بدورها بطبيعة الإشكالية المطروحة. باختصار، تعترض الباحث صعوبة كبيرة من أجل الحصول على إشكالية جيدة وإطار جيد للدراسة؛ إذ ينبغي عليه القيام بعمليات ذهاب وإياب بين الوضعية الإمبيريقية، وشروط المفهمة، من شأنها أن تتيح لنا أخذ ظاهرة الارتجاع بالاعتبار.

- الخطوة الثانية: تستمد هذه الخطوة أساسها من المبدأ الأول. فطالما أن الظواهر المدروسة لا توجد معزولة عن بعضها البعض، فإن على الباحث أن يسير في اتجاه الكشف عن النسق، الذي من المفروض أن يشكل، في الأخير، الحقل الدلالي الذي تستمد منه الظاهرة المدروسة معناها. وهذا يعني أن الباحث ينبغي عليه أن يميل باستمرار إلى البحث عن العناصر الأخرى للنسق؛ وذلك من خلال القيام





بعمليات ذهاب وإياب بين الملاحظات التي يقوم بها في الميدان، والنسق الذي يعمل على بنائه، والذي يكون دائما قيد التشكل طالما أن الدراسة لم تكتمل بعد.

إن الملاحظات التي يقوم بها الباحث في الميدان لا تقتصر على جمع معطيات خام، وإنما تكون دائما موجهة بالنسق الذي هو قيد الاكتمال. وبالتالي فعلى الباحث أن يضع الملاحظات في إطار دارات، أو حلقات تفاعلية، والبحث عن التناسق. ولن يتأتى ذلك للباحث إلا بالاستعانة بالنمذجة النسقية. وبالتأليف بين مختلف النمذجات الفرعية، يتوصل الباحث إلى صياغة خطاطة تشمل جميع عناصر التفاعلات.





- الخطوة الثالثة: تستمد هذه الخطوة أساسها من المبدأ السادس، وهي متضمنة في الخطوة الثانية. وتفيد أن التواصلات، التي نكشف عنها من خلال النمذجة النسقية، تعتبر بمثابة مقولات؛ أي أنماط تبادل راجعة دالة.

وأثناء إنجازه لهذه الخطوة، تعترض الباحث صعوبة منهجية؛ إذ يكون لزاما عليه أن يحمل التبادلات في مقولات تستمد معناها من كلية النسق، هذا الأخير يكون قيد التشكل. ومن ثمة، فنحن لا نتوصل مباشرة إلى الدلالة التي تتخذها المبادلات داخل النسق، طالما أن هذه الدلالة- وانسجاما مع المبدأ الثالث- تنبثق انطلاقا من تعالق عناصر الكلية النسقية.

ولتجاوز هذه الصعوبة، ينبغي على الباحث أن يلتزم بالقيام بعمل ذهني تقويمي متكرر، ومستمر بين النتائج الملاحظة ومقتضيات إتمام النسق.

- الخطوة الرابعة: تندرج هذه الخطوة ضمن الخطوة الثانية (النمذجة) والخطوة الثالثة (تنميط أشكال التبادل). ففي نفس الوقت الذي نقوم فيه بإنجاز النمذجة النسقية، نكون مضطرين إلى إعادة تشكيل الدارات السببية، وتفسير قواعد اللعب التي يظهر أنها تكمن خلف تشكيل هذه الدارات.





- الخطوة الخامسة: تستمد هذه الخطوة أساسها من المبدأ السادس؛ ويتعلق الأمر بتأويل مجموعة المعطيات، التي تم تنظيمها عن طريق النمذجة النسقية. وذلك من أجل كشف المنطق العام للعبة.

- الخطوة السادسة والأخيرة: تعتبر هذه الخطوة تتويجا لمجموع الخطوات السابقة، فهي تستمد أساسها من مجموع البناء الذي توصلنا إليه، انطلاقا من الاستعانة بالنمذجة، وتفسير الدارات السببية، وصياغة منطق اللعبة، وإعادة الصياغة النهائية لأنماط التبادلات الدالة، التي تتيح لنا إمكانية فهم كيف يعمل النسق. هكذا نتمكن من فهم الرهانات العميقة للفاعلين، وتقدير مدى تورطهم في دينامية النسق. وجدير بالذكر أن هذا النوع من التفكير يفضي في النهاية إلى طرح فرضيات، تمكننا من التدخل من أجل تطوير النسق.






الفصل التاسع

الكتابة في البحث الكيفي

I. قبل الشروع في الكتابة

1. الفئة المستهدفة
2. شرط الكتابة
3. اختر فكرة مركزية
4. الشروع في الكتابة

II. مكونات التقرير النهائي للبحث الكيفي

1. العنوان
2. الملخص
3. المقدمة
4. الدراسات السابقة
5. المنهجية
6. عرض النتائج ومناقشتها
7. الخلاصة







كيف يمكن للباحث تنظيم مقاله أو تقريره أو كتابه؟ هناك طرق متعددة للقيام بذلك، وتختلف هذه الطرق باختلاف أهداف البحث والفئة المستهدفة. يقول روبيرت ستايك[1]: «يمكن تنظيم الكتابة بأي طريقة تساعد القارئ على فهم الحالة». بيد أنه لأغراض بيداغوجية يمكن تحديد نموذج معياري تتبعه معظم البحوث الكيفية. لكن يجب أن نتذكر دائماً أن هذا النموذج طريقة للكتابة متفق عليها بين الباحثين، ويمكن لهذا النموذج أن يتغير تبعاً لاتفاقات الباحثين حول معايير جديدة.

ينبغي للباحث الكيفي أن يشرع في الكتابة منذ المراحل الأولى لعملية البحث. إن عملية الكتابة في مشروع ما تقتضي عملا تحليليا إضافيا، ويمكن لهذا الشكل من «التحليل بواسطة الكتابة» أن يوضح التيمات والأنماط المنبثقة، وأن يوفر الاتجاهات التي يجب اتباعها في عملية جمع المعطيات اللاحقة. ويمكن للكتابة الأولى أن تحسسك بلغة المبحوثين وأن تزيد من درجة ألفتك مع المعطيات. هذه الكتابة الأولى يمكن أن تجد لها مكانا في تقريرك النهائي.

I. قبل الشروع في الكتابة

ينبغي للباحث أن يتبنى إستراتيجية تتكون من أربعة مراحل للشروع في كتابة مقاله العلمي نعرضها فيما يلي:

1 – Stake, R.E., The Art of Case Study Research, London: Sage, 1995, p. 122.





1. الفئة المستهدفة

ينبغي لك قبل الشروع في الكتابة أن تعرف طبيعة القراء الذين تتوجه لهم بإنتاجك الفكري: إنهم في الغالب الجماعة العلمية التي تشكل قراء المجلة المتخصصة. إنهم مساهمون متميزون في عملية الكتابة. تؤكد كل التنظيرات للدراسات العلمية برمتها على أن الجمهور الذي نوجه له كتاباتنا يؤثر في هذه الكتابات. لذلك فإن توجهنا للجماعة العلمية يفرض علينا احترام قواعد الكتابة المتفق عليها بين أعضاء هذه الجماعة: الانتقال من الدراسات السابقة إلى المناهج ثم النتائج وأخيراً المناقشة الختامية. إن معايير الكتابة المتفق عليها في التخصص تمكن القراء من أن يعتبروا عملنا صادراً عن أحد أعضاء الجماعة العلمية. وبالمقابل، يمكن للإعراض عن استعمال هذه الأشكال والصيغ القائمة أن يحرم عملنا من يدخل المنتدى المهني[2].



ينبغي ألا يغيب عن بالنا أيضا أننا نتوجه بأعمالنا المكتوبة إلى جمهور من الباحثين والخبراء والعلماء الذين يهتمون بعملية أو ظاهرة أو نظرية محددة في حقلنا المعرفي. ذلك أن السوسيولوجيا الدينية، ككل التخصصات السوسيولوجية الأخرى، تتكون من مجموعات من الباحثين الذين يهتمون بظاهرة أو فكرة أو مقاربة معينة: فمنهم من يهتم بالعبادات، أو المعتقدات، أو بهما معا، أو بالروحانيات، أو بالخير والشر في المتون الدينية، الخ؛ وهناك من يهتم بالدين المقارن، أو بعلاقة الدين بالسلطة، أو بالدين الرقمي، الخ؛ وهناك من يعالج الحياة الدينية انطلاقاً من مقاربة وضعية، أو بنائية، أو تأويلية، الخ. والحال أن مقالنا يكون موجهاً لواحدة من هذه المجموعات أو ربما لمجموعتين.

2 – Lyne, J., «Angels in the Architecture: A Burkean inventional Perspective on 'Spandrels'», In J. Slzer (Ed.), Understanding Scientific Prose, Madison: University of Wisconsin Press, 1993: 144–158.







وبالنظر إلى أن ما يتوفر لدينا من معطيات ميدانية ورؤى ومعاني يكون كثيراً جداً، ولأننا لن نستطيع استغلال كل هذه الأشياء في مقال مخصص للنشر في مجلة، يجب علينا أن نتساءل: لمن نكتب؟ يجب أن تكون المعاني التي نختار تطويرها وصياغتها في مقالنا موجهة بشكل مباشر لفئة محددة من جمهور القراء. هذه الفئة من القراء التي تتكون في معظمها من الباحثين المتخصصين تهتم بالكيفية التي ترتبط بها تفاصيل الحياة الدينية مثلا بنظرية محددة. فعندما نكتب في واحد من المجالات البحثية المذكورة أعلاه، فإننا نستعمل النقاشات التي دارت بين الدراسات السابقة حول الموضوع من أجل موضعة دراستنا في هذا النقاش الخاص. لكننا لا نسعى فقط إلى التنصت على هذه المحادثة[3]. بل إننا نريد أن نخلق لأنفسنا مكاناً لكي نقدم مساهمتنا الخاصة.

وبالإجمال، يجب علينا قبل الشروع في الكتابة أن نتذكر إشارة داي[4] إلى أن القارئ سيتعامل مع نصنا انطلاقا من ثلاثة أسئلة: هل النص مهم؟ هل سأفهم محتواه؟ هل يمكن لي أن أستعمله؟ لذلك ينبغي لنا أن نضع أنفسنا محل القارئ وأن نطرح هذه الأسئلة.

2. شرط الكتابة

إن شرط الكتابة في البحث السوسيولوجي، كما هو في كل الممارسات العلمية، هو الحقيقة. فالغاية من البحث العلمي هو أن يصور الوضعية المدروسة. لكن هذا التصوير هو بناء نظري للواقع. فلم يعد هناك كثير من الباحثين يعتقدون أن الباحثين يذهبون إلى الميدان لجمع قطع الواقع التي تنتظر من يلتقطها. لذلك فإن الكتابة الأكاديمية ليست نقلا للواقع الموضوعي (التجريبي). وعلى هذا الأساس، فإن الباحث يقوم بتجربته الميدانية ببراعة من أجل المساهمة في إغناء النظرية، أي

3 – Becker, H., Writing for Social Scientists, Chicago: University of Chicago Press, 1986.

4 – Day, A., How to Get Work Published in Journals, Aldershot: Gower, 1996.





لصنع الفارق في الأدبيات المتعلقة بالموضوع المدروس.

لا يمكن اعتبار المقال البحثي معرفة علمية حتى وإن قدم قصصاً متماسكة تشير إلى مساهمة نظرية معينة. بل يجب أن يحظى من طرف الجماعة العلمية بوضع معرفة علمية، وذلك على أساس ما يتميز من صدق وأهمية. فما يعتبر معرفة إذن يتوقف على إجماع أعضاء التخصص[5]. فاعتبار البحث معرفة علمية أم لا يتوقف على إدراجه لاحقاً في التقارير البحثية كجزء من الأدبيات التي تلخص ما نعرفه عن الموضوع المدروس. ولا يمكن لبحث أن يعتبر مساهمة في المعرفة العلمية إلا إذا تم الاستشهاد به واستعملت نتائجه في دراسات لاحقة. وإذا ما اعترض عليه العلماء اعتراضاً جذريا أو تم تجاهله، فإن ادعاءه العلمية يكون باطلا[6].

3. اختر فكرة مركزية

إن ما يهمنا أثناء تحرير مقالنا ليست هي المعطيات الكيفية التي جمعناها من الميدان، وليست هي الجداول التحليلية التي أنتجناها بعناية، وإنما هي الأهمية التي تحظى بها هذه التفاصيل المتعلقة بتنظيم الحياة الاجتماعية بالنسبة لظواهر وعمليات ونظريات أوسع. لا وجود لقطعة من المعطيات قادرة على أن تكشف عن معناها وأهميتها بذاتها.

عندما نكون بصدد الاشتغال على الملاحظات الميدانية ومتون المقابلات والمذكرات التي نوثق وننمط بها تجربتنا في الميدان، فإن ما نفعله هو التفكير في هذه التجربة بهدف استخراج معناها والحصول على بعض الرؤى المتبصرة عن

5 – Latour, B., Science in Action: How to Follow Scientists and Engineers through Society, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1987.

6 – Winsor, D., «Constructing Scientific Knowledge in Gould and Lewontin's 'The Spandrels of San Marco'», In J. Selzer (ed.),Understanding Scientific Prose: 127–143, Madison: University of Wisconsin Press, 1993.





ظواهر وعمليات ونظريات معينة. فنحن أثناء قيامنا بهذا المجهود نفكر في تجربة الميدان في علاقة بوضعيات أخرى يمكن مقارنتها بها، وفي علاقة بما قاله باحثون آخرون عن وضعيات مماثلة. كما أننا نفكر في نظريات أخرى على ضوء تجاربنا الخاصة. فنحن لا نكتب كل ما رأينا أو سمعنا أو ما قيل لنا. بل إننا نكتب ما قادنا تفكيرنا ومقارنتنا إلى الاعتقاد أن تجربتنا الميدانية تعنيه بالنسبة لفهمنا.

حتى عندما نحدد معنى عملنا الميداني ونستخرج منه الرؤى المتبصرة، تظل الصعوبات قائمة، وخصوصا عندما نكتب مقالا لمجلة متخصصة. إن معطياتنا تتضمن عدة قضايا تبدو لنا مهمة وتستحق أن تقال. لكن لا يمكن أن نتحدث عن كل المعاني والرؤى التي حددناها بالنظر إلى إكراهات مساحة النشر في المجلات. لذلك نكون مضطرين إلى القيام باختيار. إذ يجب أن نتخلى عن بعض أبعاد تجربتنا البحثية التي رغم أهميتها وارتباطها بتجارب الحياة الميدانية لا تساعدنا في تطوير المعاني والرؤى الخاصة التي اخترنا الكتابة فيها.

تشدد مريم شارن[7] على ضرورة اختيار فكرة مركزية للمقال. وتتمثل هذه الفكرة عادة في الأطروحة التي يسعى المقال إلى الدفاع عنها من خلال البرهنة على صدقها. وتستخرج الأطروحة في الغالب من الفرق أو التعارض القائم بين ما تقول نظرية معينة أو بحث سابق أنه سيحدث في وضعية محددة وما يحدث بالفعل.

إن الفكرة المركزية «تطرح هدفاً ثم تنفذ الالتزام. إن طرح فكرة مركزية يعني اتخاذ قرار بخصوص ما تريد أن تقوله للقارئ. ويجب عليك أن تكون قادراً على طرحها في جملة أو جملتين»[8]. فالفكرة المركزية إذن تتوقف على الجمهور

7 - Sharan, B. M., Qualitative Research. A Guide to Design and Implementation, San Fransisco: Jossey-Bass, 2009, pp. 240-241.

8 - Bogdan, R. C. and Biklen, S. K., Qualitative Research for Education: An Introduction to Theories and Methods, Boston: Pearson, 2007, p. 199.





المستهدف والرسالة التي يريد الباحث تبليغها. وباختصار، إن الفكرة الأساسية هي تلك الكلمات التي نكمل بها الجملة التالية: «إن هدف هذه الدراسة هو...»

4. الشروع في الكتابة

يقول الكاتب البريطاني جين فولر: «إن الكتابة أمر سهل؛ كل ما عليك القيام به هو الجلوس إلى ورقة فارغة إلى أن تتشكل قطرات الدم على جبهتك». ويقول الكاتب كورت فونغات: «ليس للكتابة متعة جسدية. لا يريد جسدك أن يجلس لمدة طويلة. معظم الناس لا يريدون البقاء لوحدهم كل ذلك الوقت». تبدو الكتابة إذن عملا شاقاً. إن إعداد التقرير النهائي للبحث الكيفي يتطلب وقتا أطول مما يتطلبه البحث الكمي.

إذا كنت قد أعددت مقترحاً قبل الشروع في البحث، فإنه يتضمن معلومات مهمة بالنسبة لتقريرك النهائي: يمكن لعرض المشكلة أن يصبح أساس مقدمتك، ويمكن توسيع الجزء الخاص بالمناهج ليشمل تفاصيل عمليات اختيار العينة وجمع المعطيات.




تكون قبل الشروع في الكتابة أمام هم هائل من المواد الخام التي يمكن أن تشمل ملفات منظمة من الملاحظات الميدانية والمقابلات المنسوخة والوثائق المكتوبة والمواد المرئية. كل هذه المواد تمثل اللبنات التي ستشيد بها مقالك العلمي. يجب أن لا يغيب عن ذهنك أنك سوف لن تستعملها كلها من أجل بناء استدلالك، وإلا فإنك ستصاب بالإحباط، الشيء الذي يمكن أن يدفعك إلى التخلي نهائيا عن الكتابة.

إذا أردت أن تنجز بحثاً كيفياً، يجب عليك أن تعلم أن الأفكار لا تصاغ بشكل مصقول في رأسك منذ البداية. فالباحثون الكيفيون يعثرون على المعنى بواسطة كتابة المعنى. فلا تخف من ألا تكون الجمل التي تكتبها جميلة ومتناسقة. اكتف في البداية بوضعها في الورق. فإن أمضيت وقتا طويلا في التفكير ستكتبه، منتظراً





أن يبنى في ذهنك النص المتكامل المنشود، ستكون مثل النحات الذي يصنع عجينة الطين ويضعها جانباً في انتظار أن تكتمل في عقله صورة التحفة الفنية في كمالها. فكلنا يعلم أن العجينة ستجف وتتيبس، وأن النحات سوف لن يبدع التحفة التي يريد. إن الاستدلالات المتماسكة والتوضيحات الجيدة تنشأ من جمل «غير متماسكة»، ويأتي النص المصقول بعد تحرير «المسودة الأولى».

إن فعل الكتابة نفسه ينتج شيئاً ما نظراً لأن الكتابة نوع من التفكير. إنه «عملية اجتماعية متكررة تمكّن الكُتّاب من تطوير أفكارهم وتوضيحها وتحسن تواصلهم من خلال مراحل متعاقبة تتمثل في صياغة الفكرة والارتجاع والمراجعة»[9]. ويضيف لوفلاند وزملاؤه أنه «بمقدور **الكتابة كنشاط جسدي** أن تعطي شكلا للفكرة المركزية وأن تبلور ما أنت بصدد محاولة قوله، بل ويمكن أن تنتج أفكاراً متبصرة من شأنها أن تولد ما تريد قوله بخصوص شيء ما بطريقة لم تكن تتوقعها». ولهذا السبب يعتبر داي الكتابة «أداة أخرى في علبة أدواتنا التحليلية»[10]. إن الكتابة تساعدنا على معرفة ما نفكر فيه، وكذا على معرفة الثغرات والنواقص التي تعتري بحثنا. لذا ينبغي لك كباحث سوسيولوجي أن تكون مستعداً لتقبل الفكرة التي مؤداها أنك إن كنت لا تكتب بشكل جيد، فمعنى ذلك أن أفكارك غير جاهزة بعد للتعبير عنها في كلمات.

يؤكد جون لانغان[11] على أن فعل الكتابة هو في الحقيقة عملية اكتشاف. إذ يعتقد الباحثون المبتدئون عن خطأ أنه يجب أن تتدفق الكتابة بطريقة خطية واضحة وبسيطة من رأس الكاتب إلى صفحات الورق. بيد أن الكتابة عملية

9 – Lofland, J., Snow, D., Anderson, L. and Lofland, L. H., Analyzing Social Setting..., op. cit., p. 222.

10 – Dey, I., Qualitative Data Analysis, London: Routledge, 1990, p. 237.

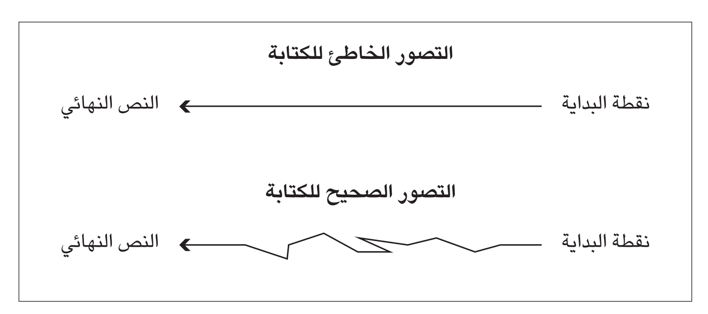
11 – Langan, L., Exploring Writing. Sentences and Paragraphs, 2nd ed., New York: McGraw Hill, 2008, p. 12.





اكتشاف تتضمن مجموعة من الخطوات التي تسير في خط كثير التعرجات، تبدأ بمسودة أولى يمكن أن تنتج عنها مسودات أخرى قبل أن تكتسي شكلها النهائي:

الشكل رقم 4: **طبيعة الكتابة العلمية**






تقدم مريم شاران[12] مجموعة من التكتيكات يمكن اعتمادها لتجاوز ما تسميه «عائق الكتابة». أولا، يمكن لك أن تعود إلى معطياتك وتعيد قراءتها وتفكر ملياً في القصة التي تريد سردها في علاقتها بهذه المعطيات. ثانيا، إن كتابة أي شيء أفضل من عدم الكتابة. يمكن للمعطيات أن تستعمل أو لا تستعمل لاحقاً، لكن المهم هو أن تلزم نفسك بكتابة شيء يمكن أن يبعث على مزيد من التفكير والكتابة. كما يمكن لك اعتماد إستراتيجية أخرى، وهي أن تضع آجالا لإتمام عدد معين من الصفحات وأن تحترم هذه المواعيد مهما كان النص الذي ستنتجه. ويقترح ويرنر وشوفل الانتقال إلى وسيلة تواصل أخرى، مثل كتابة رسالة إلى صديق تشرح له فيها البحث الذي تقوم به، أو أن تقدم محاضرة رسمية أو غير رسمية حول الموضوع الذي تبحث، يتم تسجيلها لكي تستعملها لاحقاً في تحفيزك على الكتابة[13]. مثلما يمكن لك أن تناقش موضوع بحثك مع زملائك أو مع متخصصين في الموضوع.

12 – Sharan, B. M., Qualitative Research..., op. cit., p. 244.

13 – Werner, O. and Schoepfler, G. M., Systematic Fieldwork: Ethnographic Analysis and Data Management, Vol. 2, Thousand Oaks, CA: Sage, 1987.





يجب عليك أن تتذكر أن الكتابة إن كانت تثير تخوفات لديك، فإنها تثير نفس التخوفات لدى الباحثين المتمرسين أنفسهم. ذلك أننا عندما نكتب لقراء آخرين، فإننا نعرض أنفسنا للنقد بما أن أفكارنا امتداد لنا في حقل تخصصنا: فنحن نخاف من أن ننعت بأننا لا نعرف الكثير، أو بأن ما نكتبه ناقص، أو بأننا لم نذكر المراجع الأساسية، أو بأننا استدلالنا خاطئ، الخ. إن كل هذه التخوفات مشروعة، وينبغي أن تشكل حافزاً لنا على الشروع في الكتابة مبكراً بدلا من انتظار الأفكار المصقولة والاستدلالات الكاملة، لأننا ملزمون على كل حال بتقديم بحثنا في آجال محددة. لذلك يجب عليك أن تبدأ في كتابة المسودة الأولى لمقالك. والمسودة الأولى لمقالك هي مجرد مسودة أولى. فلا يهمك عدم تناسق أقسام المقال، نظراً لأن الاشتغال على شيء ما (مسودة أولى) أسهل من الانطلاق من لا شيء. ويمكن لك أن تقدم مسودتك الأولى لزملائك أو أصدقائك قصد التعليق عليها، ثم تدمج تعليقاتهم التي تراها مناسبة أنتجته لكي تصقل المسودة الأولى أكثر فأكثر. واعلم أن كتابة المسودة الأولى هي أصعب مراحل الكتابة لأنها تتطلب مجهودا أكبر ووقتا أطول. وبعدها تأتي مرحلة التنقيح والتحسين والتطوير التي تمنحك ثقة أكبر مع مرور الوقت.

II. مكونات التقرير النهائي للبحث الكيفي

ليس هناك اتفاق حول طريقة بناء الدراسة الكيفية. لكن هناك مبادئ أساسية يرتكز عليها تصميم البحث الكيفي. ذلك أن البحث الكيفي ينتمي للبحث العلمي عموماً الذي يشمل مراحل مشتركة سواء كان الباحث يقوم بدراسة كيفية أو دراسة كمية. فكل الباحثين يبدؤون بموضوع أو مشكلة، ويعالجون الدراسات السابقة في ارتباطها بالموضوع، ويطرحون الأسئلة، ويجمعون المعطيات ويحللونها، ثم يصيغون تقاريرهم.

وتختلف بعض أبعاد البحث الكيفي من دراسة لأخرى. مثلا، تختلف مواقف الباحثين من طريقة استعمال النظرية: فالنظريات الثقافية تعتبر اللبنات التي





يبنى بها البحث الإثنوغرافي الجيد[14]، بينما تركز النظرية المتجذرة في الواقع على توليد النظرية أثناء عملية البحث[15]. كما أن شكل الكتابة في المشروع الكيفي تختلف اختلافا بينا بين المقاربات ذات التوجه العلمي وسرد القصة. فليست هناك بنية موحدة متفق على أنها البنية الوحيدة المعيارية.

إنني أفضل الطريقة التي تكون فيها أهداف البحث وأسئلته ومناهجه مترابطة فيما بينها بحيث تبدو الدراسة ككل متماسك بدلا من أجزاء معزولة عن بعضها البعض. وهذه الطريقة هي ما يسميها مورس وريشاردز «التساوق المنهجي»[16].

1. العنوان

لتوضيح الأهمية التي يحظى بها العنوان، اخترت مقالا لستيفن بال وكارول فينسينت»'سمعت ذلك من خلال الشائعات': المعرفة 'الساخنة' واختيار المدرسة»[17].




يجب التفكير مليا في اختيار العنوان نظراً لأنه الإشارة الأساسية التي ترسلها للآخرين قصد إخبارهم بأنك بنيت أفكاراً تستحق اهتمامهم، ولأنه هو ما يفتح شهية القارئ للتعرف على مضمون بحثك. يجب أن لا يكون العنوان مباشراً ومطابقاً لسؤال البحث، وإنما ينبغي أن يوحي بموضوع الدراسة وأن يطرح الطبيعة الدقيقة لأهداف البحث في متن النص. وعموماً، يجب أن يكون العنوان:

14 – LeCompte, M. D. and Schensul, J. J., Designing and Conducting..., op. cit.

15 – Strauss, A. and Corbin, J., Basics of Qualitative Research: Grounded Theory Procedures and Techniques, Newbury Park, CA: Sage, 1990.

16 – Morse, J. and Richards, L., README FIRST for a User's Guide to Qualitative Methods, Thousand Oaks, CA: Sage, 2002.

17 – Ball, S.J. and Vincent, C., «'I heard it on grapevine': 'hot' knowledge and school choice», British Journal of Sociology of Education, 19(3): 377-400, 1995.





- إخبارياً: بمعنى يجب أن يخبر القارئ بموضوع المقال؛

- دقيقاً: بمعنى يجب ألا يكون مضلِّلا أو ادعائياً؛

- مختصراً: إذ يمكن لي أن أقرأ عنواناً يشغل مساحة أربعة أسطر دون أن يتوضح لي موضوع الدراسة. يجب تجنب الإطناب مثل «نحو مخطط تمهيدي لنموذج مؤقت...»؛

- مثيراً للاهتمام.

لنلاحظ كيف أن عنوان المقال المذكور أعلاه يستجيب لهذه المعايير الأربعة. فهو يتضمن مكونات المقال الثلاث: اختيار المدرسة (المجال العام للدراسة)، «الإشاعات» (المفهوم المنظم للمعطيات)، والمعرفة «الساخنة» (المنتج النظري). وقدم المقال كل هذه المعطيات بشكل واضح ومختصر، واستطاع بفضل الاقتباس الموضوع بين مزدوجتين أن يثير اهتمام القارئ.

2. الملخص

إن الملخص عرض مقتضب لبحثك يصف موضوع الدراسة وخطة البحث والمناهج والنتائج والخلاصات. والهدف هو أن تقدم للقارئ معنى سريعاً ولكن جيداً لمشروعك قبل أن يقرأ المقال بكامله. إن الملخص مفيد للقارئ ومفيد للكاتب نفسه لأن تحرير الملخص بعد انتهاء العمل تمرين مفيد لاكتساب مهارة عرض ما تريد قوله بشكل واف ومختصر. ولابد من تنبيه الباحث إلى أن الملخص هو آخر ما يكتب.

يجب على الباحث أن يستعمل الفعل المضارع لعرض الخلاصات التي توصل إليها، والفعل الماضي لوصف ما قام وما حدث أثناء إنجاز البحث. مثلا:

- تكشف الدراسة أن الفضاء الافتراضي يجمع خصائص المقدس والدنيوي.
- وجدت صعوبة في إجراء مقابلة عن بعد مع المشرفين على مواقع الدردشة الدينية.



3. المقدمة

إن التقديم لأي شكل من الكتابة هو أصعب جزء من المقال يمكن إنجازه. وتخدم المقدمة هدفين: تقديم فكرة عن مضمون المقال، وإقناع القارئ بأن المقال يستحق الاهتمام. تحظى الأسطر الأولى التي نبدأ بها نصنا بأهمية بالغة في إقامة العلاقة بين الكاتب وقارئه[18]. إن المطلوب منك كباحث مبتدئ هو أن تنجح في القيام بما قام بعض الباحثين الذين قرأت لهم، والذين ما إن يخطوا الجملة الأولى حتى تجد نفسك راغباً في قراءة الجملة الثانية[19]. فأنت ككاتب، عندما تفكر في كيفية الكتابة وكيفية عرض عملك الميداني في كتابتك، يمكن لك أن تبني بدايات جذابة.

إن إدخال القارئ إلى الميدان يستثير توقعه بأن أحداثا «واقعية» مهمة سيتم عرضها في القصة التي سيرويها الكاتب، كما يقدم له لمحة توجهه في هذه القصة. وعليه، تتيح البداية فرصة ملائمة لبسط «أمثلة بارزة عن... القضايا والمفاهيم» التي تمت دراستها في الجماعة العلمية المتخصصة الواسعة والتي تشير إلى قصتنا.



أ. كيف تبدأ كتابة المقال؟

عندما تقرأ بعض المقالات العلمية، ستلاحظ أن هناك اتفاقاً بين الباحثين حول العناصر التي تتكون منها المقدمة. لكن باحثين آخرين أضافوا اقتراحات إضافية حول كيفية الشروع في كتابتها. ويجب على الباحث أن يختار من بينها الطريقة التي تتناسب مع ما يريد إيصاله إلى القراء.

• ذكر حدث واقعي: يعمد بعض الباحثين إلى وصف حدث واقعي ذي صلة بمواضيع بحثهم:

18 – Law, J. and Williams, R., «Putting the Facts Together : A Study of Scientific Persuasion», Social Studies of Science, 12, 1982: 535-558.

19 – Fine, G. A., «The Ten Commandments of Wrinting», American Sociologist, 1988: 152-157.







«في سنة 2010، قررت السلطات المصرية وقف 12 قناة فضائية وإنذار 20 قناة أخرى على القمر الصناعي المصري نايلسات بسبب ما اعتبرته إثارة النعرات الطائفية والحض على ازدراء الأديان والإفتاء الشرعي من غير المختصين...»

• ذكر سيناريو متخيل: يمكن للباحث أن يفتتح مقدمته بعرض قصة قصيرة متخيلة من أجل تقديم الموضوع الرئيسي لدراسته.

سناء، طالبة جامعية في الثانية والعشرين من عمرها، تشرف على صفحة في الفايسبوك (ص) خصتصها لدعوة النساء المسلمات إلى ارتداء الحجاب. سناء لا تضع صورتها في بروفايل حسابها الفايسبوكي. اعتادت سناء على خوض سجالات مع فتاة أخرى تدعى ليلى من نفس سنها تقريباً بسبب التوجه المتحرر لهذه الأخيرة وتعليقاتها المثيرة للاستفزاز...



• تحديد نطاق البحوث السابقة: يكتفي بعض الباحثين في مقالاتهم بعرض موضوع دراستهم الرئيسي بطريقة مباشرة وواضحة تسمح للقارئ بالتعرف على ارتباط دراستهم بمواضيع البحث ذات الصلة:

منذ تسعينيات القرن العشرين، أصبح عدد الدراسات التي تعالج الظاهرة الدينية في علاقتها بوسائل التواصل الحديثة يتزايد أكثر فأكثر. ويشمل هذا النطاق من البحث الدين الرقمي والأخلاق الرقمية ودور وسائل الاتصال الحديثة في توزيع السلطة الدينية وعلاقة الانترنيت والقنوات الفضائية بالإرهاب وغيرها من القضايا الاجتماعية. وقد عالج جزء من هذه الدراسات طبيعة الممارسة الدينية في المجال الافتراضي، وتزايد حجم البحوث التي ركزت بالأساس على التحدي الذي فرضه هذا المجال الافتراضي على السوسيولوجيين من أجل إعادة تعريف الظاهرة الدينية.









• تقديم إحصائيات: هناك إستراتيجية أخرى تتمثل في عرض إحصائيات متزايدة يمكن أن تثير اهتمام القارئ بالظاهرة المدروسة. لكن احرص على ألا تقدم إحصائيات يمكن أن تبعث الملل في القارئ.

• الاستشهاد بقولة: يمكن أحيانا للاستشهاد بقولة ذات علاقة بموضوع بحثك أن تفتح شهية القارئ. ويمكن لهذا الاستشهاد أن يضع قضيتك الخاصة في السياق المطلوب:

> يبدو أن العلاقة بين الدين ووسائل الاتصال الحديثة أصبحت تتقوى أكثر فأكثر مع انتقال البشرية إلى القرن الواحد والعشرين
> (Stewart, M. H. (2006) Religion in the Media Age, London and New York: Routledge, p. 1).

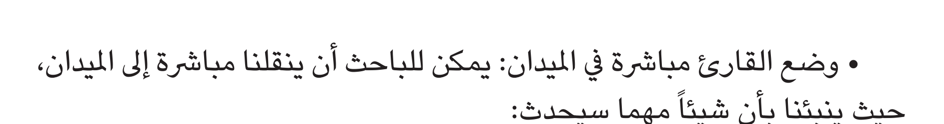




• الاستشهاد بمقتطف من المعطيات: يختار بعض الباحثين نقل القارئ مباشرة إلى الميدان. لكن بدلا من أن يختاروا من عملهم الميداني أي حدث تفصيلي، فإنهم ينتقون التفاصيل التي تعبر عن موضوع الدراسة:

> بالنسبة لي، يتيح لي الفضاء الأزرق إمكانية التعبير عن مواقفي كامرأة غير متدينة ولها حساسية من الخطاب الديني للذكور الذين يحتكرون سلطة الفتوى والنصيحة ومراقبة كلام النساء وأجسادهن».
>
> سناء، الشابة النشيطة في موقع التواصل الاجتماعي فايسبوك، قدمت لي هذا الموقف بواسطة الدردشة الخاصة. ليست سناء كباقي النساء الأخريات اللواتي يفضلن تجنب إبداء آراء نقدية في الأمور الدينية المطروحة في صفحات الفايسبوك المخصصة للأمور الدينية...





• وضع القارئ مباشرة في الميدان: يمكن للباحث أن ينقلنا مباشرة إلى الميدان، حيث ينبئنا بأن شيئاً مهما سيحدث:

> اهتزت خصلاتُ شعرِ الإلهِ (ديفاتا= devata) بعنف فوق عربته. وجاهد الرجالُ الذين يحملونها من أجل منعها من السقوط أرضاً، وانخرط وسيطُ الإله (غور gor) في غشوةٍ نشوةٍ عنيفةٍ. تأرجح رأسُه إلى الخلف، وسقطت قبعتُه (توبي= topi) أرضاً، معلنةً وصولَ ديفاتا. وانخرط الوسيطُ، الذي أصابه مسٌّ عنيفٌ، في عويلٍ مُحمَّل بالوعيد: «لقد أهملتِ واجبك. لقد أخلفتِ وعدك، والآن ستُعاقَبين». كان الوعيدُ موجهاً لريتا (Rita)، وهي امرأةٌ في منتصف العمر تقف بباب بيتها وهي تحمل إناءً من الفولاذ المقاوم للصدأ مليئاً بالزهور والحلوى وأوراقَ ماليةٍ من عشرة روبيات. كانت ريتا مذهولةً. فردَّتْ وهي مرتبكة: «لقد ذكَّرتُكَ صباح مساء. كنتُ أقدّم لك الشكرَ على معجزتك [pratyaksa]». كانت تتوسل لديفاتا بأعذارَ واهيةٍ عن سلوكاتٍ لا مبرر لها؛ لكنّ تلك الأعذارَ لم تفعل غير تأجيج غضبه. فقد كان الإله قد قام قبل سنة بسلسلةٍ من التدخلات التي جلبت الإزدهارَ الماليَّ إلى البيت. اتفق الطرفان على هذه الغاية، لكنهما اختلفا في الدفع. فالإله، الجائعُ دوماً، طلب وليمةً كبيرةً من أضحيةِ الماعز، لكنّ المرأةَ اعتقدت أن اهتمامَها المتواصلَ وصلواتِها سترضيه أكثر. لكن الإلهَ لم يكن راضياً، بل كان جائعاً.




يشكل هذا الخلافُ بين ريتا وأسرتها الإلهية جزءاً من نقاشٍ حادٍّ حول مشروعية الأضحية الحيوانية في ولاية هيماشال براديش



في شمال شرق الهند، وهو خلافٌ يحدث في المجال العام المحلي والوطني[20].

- وصف تجارب مشتركة: هناك استراتيجيه أخرى للحصول على اهتمام القارئ تتمثل في وصف تجربة مشتركة يمكن للقارئ أن يكون ذا علاقة بها:

> تتعرض النساء أكثر من الرجال للعنف اللفظي في مواقع الدردشة الالكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي رغم أن تلك المجالات الرقمية تكون مخصصة للدعوة الدينية.

- معارضة فكرة مألوفة: يقدم البحث الكيفي مساهمات مهمة عندما يصيغ مشروعاً بطريقة تجعله لا يبدو مألوفاً وواضحاً لأول وهلة. ويستحسن إذن أن تطرح منظورك للظاهرة المدروسة بطريقة تضعه في تعارض مع الأطروحات الرائجة. لكن تحتوي هذه الإستراتيجية على نوع من الخطورة، وهي المغالاة في التركيز على الاختلافات. لذا ينبغي صياغتها بطريقة معتدلة تتفادى الاختلاف الجذري:

> عادة، تعتبر مواقع التواصل الاجتماعي مجالا للتواصل والتوافق وتبادل الآراء وممارسة الترفيه. لكنها تشكل أيضاً مجالا للصراع الثقافي والسياسي والإيديولوجي.

وعلى العموم، وأنت تكتب مقدمتك، اسأل نفسك ما إذا كان ما تكتبه يمتعك. إذا قدرت أن ما كتبته لا يثير فضولك، فمن المرجع أنه سوف لن يستهوي قارئاً

20 - Elmore, M., "Bloody Boundaries: Animal Sacrifice and the Labor of Religion", in M. Dressler and A-P. Mandair (eds.), Secularism and Religion-Making, Oxford: Oxford University Press, 2011, p. 209.







آخر. فضلا عن ذلك، لا تبدأ مقدمتك بأسماء مؤلفين مغمورين من المحتمل ألا يكون القارئ على معرفة بهم.

ب. عناصر المقدمة

ويجب على المقدمة، حسب جيلبيرت، أن تشير إلى موضوع المقال، وتوضح أين تكمن أهمية هذا الموضوع، وتظهر ما الذي يجعل من المقاربة المستعملة في المقال إضافة إلى الأعمال السابقة. وباختصار، إن هدف المقدمة هو أن تدفع القارئ إلى الانكباب على التهام النص. ويعني ذلك الانطلاق من المعرفة الراهنة للقارئ وقيادته إلى الاقتناع بأن الموضوع يستحق أن يخصص له جزءاً من وقته.

إن هدف المقدمة هو تقديم المشكلة النوعية التي سيعالجها المقال وعرض إستراتيجية البحث التي سيتم استعمالها في هذه المعالجة. يجب أن تكون المقدمة مبنية بطريقة منطقية ومختصرة. ويكمن البعد المنطقي للمقدمة في كونها تبدأ بعرض النظرية العامة وتنتهي بتقديم الفقرات التي يتشكل منها المقال. وباختصار، إن المقدمة تضع السياق الذي جرى فيه البحث.

تبدأ المقدمة عموماً بطرح الموضوع المركزي للدراسة، مثلا: «تسعى هذه الدراسة إلى مقاربة موضوع الشعبوية في خطابات الأحزاب اليسارية» (لاحظ أنني لم أشر إلى أن الموضوع هو مكونات الخطاب السياسي لتشافيز). ويمكن تقديم العرض المقتضب للموضوع المركزي للدراسة سواء في شكل قضية تقريرية أو سؤال.

ويجب على الباحث في مقدمته أن يوضح وجاهة موضوع الدراسة وأهميته، سواء من حيث انعكاساته على التطور النظري، أو فهم جديد للموضوع الرئيسي، أو أهميته بالنسبة للسياسات العمومية المرتبطة بالموضوع. كما يجب عليه أن يبين للقارئ سبب اختياره لموضوع دراسته، دون أن يخشى الإشارة إلى اهتماماته ولقاءاته وتجاربه الشخصية التي لها علاقة باختيار الموضوع. تطرح الخطوة





الأولى أهمية الدراسة وتطرح عموماً موضوع المقال من خلال وضعه في سياقه. بمعنى أن الباحث يعرض صلة المقال بالسياق العام، سواء الحياة اليومية أو الأدبيات السابقة. مثال من مقال ليورغن ساندبيرغ[21] يربط فيه دراسة الكفاءة البشرية بالأفعال التنظيمية الاعتيادية والمهمة:

> إن الأفعال التنظيمية، من قبيل إنتاج السيارات أو معالجة الأمراض أو النقل أو التدريس، **ترتكز دائماً** على الكفاءة البشرية. وتتمثل **إحدى أهم المشكلات التدبيرية** في تنمية الكفاءة البشرية في العمل من أجل ضمان استمرارية التنظيم. وقد أصبح تطوير الكفاءة في الوقت الراهن **قضية ذات أهمية متزايدة**... إلا أنه لتدبير التكوين والتطوير بشكل فعال، يحتاج المسيرون إلى فهم من ماذا تتكون الكفاءة البشرية في العمل...

هكذا، يعبر الباحث في الخطوة الأولى عن أهمية دراسته من خلال المكانة التي تشغلها في علاقتها بشيء آخر. إن بيان الأهمية يقتضي موضعة الدراسة في السياق العام. فقد أوضح المثال السابق سياق ظاهرة الكفاءة البشرية في العمل، والصعوبات أو التعقيدات التي تعترض المسيرين في تدبيرها.

وفي نهاية المقدمة، ينبغي للباحث أن يقدم عرضاً مختصراً يوضح فيه بشكل واضح ما يحتويه المقال من أقسام.

4. الدراسات السابقة

بعد ذلك، يجب على الباحث أن ينتقل إلى مناقشة الدراسات السابقة حول موضوع الدراسة. وبعبارة أبسط، ينبغي ربط النتائج التي توصلت إليها

21 – Sandberg, J., «Understanding Human Competence at Work: An Interpretative Approach», Academy of Management Journal, 43, 2000: 9–25, p. 9.



الدراسة بالأدبيات السابقة. يتوقع أنداد الباحث من بحثه السوسيولوجي أن ينتج متناً من المعارف التي سترفع من درجة معرفتنا بالعالم المحيط بنا. ولإنتاج هذه المعارف، يكون الباحث ملزماً بتوسيع ما يعرفه من خلال ربط بحثه بنظرية معينة. ذلك أن موضعة البحث داخل مقاربة نظرية يزيد من احتمال تطبيقه في مجال تجريبي أو نطاق نظري جديدين، نظراً لأن «فكرة النظرية، أو لنقل القدرة على تفسير وفهم نتائج البحث داخل إطار مفاهيمي يضفي معنى على المعطيات، هي علامة على تخصص ناضج يهدف إلى الدراسة النسقية والمنهجية لظاهرة معينة»[22]. ذلك أن أحد أهداف القسم المتعلق بالدراسات السابقة هو إبراز السعة المعرفية للباحث بموضوع دراسته، لذلك ينبغي له أن يظهر معرفته للموضوع وقدرته على القيام بمقاربة ملائمة للأدبيات المتوفرة ذات الصلة بالموضوع.

يقدم لونينبيرغ وإيرباي[23] مجموعة من الإرشادات التي يمكن للباحث تتبعها من أجل فهم الأهداف المنشودة من القسم الخاص بالدراسات السابقة وطريقة عرضها. وأجمل المؤلفان هذه الإرشادات في ثلاث مبادئ أساسية:

أ. نظم مادتك في شكل قِمْع

يمكن استعمال استعارة القِمع لتوضيح الشكل الذي تكتسيه مرجعات الأدبيات المتعلقة بالموضوع المدروس. فالقمع يكون مدخله واسعاً ومخرجه ضيقاً. والمقصود بهذه المماثلة هو أن القسم المتعلق بالدراسات السابقة يبدأ بمناقشة عدد كبير من الأدبيات، ويعالج الدراسات **الأقرب** إلى موضوع البحث

22 – May, T., Social Research: Issues, Methods and process, 3rd ed., Buchkingham: Open University Press, 2001, p. 29.

23 – Lunenberg, F. C. and Irby, B. J., Writing a Successful Thesis or Dissertation, Thousand Oaks, CA: Crowin Press, 2008, pp. 143–146.





في الأخير. ويمكن للقسم المخصص للدراسات السابقة أن يتكون من أربعة أو خمسة فقرات.

قم بمناقشة الدراسات التي انتقيتها، وذلك بالانتقال من أكثرها بعداً عن موضوع دراستك إلى أقربها إليه. ويمكن لك أن تعتمد الإستراتيجية التالية للقيام بهذه المهمة على النحو الأمثل: ناقش في البداية الدراسات ذات الأهمية التاريخية، أي تلك التي يمكن إدراجها في خانة الكلاسيكيات، والأعمال التي استخدمت مناهج بحثية أو نظريات مختلفة عن تلك التي يستعملها بحثك. ثم انتقل إلى مقاربة الدراسات الأحدث وتلك التي تستعمل مناهج ونظريات شبيهة بتلك التي تتبناها دراستك.

علاوة على ذلك، يجب عليك ألا تولي نفس القدر من الأهمية التحليلية لكل الدراسات. إذ ينبغي تقسيم هذه الأدبيات إلى ثلاثة أقسام:

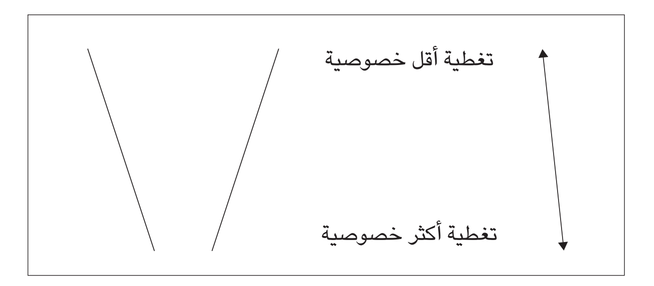



- الأدبيات التي سيتم وصفها بتفصيل نظراً لارتباطها الوثيق بموضوع بحثك؛
- الأدبيات التي ستتم مناقشتها بإيجاز؛
- الأدبيات التي تتماس مع بحثك والتي يمكن أن تدرجها أو لا تدرجها في مراجعتك للدراسات السابقة تبعاً لحجم المعلومات المتوفرة في الأدبيات ذات الصلة بموضوعك.

ويوصي المؤلفان الباحثين المبتدئين بأن يتجنبوا خطأ العودة إلى العام بعد أن يكونوا قد انتقلوا من العام إلى الخاص. وتبعاً لاستعارة القمع التي مثّل بها المؤلفان لقسم الأدبيات السابقة، فإن هذا القسم ينطلق من العام لينتقل إلى الخاص ثم إلى الأكثر خصوصية إلى أن يستخرج أسئلة البحث [أو الفرضيات].



الشكل رقم 5: **بنية القِمع**



ب. كن انتقائيا

من خاصيات العلم أنه ممارسة تقوم على تراكم المعارف. وكما أشرنا سابقاً، لا يمكن لمقالك أن يعتبر إضافة إلى المعرفة العلمية السوسيولوجية إلا إذا اعترف المتخصصون في العلم الاجتماعي بأنه يستجيب لمعايير الإنتاج العلمي. ويقدر هؤلاء العلماء القيمة العلمية لمقالك، من بين أشياء أخرى، على مدى ارتباطه بالأعمال السابقة عليه التي عالجت نفس الموضوع. لذلك فمن الواجب عليك كباحث أن تستند إلى أعمال الآخرين. غير أن هذا الاستناد يكون ذا طبيعة انتقائية. وفي هذا السياق، ينبغي التنبيه إلى أن الباحث الذي يحظى بثقة أقرانه هو ذاك الذي يعتمد على مصادر من الدرجة الأولى، أي على الكتابات التي قدمت معالجة مباشرة لموضوع ما، وليس إلى المصادر من الدرجة الثانية التي تتمثل في المقالات التي تقدم مراجعات لتلك الكتابات.




تعترض الباحثين المبتدئين مشكلة حقيقية تتمثل في سرد الدراسات السابقة دون التفكير كفاية في طريقة ربطها بنظريتهم أو موضوع دراستهم. لذلك ينبغي للباحث أن يتعود على طرح السؤال التالي على نفسه: لماذا سأدرج هذه الدراسة أو هذا المرجع؟ وبمعنى آخر: ماذا سيضيف هذا المرجع إلى تطور بحثي؟ كيف يمكن لهذا المرجع أن ينسجم مع الخيط الناظم لمقالي؟ وما هي العلاقة التي تربطه





بأسئلة بحثي؟ وبالإجمال، من المفروض أن يفكر الباحث مليا في الكيفية التي سيساهم بها المرجع في توضيح أطروحته أو إكمالها.

ويستحضر الباحثان مجموعة من الأفكار حول العلاقة التي يمكن أن يقيمها المرجع مع الدراسة:

- له علاقة بالنظرية ويعزز الأطروحة؛
- يقدم فكرة قوية حول أحد أبعاد الدراسة؛
- له علاقة بالموضوع ويتداخل معه؛
- يساعد على بناء استدلال متماسك؛
- يساعد على بناء حجة قوية؛
- يضع الدراسة في سياق خارجي؛
- يحدد الحالة الراهنة للبحث المتعلق بموضوع الدراسة؛
- يظهر معرفة الباحث بأعمال الآخرين.





ليس الهدف من مراجعة الدراسات السابقة هو سرد مضامينها، وإنما هو تقديم استدلال متماسك من شأنه أن يقودك إلى التعريف بما سيضيفه بحثك إلى المعرفة ذات الصلة. لذا ينبغي أن تتبنى **موقفاً نقدياً** في قراءة أعمال الباحثين الآخرين. إن القول إن هذا البحث استوفى شرط مراجعة الدراسات السابقة لا يقوم على معيار استعمال عبارة «قال فلان» أو «توصل فلان»؛ بل يجب على الباحث أن يستعمل مثل تلك العبارات في حدودها الدنيا نظراً لأن الإكثار منها سينقل انتباه القارئ من استدلالك الخاص إلى استدلال الآخرين. ولتجنب هذه المشكلة، يمكن لك أن تقدم تيمة معينة ثم تذكر أعمالا ذات صلة بهذه التيمة لدعم استدلالك أو لتقديم أمثلة عن موضوع بحثك. كما أن الإكثار من الاستشهادات بأعمال الآخرين يميل إلى تقليص سلطتك العلمية. لذلك يستحسن أن تجعل الاستشهادات تقتصر على المفكرين ذوي أكبر قدر من المصداقية في مجال بحثك.





وإجمالا، يجب أن يكون القارئ في نهاية القسم المخصص للأدبيات السابقة على بينة من الحالة الراهنة للدراسات التي لها علاقة بموضوع بحثك ومما ستقوم به لإضافة شيء إلى المعرفة العلمية لتخصصك.

ويمكن لك أن تضع موجزاً لأهم الفقرات التي تنوي توزيع الدراسات السابقة عليها. ولهذا الموجز فائدتان: أولا، سينتج نصاً منطقياً ومركزاً يشمل التماسك وحسن الانتقال؛ ثانياً، يسمح لك بتجنب الغرق في الحجم الهائل من المواد التي ستتم معالجتها في فصل الأدبيات السابقة.

يمكن تقسيم الدراسات السابقة إلى نوعين: 1) الأدبيات المتعلقة بالموضوع: وتشمل المصادر المرتبطة بالموضوع الذي اختار الباحث مقاربته. ويسعفنا هذا النوع من الدراسات في معرفة النظريات والنقاشات الموجودة في وقت إجراء الدراسة والمتعلقة بالظاهرة موضوع الدراسة. ولابد للباحث أثناء مناقشة هذه الأدبيات أن يشير إلى محدوديتها وأشكال قصورها وما أهملته، وأن يحدد كيف سيحاول المساهمة في تصحيح هذه الثغرات. ويجب على المقاربة البديلة أن تطور الدراسات السابقة أو أن تتحقق منها أو أن تتبنى اقتراحات سبق لآخرين أن قدموها. ومعنى ذلك أنه يجب على الباحث أن يوضح ما هي الإضافة التي سيحملها المقال للمعرفة المتعلقة بالموضوع المدروس: تأكيد نتائج، دحض نتائج، تجريب نظرية في مجال تجريبي جديد، معالجة الموضوع من زاوية مختلفة عن تلك التي تمت بها معالجته من قبل. 2) الأدبيات المتعلقة بالمنهجية: يشير مات هين وزميلاه[24] إلى أنه من الخطأ تصور هذا النوع من الأدبيات كمواد مرجعية تساعدنا على تبرير خطة البحث (الإطار النظري والمناهج) على أسس عملية فقط (مثلا، الإشارة إلى محدودية المنهج المسحي؛ هكذا تم بناء دليل المقابلة؛ يمكن لتنظيم المجموعة البؤرية بهذه الطريقة أن يطرح مشاكل معينة). سوف لن

24 – Henn, M., Weistein, M. and Foard, N., A Short Introduction to Social Research, op. cit., pp. 228–229.







يقدم لنا هذا الموقف أي شيء عن الإطار النظري الذي نموضع فيه بحثنا ولن يزودنا بأي سياق إبستيمولوجي. وبالمقابل، سواء كنا نشرح أو ننتقد مناهجنا، يجب علينا أن نحيل في كتابتنا على الأدبيات المتعلقة بالمنهج والنقاشات النظرية الأساسية. أولا، ينبغي لنا أن نوضح أننا بنينا خطتنا البحثية على ضوء الدروس التي تعلمناها والنصائح التي قدمت لنا من طرف آخرين. مثلا:

> أردنا في بحثنا أن نحاور أشخاصاً من بلدان أخرى بحيث يمكن لنا أن نجري مقارنات بيثقافية. ولهذه الغاية، استعملنا غرف الدردشة الإلكترونية التي أجرينا فيها مجموعات بؤرية. إذ يقترح مان وستيوارت (Mann and Stewart, 2000 : 17) أن هذا المنهج «طريقة عملية لإجراء مقابلات مع أفراد أو جماعات متباعدة جغرافياً».

تقدم غولدن-بايدل ولوك[25] بعض الاستراتيجيات لمناقشة الدراسات السابقة، سنقتصر على عرض الإستراتيجيتين المهمتين منها. أولا، يمكن للباحث استخدام طريقة «التماسك التدريجي» في تقديم الدراسات السابقة. وتتمثل هذه الطريقة في إدماج البحوث التي ترتبط فيما بينها من حيث المنظورات والمناهج. تبسط طريقة التماسك التدريجي المعرفة التي تراكمت عبر الزمن والتوافق الحاصل بين الباحثين حول طريقة البحث المثلى للظاهرة. وفيما يلي مثال عن هذا الطريقة في عرض الأدبيات المتعلقة بالموضوع، مقتطف من دراسة لين إيزابيلا حول عملية التغيير التنظيمي[26]:

25 - Golden-Biddle, Karen and Locke, Karen, Composing Qualitative Research, op. cit., p. 34-36.

26 - Isabelle, L. A., «Evolving Interpretations as a Change Unfolds: How Managers Condtrue Key Organizational Events», Academy of Management Journal, 33, 1990: 7-41)









> يوجد في أدبيات التغيير التنظيمي بحوث مهمة حول تسلسل الأنشطة التي تسهل عملية التغيير (Dalbecq & Van de Ven, 1958 ; Hage & Aiken, 1970 ; Lewin, 1947 ; Lippit, Watson & Westley, 1958). وعلى الرغم من اعتبار أن التغيير في مستواه الأصغر يتمثل في التحرير والتحريك وإعادة التجميد (Lewin, 1947)، فإن السير نحو هذه المراحل يستلزم أكثر من أنشطة وسلوكات متسلسلة. لقد اقترحت دراسات متأخرة حول التغييرات المختارة (Bartunek, 1984 ; Gephart, 1984 ; Sutton, 1987) (ص.35) وأدبيات التغيير التنظيمي عموماً أن جزءاً مهماً من المعرفة والتأويل يصاحب عملية التغيير. وبعبارة أخرى، عندما تتسع رقعة التغيير، تصبح بعض المسلمات والتوجهات ضرورية في أوقات مختلفة من العملية. إن المسيرين المنخرطين في عملية التغيير يحتاجون إلى اختبار بنيتهم المعرفية وتغييرها (Benne, 1976) من أجل تسهيل ودعم حاجتهم إلى التغيير، وعملية التغيير، وصيانة ما تم تغييره. هكذا يتم تغيير الإطار المرجعي، أي المنظور الذي ينظر به الناس إلى حدث معين (McCall, 1977 ; Starbuck, 1976).

نلاحظ أن الباحثة بدأت بعرض الدراسات التي تؤكد أهمية الأنشطة المتسلسلة التي تسبق التغيير. ثم انتقلت إلى ذكر الدراسات التي تشير إلى أن العمليات المعرفية والتأويلية للمسيرين تلعب دوراً رئيسياً في التحرك عبر عملية التغيير. وتنتهي بالإشارة إلى أهمية فهم الأطر المرجعية التي يستند إليها المسيرون. فقد استعملت الباحثة الدراسات السابقة كبنية لمقالها الذي حدد الخطوة المنطقية الموالية في دراسة «الطبيعة الدقيقة لهذه العمليات المعرفية والتأويلات التدبيرية المختلفة والمتغيرة»[27].

27 – Isabelle, «Evolving Interpretations as a Change Unfolds...», op. cit., p. 8.





إن طرح الأدبيات وفق طريقة «التماسك التدريجي» التراكمي يبين مساهمة عدد من الباحثين في إنتاج المعارف العلمية المتعلقة بالموضوع المدروس.

كما يمكن استخدام طريقة «انعدام التماسك» في عرض الأدبيات المتعلقة بالموضوع. فإذا كانت الطريقة السابقة تستند إلى توافق الباحثين حول فكرة معينة، فإن طريقة بناء حقل التناص غير المتماسك يركز بالأساس على الاختلاف. مثلا: «للأسف، تقدم الأدبيات ذات الصلة بموضوعنا تقييمات متناقضة»، «ما زال الخلاف مستمراً حول الدور الذي تلعبه القنوات التلفزيونية الدينية في إنتاج العنف الممارس باسم الدين». ويمكن أن نستعمل عبارات أخرى من قبيل: ليس هناك إجماع حول، هناك تفسيرات متناقضة، تعكس هذه الأدبيات الغموض الذي ما زال يكتنف الموضوع.




يجب على الباحث أن يخضع الأدبيات السابقة للمساءلة قصد خلق فجوة تسمح له بالمطالبة بالتفرد والقيمة. إذ يجب عليه تنظيم الرؤى النظرية بطريقة تسمح له بإقناع القراء بأن هناك شيئاً ناقصاً في الكتابات المتوفرة. فبدون خلق هذه الفجوة أو الثغرة، لا يمكن للباحث أن يقنعهم بأن دراسته ستساهم في المعارف المتعلقة بالموضوع المدروس. ويمكن اعتماد إحدى الطرق الثلاثة التالية لخلق هذه الفجوة:

- الدراسات السابقة باعتبارها ناقصة: يمكن خلق الفجوة بتوضيح أن الأدبيات المتوفرة غير مكتملة، وأن دراستنا ستساهم في سد هذا النقص. مثلا: أن أشير إلى أن الدراسات السابقة أهملت أحد أبعاد الظاهرة.

- الدراسات السابقة باعتبارها هزيلة: يمكن خلق الفجوة بالإشارة إلى أن الدراسات السابقة لم تعالج مختلف المنظورات ووجهات النظر البديلة للظاهرة موضوع البحث. مثلا: عالجت الأدبيات ظاهرة (كذا) من زاوية نظرية واحدة (بعدها الموضوعي= الوضعية) وأهملت بعدها المعرفي (التأويلية).

• الدراسات السابقة باعتبارها غير متقايسة: بيان خطأ مقاربة الدراسات السابقة للموضوع.

بعد توضيح أهمية الدراسة الحالية، وموضعة الدراسة في حقل الدراسات السابقة، وأشكلة هذه الدراسات، تكون الساحة مهيأة لكي تبشر دراستنا بالكيفية التي تنوي بها سد الثغرة التي فتحتها في هذا الحقل. وتتمثل هذه المرحلة والأخيرة في إدخال دراستنا إلى المكان الذي خلقناه بفضل الخطوات الثلاث السابقة.

5. المنهجية

أ. الإطار النظري

تعرض في هذا القسم المقاربة النظرية التي استخدمتها في دراستك، من قبيل النظرية المتجذرة في الواقع، والنظرية الفينومينولوجيا، والنظرية الإثنوميتودولوجية (التحليل المحادثاتي)، ودراسة الحالة، والتحليل السردي، والنظرية الإثنوغرافية، الخ. ولا يكفيك أن تقدم خصائص المقاربة المعتمدة، وإنما يجب بيان أسباب اختيارك لها وما هي وجاهتها بالنسبة لموضوع دراستك.

ب. المناهج

يعتقد الباحثون غير المتمرسون أن أصعب جزء من المقال في الكتابة هو الجزء الخاص بالمنهجية. لكنه ليس كذلك: فما دام هذا الجزء يتحدث عما قام به الباحث أثناء تنفيذ مشروع البحث، فمن المنطقي أن يكون تحريره أسهل جزء من الكتابة. إن الهدف الأساسي من الجزء المتعلق بالمنهجية هو أن يشرح للقارئ كيف تم إنجاز الدراسة، أي من ماذا تتكون المعطيات وكيف تم جمعها وتنظيمها وتحليلها. والحال أنه ينبغي تخصيص فقرة مطولة للمناهج التي استعملها الباحث في جمع المعطيات وتحليلها، حيث يعرض كيف تم التوصل إلى النتائج نظراً لأن مصداقية النتائج تتوقف على معرفة منهجية البحث.



إن أبسط وأوضح طريقة لكتابة الجزء المتعلق بالمنهجية هو تصور شرحها لصديق. ذلك أن شرح التفاصيل الخاصة بطريقة إجراء البحث يشبه رواية قصة. وتختلف أهمية التفاصيل بالنسبة للباحثين من دراسة لأخرى مثلما تختلف أهمية تفاصيل الأحداث من قصة لأخرى. إلا أن هناك مجموعة من العناصر التي يجب عرضها في معظم الأقسام المخصصة للمنهجية إن لم نقل في كلها. وتشمل هذه العناصر العينة والمعطيات وتقنيات التحليل.

• العينة: المقصود بذلك هو إخبار القارئ بمعلومات حول 1. وحدة التحليل التي شكلت مصدر المعطيات الخام (التجارب، التمثلات، الوضعيات، الأفراد، الجماعات) وكم عددها. 2. معايير انتقاء العينة الأولية (عينة كرة الثلج مثلا) والتغيرات التي مست هذه العينة لاحقاً ولماذا (مثلا، درجة تجانس العينة)؛ 3. كيف تمت تغطية معظم الفئات، أي درجة التمثيلية (درجة تنافر العينة)؛ 4. كيف توصلت إلى هذه العينة وصعوبات بنائها وهل كان هناك من رفض المشاركة ولماذا (إن أمكن) (مثلا، درجة موثوقية المعطيات بالنظر إلى أن العينة كانت افتراضية).

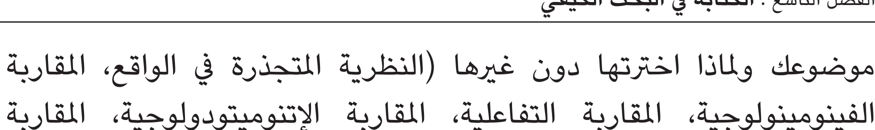



• مناهج جمع المعطيات: مقابلة (أي نوع: مبنينة، شبه مبنينة، غير مبنينة)، مجموعة بؤرية، الملاحظة بالمشاركة، تحليل الوثائق (أي نوع: مكتوبة، سمعية بصرية، صور...). إن شرح الباحث للطريقة التي جمع بها المعطيات تسمح للقارئ بتحديد كمية الثقة التي سيقرر إسنادها للنتائج، وتسمح له أيضاً بنسخ الدراسة إن كان يرغب في القيام ببحث مماثل، مما سيسمح باختبار النتائج التي توصلت إليها الدراسة في المستقبل.

• مكان جمع المعطيات.

• إجراءات تحليل المعطيات: ما هي النظرية الكيفية التي اعتمدتها لدراسة





موضوعك ولماذا اخترتها دون غيرها (النظرية المتجذرة في الواقع، المقاربة الفينومينولوجية، المقاربة التفاعلية، المقاربة الإتنوميتودولوجية، المقاربة النسائية، الخ)؟

• توضيح الصعوبات: لا يجري البحث في فراغ، وإنما يندرج في سياق اجتماعي معين له خصوصياته ومحدداته. ولذلك فإن أي بحث تعترضه صعوبات معينة، سواء صعوبات عملية، من قبيل دخول الميدان والتفاوض مع المبحوثين حول المكانة التي سيشغلها في حقل الدراسة والإكراهات المؤسساتية، الخ؛ أو صعوبات ترتبط بالإطار المفاهيمي أو مناهج البحث. يجب على الباحث أن يعرض هذه الصعوبات لسببين: أولا، يعطي ذلك للقراء إمكانية تحديد درجة موثوقية ومصداقية النتائج المحصل عليها؛ وثانيا، بما أن البحث يساهم في التراكم التدريجي للمعرفة السوسيولوجية، فإن من شأن شرح الصعوبات أن يشكل جزءاً من المعرفة المتعلقة بالشروط المؤسساتية والاجتماعية التي تجري فيها البحوث والدراسات، وبالتالي التفكير في حلول لها.

وارتباطاً بهذه النقطة، يمكن للباحث أن يخبر القارئ بكيفية الجمع بين المناهج والأهمية الإجرائية لهذا الجمع؛ أو بكيفية التصرف في إجراء المقابلات من أجل جعلها أكثر نجاعة في ظروف صعبة؛ أو بنوع من المناهج التي تستعمل عادة في تخصص معرفي آخر لكنها غير معروفة بما فيه الكفاية في تخصصه. وعلى العموم، يجب على الباحث أن يظهر للقارئ أهمية المناهج الذي استعملها في هذا الموضوع بالضبط.

6. عرض النتائج ومناقشتها

إن الجزء الأساسي في المقال الكيفي هو الذي يخص تنظيم المعطيات قصد عرضها وتأويلها. فالمقالات الكيفية نصوص تقوم على الاستدلال والبرهنة، ولذلك فمن الأهمية بمكان التفكير في كيفية تنظيم المعطيات وعرضها واستعمالها من أجل بناء برهنة جيدة.



يتميز البحث الكيفي بإنتاجه لحجم كبير من المعطيات المتمثل في مئات أو آلاف الصفحات من المقابلات المنسوخة أو الملاحظات الميدانية أو الوثائق بمختلف أشكالها. هذه التلال من المعطيات تطرح علينا مشكلة كيفية تقديمها في مقال محكوم بإكراه ضيف مساحة النشر. كما تطرح علينا مسألة كيفية تقديمها على نحو يجعل القارئ يلتزم بقراءة قصتنا إلى نهايتها. أمام هذه المعضلة، قدم المتخصصون في البحث الكيفي مجموعة من الحلول التي تتميز بالجدة والوجاهة. فلم يعد الباحثون يقدمون «النتائج» في قسم خاص يحمل هذا العنوان. كما لم يعودوا يقدمون كل المعطيات في جداول. ولم يعودوا يقدمون أطرهم النظرية في بداية المقال. سنقدم في هذا الجزء أربع طرق جديدة لعرض المعطيات.

إذا كنت قد تتبعت جيداً مراحل تحليل المعطيات التي عرضناها سابقاً، فستكون قد وفرت مادة منظمة صالحة لأن تستخلص منها النتائج. إذا كنت قد قمت بترميز منهجي لمعطياتك انطلاقا من المقولات التي استخلصتها من المعطيات، ستكون قد جمعت الاقتباسات أو الملاحظات الميدانية التي يمكن أن تغني بها نتائج بحثك. وأفترض أنك قمت بذلك.

عندما يكون الباحث بصدد عرض عمله الميداني بواسطة مقتطفات من المعطيات، فإنه يكون أمام فرصة لربط الميدان (أي الواقع الاجتماعي) بالنظرية (أي المجال الأكاديمي)؛ ويعني ذلك أنه ينظر إلى اتجاهين: إلى أشكال وعمليات الحياة الاجتماعية من جهة، ومن جهة أخرى إلى أدبيات التخصص الأكاديمي. يؤكد الناقد الأدبي واين بوث على العلاقة القائمة بين بسط المعطيات واستخراج دلالتها النظرية، ويميز ارتباطا بذلك بين «العرض» و«الإخبار». ويشرح أن «مراكمة التفاصيل الدقيقة الملاحظة لا يمكنها أن ترضينا لمدة طويلة: إذ لا يمكن لهذه التفاصيل أن تثير اهتمامنا إلا إذا كانت تخبر بشيء ما، أي إلا إذا كانت محملة بدلالة»[28]. فنحن نعرض المعطيات ونخبر بمعناها، بمعنى

28 – Booth, W. C.,The Rhetoric of Fiction, Chicago: University of Chocago Press, 1961, p. 114.





أننا نفكر نظرياً في قطع الحياة التي نعرض. وهذا ما يسمى اقتران النظرية بالمعطيات.

كيف يمكن الربط بين العالم الأكاديمي وعالم الميدان من أجل البناء النظري لرؤى يعتبرها القراء المتخصصون مساهمة في المعرفة العلمية؟ قدم منظرو البحث الكيفي وممارسوه استراتيجيات عديدة لإنجاح عملية ربط النظرية بالمعطيات، منها ما يدخل في خانة الاستراتيجيات المعيارية (أو التقليدية)، ومنها ما جاء لتجديد أسلوب الكتابة التقليدي. لكننا نقتصر عنا على عرض طرق الكتابة الحديثة التي تأثرت بما يسمى «المنعطف السردي» في الكتابة السوسيولوجية والأنثروبولوجية.

ترى غولدن-بايدل ولوك[29] أن القصص توفر لمقالنا بنية سردية يستطيع بواسطتها تنظيم الأحداث والأفكار وفقاً لتعاقبات زمنية للماضي والحاضر والمستقبل. من المفيد أن نتصور عملنا الأكاديمي (المقال مثلا) كقصة قصيرة غير خيالية، أي ترتكز على أحداث واقعية تم بناؤها بطريقة تجعلها تتناسب مع عدد قليل من الصفحات. إن الربط بين هذه الأحداث بطريقة دالة هو ما نسميه القصة التي يتم بناؤها كتأزيم وتطوير وحل. التأزيم ينطوي على مشاكل تعترض شخصا (أو أشخاصا) وتربكه؛ ويتعلق التطوير بالجهود التي يبذلها الشخص وكل المنعطفات التي تنبثق من مناقشة التأزيم؛ ويتعلق الحل بتغير معين يمس الشخص أو الوضعية ويمكن اعتباره تغيراً إيجابياً أو سلبياً يمكن أن يقلص من التوتر.

يمكن تطبيق المنظور السردي على كتابة المقال السوسيولوجي. بحيث يمكن للباحث أن يصنع قصة خاضعة للتنظير. إن عملية الكتابة موجهة بالضرورة إلى تحويل عملنا في الميدان إلى رؤى وأفكار نظرية ونقلها إلى جمهور المتخصصين.

29 – Golden–Biddle, K. and Locke, K.,Composing Qualitative Research, 2nd Ed., Thousand Oaks, London, New Delhi: Sage Publications, 2007, pp. 25–26.





والمقصود بالقصة الخاضعة للتنظير صياغة قصة تربط الميدان بالعالم الأكاديمي بواسطة أفكار مسرودة تنسجم مع انخراطنا في الميدان:

> إن (ظ) ظاهرة مهمة. تعتقد الأدبيات المتوفرة (ق) حول (ظ). إلا أن (ظ) في الواقع أكثر تعقيدا مما يوحي به (ق)؛ ذلك أن (ق) لا تقول كل شيء. إن هذه النظرة الأكثر غنى إلى (ظ) مهمة جداً نظراً لأن... وتساعدنا دراستنا على الحصول على مجموعة من الأفكار المتبصرة التي ينبغي إدخالها في تصورنا لــ(ظ). وإذا تبنينا هذه الرؤى ذات الوجاهة النظرية، سيكون بمقدورنا تقديم تفسير أفضل لــ(ظ) أو النظر إليه بشكل مختلف عن النظرات السابقة.

نقوم بتأزيم الوضعية في بداية القصة (تأزيم الميدان)، حيث نضع تصورنا السابق لــ(ظ) في موضع تساؤل. (ق) لا يقول كل شيء عن (ظ) (تأزيم الأدبيات السابقة). وباستعمالنا للرؤى الأكثر غنى التي توفرها دراستنا من أجل معالجة ما لا يقوله (ق) (تطوير القصة)، سنقدم وجهة نظرة أكثر ملاءمة لــ(ظ) (الحل).

تقترح ساري نوب بيلكلين وروني كاستيلا[30] مجموعة من التكتيكات التي يمكن للباحث اعتمادها في بناء قصة تتكون من قطع من الواقع التجريبي (المعطيات) ومن الواقع الأكاديمي (النظرية):

- التنظيم الموضوعاتي: إن إحدى استراتيجيات القيام بهذه المهمة بطريقة جديرة بالثقة هي تقسيم هذا القسم حسب المقولات التي استخرجتها وفقاً لأهداف دراستك وفي انسجام مع المقاربة التي اخترت اعتمادها[31]. إن الأولوية

30 – Bilklen, S. K. and Castella, R.,A Practical Guide to the Qualitative Dissertation, New York and London: Teachers College Press, 2007.

31 – راجع الفصل الخاص بمقاربات تحليل المعطيات الكيفية (الفصل الثامن) والفصل الخاص بتقنيات تحليلها (الفصل السابع) في هذا الكتاب.







في البحث السوسيولوجي العلمي (الكمي والكيفي) تعطى للإستراتيجية التي سيم تبنيها لتقديم المعطيات بشكل منطقي ودال وبصورة واضحة ومفهومة. غير أن هذه العملية تقوم في البحثين الكمي والكيفي على عناصر مختلفة: إذا كان تنظيم كيفية عرض نتائج البحث الكمي يتم على أساس الفرضيات، فإنه في البحث الكمي يستعمل المقولات أو التيمات الأساسية كعناوين في القسم المخصص لعرض النتائج وتأويلها.

• التنظيم تبعا لنوع المعطيات: إذا كنت قد استعملت أنواعاً مختلفة من المعطيات (تاريخية، ملاحظات ميدانية، مقابلات، صور، فيديوهات، الخ)، يمكن لك تقسيم المجال الذي ستعرض فيه النتائج وتؤولها تبعاً لهذه الأنواع.



• التنظيم الكرونولوجي: إذا أنجزت بحثاً يتمحور حول دراسة حالة تغطي مدة زمنية طويلة نسبياً، يمكنك تنظيم قسم النتائج كرونولوجياً: فإذا أردت مثلا أن تدرس كيف تحول شخص إلى قيادي في مؤسسة سياسية أو مدنية أو اقتصادية، يمكن أن تقسم معطياتك تبعاً لأهم المحطات التاريخية التي مر منها هذا الشخص ولعبت دوراً حاسماً في تحديد مساره الشخصي. والمقصود بذلك أنه يمكن لك أن تأخذ بعين الاعتبار فكرة المسار (career) الذي يعرفه هوارد بيكر بأنه سلسلة من المراحل التي يقطعها الناس للمساهمة في أسلوب حياة معين. وبالتالي فإن المسار يوثق لمراحل الانخراط ويحيل أيضاً إلى تشكل هوية معينة أو كيف تغيرت عبر الزمن.

• التنظيم المتواصل: يمكن تقسيم المجال المخصص لتقديم نتائج البحث وتأويلها إلى أجزاء، كل جزء منها يتعلق بتيمة أو مقولة معينة، لكن هذه الأجزاء تظل مترابطة فيما بينها ولو أن كل جزء منها يتحدث عن موضوع مختلف. ومعنى ذلك أنه ينبغي النظر إلى قسم النتائج ككل وتقسيمه إلى أجزاء مترابطة.





7. الخلاصة

يتضمن القسم المخصص للخلاصات التي تستنتجها تقديماً موجزاً لما حاولت البرهنة عليه، أي القصة التي رويتها، وكيف سردت هذه القصة في مقالك. إن الخلاصة الجيدة تلخص وتبني وتراجع ما قمت بعرضه ومناقشته في القسم المخصص لتقديم النتائج ومناقشتها.

وينبغي أن يحتوي هذا الجزء من المقال على مناقشة بحوث إضافية يقترح مقالك ضرورة القيام بها مستقبلا.







خاتمة

ينطلق هذا المؤلف من موقف معرفي عام ينفي أي إمكانية لاعتبار المنهج (الميتودولوجيا) فرعا من فروع المعرفة، يمكن تناوله بمعزل عن أي خلفية فلسفية أو موقع اجتماعي. «فالمواقف المتعلقة بقضايا المعرفة، عموما، لها علاقة وطيدة بالأسس الفلسفية، أكثر منها بالصعوبات والعوائق التي تعترض الباحث أثناء قيامه بالبحث العلمي ذاته.»[1] «ولأن قضايا المنطق والإبيستيمولوجيا تطرح باستمرار أسئلة منهجية، فإن المنهج، في دلالته العامة، لا يعتبر فرعا مستقلا.»[2]

في هذا الإطار من الترابط بين القضايا الإبستيمولوجية، والأسئلة المنهجية (الميتودولوجية) يمكن فهم القصد الذي نرمي إليه من تأليفنا لهذا الكتاب. فلا ريب إن القضايا الإبستيمولوجية تلقي بظلالها على المشاكل الكبرى التي تطرحها الميتودولوجيا وتقنيات البحث، لاسيما إذا علمنا أن التقنيات الأكثر انتشارا في البحوث السوسيولوجية الميدانية- ونقصد الاستمارة والمقابلة- لا تخلو من كل اعتبارات إبستيمولوجية، على الرغم من أي محاولة لحصر الاختلاف في مستويات دقة القياس.

إن الاستمارة تقنية من تقنيات البحث، يسعى الفكر من خلالها، برغبة جامحة، إلى القبض على الموحد ونبذ المختلف. وهي تقنية تلائم كثيرا من

1 – Grawitz, M., Méthode des sciences sociales, édition Dalloz, 1996, pp. 14-15.

2 – ibidem, p.15.



الأطروحات التي تشكل، مجتمعة، تيارا معرفيا عريضا يعتبر أن تفكير الإنسان يتأطر ضمن عقلانية وحيدة، يساعد التطور الصناعي والفردانية الليبرالية على ترسيخها واقعيا وفكريا. هذا بينما تهتم المقابلة بإبراز المختلف، والكشف عن الخصوصيات؛ بحيث لا تعمل على اختزال الإنسان في بعده المعرفي فحسب، وإنما تتعداه إلى الأبعاد الوجدانية، والحس-حركية.

إن المغزى العميق للتحليل الكيفي يكمن أساسا في الكشف عن حدود الإبيستيمولوجيا الوضعية، وإعادة النظر فيها. وهنا تكمن أهمية تقنيات من قبيل المقابلة والمجموعة البؤرية والسيرة الذاتية والبحث الإثنوغرافي، التي تعنى بفهم الطرق التي تتشكل بها المعاني المشتركة من خلال تحليل تجارب معيشة، وذلك في مقابل تقنية الاستمارة أو المسوحات الإحصائية العامة التي لا تهتم سوى بالاتجاهات العامة للسلوك وتيارات الرأي والإنتظامات الإحصائية العامة.

أكيد إن السلوكات، والأحاسيس، والميول محددة اجتماعيا، وأهم الأفعال والسلوكات لا تنجم عن أفراد يعيشون في عزلة تامة عن بيئتهم، وعن بعضهم البعض. غير أن هذا الأمر لا يمنع من أن هذه الظواهر لا يمكن أن تعالج إلا في صورتها الفردية. وبالتالي، فإن كان هناك من لزوم للحرص، فينبغي أن يتحقق على مستوى التركيب؛ أي في اللحظة التي نسعى فيها إلى التأليف بين آراء الأفراد وسيرهم الذاتية، وصهرها في بوتقة واحدة. وهنا يكمن الدور الحاسم للنموذج النظري الذي يعيننا على التأويل، وإلا فإننا لن نكون قد عملنا، عندئذ، سوى على تجميع آراء متناثرة من شأنها أن تفتت الديناميكية الاجتماعية.»[3]

إن النماذج النظرية التي تعيننا على التحليل الكيفي للسلوكات والممارسات الاجتماعية، تمنح الباحث هامشا واسعا ومهما لتأويل السلوك، وتمكنه من النفاذ

3 – Ghiglione, R. et Matalon, B., Les enquêtes sociologiques: Théories et pratique, Armand colin, 4e édition, Paris, 1977, pp.9–10.



إلى الجوانب الأقل استقرارا وثباتا من الظاهرة. بصيغة أخرى، يعتبر التحليل الكيفي المنهج الأكثر ملاءمة لمقاربة وضعيات صغرى تزخر بما كانت تدرجه النظريات الكلاسيكية- في إطار بحثها المستمر عن الإمساك بالثوابت العامة للسلوك الإنساني- في خانة الطوارئ، أو الاستثناءات.

وانسجاما ومقتضيات إبستيمولوجية تضرب بجذورها في مسلمات الفلسفة الفينومينولوجية، فإن البحث الكيفي في نظرنا لا تقوم له قائمة إلا إذا تخلص الباحث من كل نزعة معيارية، واتجه بالمقابل نحو بناء نماذج تحليل انطلاقا من معطيات الواقع، من شأنها أن تسمو بالأفعال الفردية التي يطبعها الجواز إلى مستوى الأفعال الجماعية التي تتميز بالانتظام. ولعل في هذا الرأي ما يتصل بالموقف العام الذي تتبناه الإثنوميتودولوجيا، والذي يعتبر أن الحس المشترك نفسه يملك سوسيولوجيته الخاصة به، وهي محايثة لأفعاله؛ بحيث يكفي أن نعرف كيف نستقيها من السلوكات اليومية للناس.

بتبنينا لهذا الموقف نكون على طرف نقيض من الباحث الكلاسيكي الذي يشترط، في بناء نموذجه النظري، الابتعاد عن الحس المشترك، والقطع معه في مستوى أول، ثم العودة في مستوى ثان إلى الميدان من أجل التحقق من فروضه. ففضلا عما يمنحه هذا المنطق من سلطة للباحث على حساب المبحوث، فإنه يسلم- على نحو قبلي غير مبرر- بأن الباحث بإمكانه أن يقف وجها لوجه أمام الواقع الاجتماعي الخام.

وطالما أن الوقوف أمام الحقيقة الاجتماعية مسألة مستحيلة، فإن السوسيولوجيا لن تكون عندئذ سوى بناء من الدرجة الثانية؛ أي بناء لبناء. وهذا يقضي أولا بالكشف عن إواليات البناء الأول؛ أي سوسيولوجيا الحس المشترك، ثم تحويل هذه السوسيولوجيا الإمبيريقية إلى نظرية عن طريق النمذجة.

بيبليوغرافيا

Adler, P., «Researching Dealers and Smugglers», in Constructions of Deviance: Social Power, Context, and Interaction, 2nd ed., P. A. Adler and P. Adler (eds.), Belmont, CA: Wadsworth, 1997: 55–70.

Adler, P.A. and Adler, P., Membership Roles in Field Research,Beverly Hills, CA: Sage Publications, 1987.

Arber, S., «Designing Samples», In N. Gilbert (ed.), Researching Social Life, London: Sage, 1993: 68–92, p. 73.

Arkan, S. E. and Cohn, S. F., «Racial Prejudice and Support for the Death Penaltyby Whites»,Journal of Research in Crime and Delinquency, 31, 1994: 202–209.

Atkinson, P. and Silverman, D., «Kundera's Immorality: The Interview Society and the Invention of Self», Qualitative Inquiry, 3(3) 1977: 324–345.

Auerbach, C. F. and Silverstein, L. B, Qualitative Data. An Introduction to coding and Analysis, New York and London: New York University Press, 2003.

Babbie, E.,The Basics of Social Research, 6th Ed., Belmont, CA: Wadsworth Thomson, 2014.

Ball, S.J. and Vincent, C., «'I heard it on grapevine' : 'hot' knowledge and school choice», British Journal of Sociology of Education, 19(3), 1995: 377–400.



Barbour, R. S., «Quality of data analysis», In U. Flick (Ed.), The SAGE Handbook of Qualitative DataAnalysis (pp. 496–509), London, UK: Sage, 2014.

Baszanger, I. and Dodier, N., « Ethnography: Relating the Part to the Whole»,in D. Silverman (ed.),Qualitative Research: Theory, Method and Practice, London: Sage, 1997: 8-23.

Bateson, G., Birdwhistell, R. et autres, la nouvelle communication, Textes recueillis et présentés par Yves Winkin, Paris, Ed. du Seuil, 1981.

Bateson, G., Vers une écologie de l'esprit, T1, traduit de l'Anglais par Ferial Drosso, Laurencine Lot et Eugène Simon, Paris, Editions du Seuil, 1977.

Becker, H., Writing for Social Scientists, Chicago: University of Chicago Press, 1986.

Beiser, G., La gravitation de Copernic à Einstein, Paris, Nouveaux horizons, 1975.

Berg, B. L.,Qualitative Research Methods for the Social Sciences, 4th ed., Boston: Allyn & Bacon, 2001.

Bernard, H.R.,Social Research Methods, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2000.

Bernerd, H.R.,Research Methods in Cultural Anthropology, London: Sage Publications, 1988.

Bertaux, D., «From the Life-History Approach to the Transformation of Sociological Practice», in D. Bertaux (ed.), Biography and Society: The Life History Approach in the Social Sciences, London: Sage Publications, 1981: 29-45.

Bilklen, S. K. and Castella, R.,A Practical Guide to the Qualitative Dissertation, New York and London: Teachers College Press, 2007.





Blalock, H. M., Social Statistics, London: McGraw–Hill, 1960.

Bloor, M. and Wood, F.,Keywords in Qualitative Methods. A Vocabulary of Research Concepts, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2006, p. 88.

Bloor, M., Frankland, J., Thomas, M. and Robson, K., Focus Groups in SocialResearch,Thousand Oaks, CA:Sage Publications, 2001.

Blumer, H., Symbolic Interactionism: Perspective and Method, Englewood Cliffs,NJ: Prentice Hall, 1969.

Bogdan, R. C. and Biklen, S. K., Qualitative Research for Education: An Introduction to Theories and Methods, Boston: Pearson, 2007.

Bogden, R., Participant observation in organizational settings, Syracuse,New York: Syracuse University Press, 1972.

Booth, W. C.,The Rhetoric of Fiction, Chicago: University of Chocago Press, 1961.

Boyatzis, R. E., TransformingQualitative Information: ThematicAnalysis and Code Development, ThousandOaks, CA: Sage, 1998.

Bradley, E. H., Curry, L. A. and Devers, K. J., «Qualitative Data Analysis for Health Services Research: Developing Taxonomy, Themes, and Theory»,Health Services Research, 42 (4), 2007: 1758–1772.

Brannen, J., «Expert Voices», In S.E. Baker & R.Edwards (eds), How Many Qualitative Interviews is Enough? NationalCentre for Research Methods Review Discussion Paper, 2012.

Briggs, C.L.,Learning How to Ask: A Sociolinguistic Appraisal of the Interview in Social Science Research, Cambridge: Cambridge University Press, 1986.



Bryman, A., Quantity and Quality in Social Research, London: Sage, 1998.

Burgess, R.G. In the Field: An Introduction to Field Research, London: Routledge, 1984.

Charmaz, K., Constructing grounded theory: A practical guide through qualitative analysis, Thousand Oaks, CA: Sage, 2006.

Clarke, M., «Survival in the Field: Implications of Personal Experience in the Field»,Theoryand Society, 2, 1975: 95–123.

Cook,T.D.,and Diamond,S.,An Introduction to Field Experiments. UnpublishedManuscript,Evanston, IL: Northwestern University, 1972.

Corbetta, P.,Social Research: Theory, Methods and Techniques, translated by B. Patrick, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2003.

Coulon, A., L'école de Chicago, Paris, PUF, coll. «Que sais–je», 1992.

Crano, W.D. and Brewer, M.B.,Principles and Methods of Social Research, Mahwah, New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates, 2002.

Creswell, J,QualitativeInquiry and Research Design: Choosing Among Five Traditions, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1998.

Creswell, J.W.,Research Design. Qualitative, Quantitative, and Mixed Methods Approaches, 3th ed., Los Angeles & London: Sage Publications, 2009.

Crouch, M. and McKenzie, H., «The Logic of Small Samples in Interview Based Qualitative Research»,Social Science Information, 45(4), 2006: 483–499.



Dabbs, J. M, Jr., «Making Things Visible», In J. Van Maanen (ed), Varieties of QualitativeResearch, Beverly Hills, CA: Sage Publications, 1982.

Day, A., How to Get Work Published in Journals, Aldershot: Gower, 1996.

De Coster, M., Introduction à la sociologie, 3 édition, De Boeck-Wesmael, s.a., 1992.

Delamont, S., «Ethnographie and Participant Observation», in C. Seale, G. Gobo, J.F. Gubrium and D. Silverman (eds.), Qualitative Research Practice, Thousand Oaks, CA, Sage Publications, 2004: 205-217.

Denzen N. and Lincoln Y. (eds.), Handbook of Qualitative Research, 2nd ed., Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2000.

DeVault, M. L., «Ethnicity and Expertise: Racial-Ethnic knowledge in SociologicalResearch »,Gender & Society, 9, 1995: 612–631.

Dey, I., Qualitative Data Analysis, London: Routledge, 1990.

Dey, I., Qulaitative DataAnalysis. A User-Friendly Guide for Social Scientists, London and New York: Routledge, 2005.

Duhem, P., La théorie physique : son objet et sa structure, Paris, Chevalier & Rivière Editeurs, 1906.

Dumont, J.-P.,The Headman and I: Ambiguity and Ambivalence in the Fieldwork Experience, Austin: University of Texas Press, 1978.

Duncombe, J. and Marsden, D., «Can We Research the Private Sphere?Methodological and Ethical Problems in the Study of the Role of IntimateEmotion in Personal Relationships», in L. Morris and E. Stina Lyon (eds.), GenderRelations in Public and in Private: New Research Perspectives, Explorations inSociology 43, British Sociological Association, London: Macmillan, 1996.



Elmore, M., “Bloody Boundaries: Animal Sacrifice and the Labor of Religion”, in M. Dressler and A-P. Mandair (eds.), Secularism and Religion-Making, Oxford: Oxford University Press, 2011.

Emerson, R., Contemporary Field Research: Perspectives and Formulations, (2nd ed.), Long Grove: Waveland Press, 2001.

Fielding, N., «Qualitative Interviewing», In N. Gilbert(ed.), Researching Social Life, London: Sage, 1993: 135–153.

Fine, G. A., «The Ten Commandments of Wrinting», American Sociologist, 19(2), 1988: 152-157.

Fitzgerald, J. D. and Cox, S. M., Research Methods and Statistics in Criminal Justice: An Introduction, Chicago : Nelson-Hall, 1994.

Flick, U.,An Introduction to Qualitative Research, 4th ed., Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2009.

Folch-Lyon, E., de la Macorra, L. and Schearer, S.B., «Focus Group and Survey Research onFamily Planning in Mexico»,Studies in Family Planning, 12, 1981: 409–432.

Fontana, A. and Frey, J., «Interviewing: The Art of Science», in Denzen N. and Y. Lincoln (eds.), Handbook of Qualitative Research, 2nd ed., Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2000: 361-376.

Fontana, A. and Frey, J., «The Interview: From Structured Questions to Negotiated Text», in Denzen N. and Y. Lincoln (eds.), Handbook of Qualitative Research, 2nd ed., Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2000: 645-671.

Fowler, F.J., «Reducing Interviewer-Related Error through Interviewer Training,Supervision, and Other Means», in P.P. Biemer, R.M. Groves, L.E. Lyberg, N.A.Mathiowetz and S. Sudman (eds.), Measurement Errors in Surveys, NewYork: John Wiley, 1991: 269–278.





Ghiglione, R. et Matalon, B., Les enquêtes sociologiques: Théories et pratique, Armand colin, 4e édition, Paris, 1977.

Gibson, W., and Brown, A., Working with Qualitative Data, London, UK: Sage, 2009.

Glaser, B.G. and Strauss, A.L.,The Discovery of Grounded Theory: Strategies for Qualitative Research, Chicago: Aldine Transaction, 2012.

Goffman, E., Asiles. Études sur la condition sociale des malades mentaux et autres reclus, trad. de Liliane et Claude Lainé, Éditions de Minuit, Paris, 1979.

Golden–Biddle, K. and Locke, K.,Composing Qualitative Research, 2nd Ed., Thousand Oaks, London, New Delhi: Sage Publications, 2007.

Goldman, A.E. and Schwartz McDonald, S.,The Group Depth Interview: Principles andPractice, Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1987.

Grafmeyer, Y. et Joseph, I., L'Ecole de Chicago: naissance de l'écologie urbaine, Paris Flammarion, 2004.

Gray, P.S., Williamson, J.B., Karp, A.D. and Dalphin, J.R.,The Research Imagination. An Introduction to Qualitative and Quantitative Methods, New York: Cambridge University Press, 2007.

Greenbaum, T.L.,Moderating Focus Groups: A Practical Guide for Group Facilitation, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2000.

Greenbaum, T.L.,The Handbook for Focus Group Research (2nd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1998.



Gubrium, J. and Holstein, J., «From the Individual Interview to Interview Society», in J. Gubrium and J. Holstein (eds.), Handbook of Interview Research: Context and Method, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2002: 3–32.

Gubrium, J., «Recognizing and Analyzing Local Cultures», In W. B. Shaffir &R. A. Stebbins (Eds.), Experiencing Fieldwork: An Inside View of Qualitative Research, Newbury Park, CA: Sage, 1991: 131–142.

Guest, G., Bunce, A. and Johnson, L., «How manyinterviews are enough? An experiment with data saturationand variability»,Field Methods, 18 (1), 2006: 59–82.

Hammersley and Atkinson, Ethnography: Principles in Practice, 3rd ed., London: Routledge, 2007.

Hammersley, M.,What's Wrong with Ethnography?, London: Routledge., 1992.

Henn, M., Weinstein, M. and Foard, N.,A Short Introduction to Social Research, London, Thousand Oaks and New Dalhi: Sage Publications, 2006.

Henn, M., Weinstein, M. and Wring, M., «A Generation Apart? Youth and Political Participation in Britain», The British Journal of Politics and International Relations, 4 (2), 2002: pp.167–192.

Henn, M., Weinstein, M. and Wring, M., «A Generation Apart? Youth and Political Participation in Britain», The British Journal of Politics and International Relations, 4 (2), 2002: pp.167–192.

Heyl, B.S., «Ethnographic Interviewing», in Handbook of Ethnography,P. Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland and L. Lofland (eds.), London:Sage Publications, 2001: 369–383.


Holstein, A.J. and Gubrium, J.F., Inside Interviewing. New Lenses, New Concerns, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2003.

Holstein, J. and Gubrium, J., The Active Interview,Thousand Oaks, CA: Sage, 1995.

Isabelle, L. A., «Evolving Interpretations as a Change Unfolds: How Managers Condtrue Key Organizational Events», Academy of Management Journal, 33, 1990: 7–41.

Jette, D.J., Grover, L. and Keck, C.P., «A Qualitative Study of Clinical Decision Making in Recommending Discharge Placement from the Acute Care Setting»,Physical Therapy, 83(3), 2003: 224–236.

Johnson, J. M., Doing Field Research, New York, NY: Free Press, 1975.

Johnson, J.M., «In–depth Interviewing», in J. Gubrium and J. Holstein (eds.), Handbook of Interview Research: Context and Method, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2002:pp. 103–119.

Josselson, R., Interviewing for Qualitative Inquiry. A Relational Approach, New York & London: The Guilford Press, 2003.

Junker, B. H., Field Work,Chicago: University of Chicago Press, 1960.

Kaplan, A.,The Conduct of Enquiry: Methodology for Behavioural Science,San Francisco: Chandler, 1964: p. 91.

Kitzinger, J. and Barbour, R., «Introduction: The Challenge and Promise ofFocus Groups», in R. Barbourand J. Kitzinger (eds), Developing Focus Group Research: Politics, Theory and Practice, London: Sage Publications.



Kitzinger, J., «Focus Groups: Method or Madness?», in M. Boulton (ed., Challenge and Innovation: Methodological Advances in Social Research on HIV/AIDS, London: Taylor and Francis, 1994.

Kowal, S., and O'Connell, D. C., «Transcription as a Crucial Step of Data Analysis», In U. Flick (Ed.),The SAGE Handbook of Qualitative Data Analysis (pp. 64–78), London, UK: Sage, 2014.

Kress, G., Jewitt, C., Bourne, J., Franks, A., Hardcastle, J., Jones, K., and Reid, E., English inUrban Classrooms: A Multimodal Perspective on Teaching and Learning, London, UK: Routledge Falmer, 2005.

Krueger, R.A.Focus Groups: A Practical Guide for Applied Research (2nd ed.), Thousand Oaks, 1994.

Langan, L., Exploring Writing. Sentences and Paragraphs, 2nd ed., New York: McGraw Hill, 2008.

Latour, B., Science in Action: How to Follow Scientists and Engineers through Society, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1987.

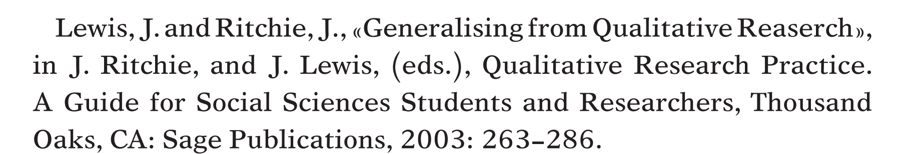
Law, J. and Williams, R., «Putting the Facts Together: A Study of Scientific Persuasion», Social Studies of Science, 12, 1982: 535-558.

LeCompte, M. and Schensul, J., Designing and Conducting Ethnography Research, Maryland: AltaMira Press, 2010.

Lee, D., Woo, J. and Mackenzie, A.E., «The Cultural Context of Adjusting to Nursing Home Life: Chinese Elders' Perspectives»,The Gerontologist, 42(5), 2002: 667-675.

Lengua, L. J., Roosa, M. W.., Schupak-Neuberg, E., Michaeles, M. L., Berg, C. N., and Weschler, L. F. «Using Focus Groups to Guide the Development of a Parenting Program for Difficult-to-Research, High-Risk Families»,Family Relations, 41, 1992: 163-168.




Lewis, J. and Ritchie, J., «Generalising from Qualitative Reaserch», in J. Ritchie, and J. Lewis, (eds.), Qualitative Research Practice. A Guide for Social Sciences Students and Researchers, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2003: 263-286.

Lofland, J., Snow, D. A., Anderson, L., Lofland, L. H.,Analyzing Social Settings: A Guide to Qualitative Observation and Analysis, (4th ed.), Belmont, CA : Wadsworth Thomson, 2006, pp. 195-196.

Lunenberg, F. C. and Irby, B. J., Writing a Successful Thesis or Dissertation, Thousand Oaks, CA: Crowin Press, 2008.

Lyne, J., «Angels in the Architecture: A Burkean inventional Perspective on 'Spandrels'», In J. Slzer (Ed.), Understanding Scientific Prose, Madison: University of Wisconsin Press, 1993: 144-158.

Maccoby, E. E.& Maccoby, N., «The Interview:A tool of Social Science», In G. Lindzey (ed.),Handbook of Social Psychology: Vol. 1. Theoryand method,Reading, MA: Addison-Wesley, 1954: 449-487.

Macintyre, M., «Fictive Kinship or Mistaken Identity: Fieldwork on Tubetube Island,Papua New Guinea», in D. Bell, P. Caplan, and W. K. Jarim (eds),Gendered Fields:Women, Men and Ethnography,London: Routledge, 1993: 44–62.

Mack, N., Woodsong, C., MacQueen, K.M., Guest, G. and Namey, E., Qualitative Research Methods: A Data Collector's Field Guide, North Carolina: Family Health International, 2005.

Macnaghten, P. and Myers, G., «Focus Group», in C. Seale, G. Gobo, J.F. Gaberium and D. Silverman (eds.), Qualitative Research Practice, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2004.

Man, C. and Stewart, F., «Internet Interviewing», in J. Gabrium and J. Holstein (eds.), Handbook of Interview Research: Context and Method, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2002: 603-628.



Mason, J., Qualitative Interviewing, London: Sage, 1996.

Mavasti, Qualitative Research in Sociology: An Introduction, Thousand Oaks, CA.: Sage, 2004.

May, T., Social Research: Issues, Methods and process, 3rd ed., Buchkingham: Open University Press, 2001.

Maykut, P. and Morehouse, R., Beginning Qualitative Research. A Philosophic and Practical Guide, London & Washington, D.C.: The Falmer Press, 1994.

Merton, R. and Kendall, P., «The focused interview», American Journal of Sociology, 51, 1946: 541–557.

Michell, L., «Combining Focus Groups and Interviews: Telling How It Is;Telling How It Feels», in R. Barbour and J. Kitzinger (eds),DevelopingFocus GroupResearch: Politics, Theory and Practice, London: Sage Publications, 1999.

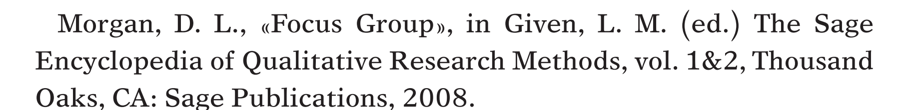
Miles, M. B. et Huberman, A. M., Analyse des données qualitatives, 2e édition, De Boeck & Larcier s.a, 2003.

Miles, M. B., Huberman, A. M., & Saldaña, J., Qualitative Data Analysis: A Methods Sourcebook, Thousand Oaks, CA: Sage, 2014.

Miles, M.B. and Huberman, A.M., Qualitative Data Analysis: A Sourcebook of New Methods, 3rd ed., Thousand Oaks, CA: Sage, 2014.

Miles, M.B., Huberman, A.M. and Saldaña, J., Qualitative Data Analysis: A Methods Soucebook,2nd ed., Thousand Oaks, CA: Sage, 2012..

Morgan, D. L., Focus Groups as Qualitative Research,Newbury Park, CA: Sage Publications, 1989.


Morgan, D. L., «Focus Group», in Given, L. M. (ed.) The Sage Encyclopedia of Qualitative Research Methods, vol. 1&2, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2008.

Morgan, D., «Why Things (Sometimes) Go Wrong in Focus Groups», Qualitative Health Research, 5 (4), 1995: 516–523.

Morgan, D.L. (ed.), Successful Focus Groups: Advancing the State of the Art, Newbury Park, CA: Sage Publications,1993.

Morgan, D.L.,The Focus Group Guidebook(Focus Group Kit, vol.1), Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1998.

Moriarty, T., «Crime, Commitment, and the Responsive Bystander: Two Field Experiments», Journal of Personality and Social Psychology, 31, 1975: 370—376.

Morse, J. and Richards, L., README FIRST for a User's Guide to Qualitative Methods, Thousand Oaks, CA: Sage, 2002.

Morse, J.M., «Designing Funded Qualitative Research», In N.K. Denzin and Y.S. Lincoln (eds.), Handbook of Qualitative Research, 2nd ed., Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1994: 220–235.

Morse, J.M., «Determining Sample Size»,Qualitative Health Research, 10(1), 2000: 3–5, p.4.

Mottez, B., La sociologie industrielle, Pris, PUF, 1975.

Moustakas, C.,"Phenomenological Research Methods", in N.K. Denzin and Y.S. Lincoln (eds.), Handbook of Qualitative Research, 2nd ed., Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2000, 220–235.

Mucchielli, A., Dictionnaire des méthodes qualitatives en sciences humaines, Paris, Armand Colin, 3ème édition, 2009.

Neuman, W. L.,Social Research Methods: Qualitative and Quantitative Approaches, 7thed., Essex: Pearson, 2014.



Paillé, P. et Mucchielli, A., L'analyse qualitative en sciences humaines et sociales, Paris, Armand colin, 4 édition, 2016.

Patton, M.Q.,Qualitative Evaluation andResearch Methods, Newbury Park: Sage, 1990.

Patton, M.Q.,Qualitative Research and Evaluation Methods, 3rd edition, Thousand Oaks, CA: Sage, 2002.

Piatt, J., «What Can Case Studies Do?», in R.G. Burgess (ed.),ConductingQualitative Research, Greenwich, CT: JAI Press, 1988.

Platt, J., «The History of the Interview», in J. Gabrium and J. Holstein (eds.), Handbook of Interview Research: Context and Method, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2002: pp. 49–51.`

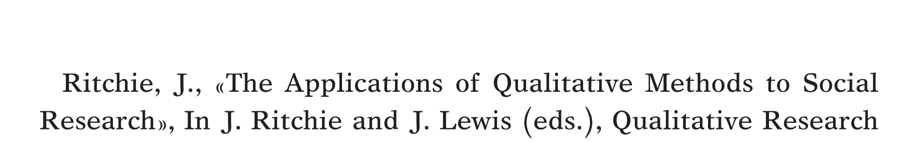
Pourtois, Desmet et Lahaye, 1996, extrait du Dictionnaire des méthodes qualitatives en sciences humaines, sous la direction d'Alex Mucchielli, Armand Colin, 2009.

Pramualratana, A., Havanon, N., and Knodel, J., «Exploring the Normative Basis for Age at Marriage in Thailand: An Example from Focus Group Research», Journal of Marriage and the Family, 1985: 203–210.

Ravitch, M. Sharon and Mittenfelner Carl, N. M., Qualitative Research. Bridging the Conceptual, Theoritical, and Methodological, Thousand Oaks, CA: 2016.

Ravitch, S. M., and Riggan, M., Reason and Rigor: How Conceptual Frameworks Guide Research,Thousand Oaks, CA: Sage, 2012.

Rist, R.C., «Influencing the Policy Process with Qualitative Research», inN.K. Denzin and Y.S. Lincoln (eds),Handbook of Qualitative Research,2nd edition, Thousand Oaks, CA: Sage, 2000.



Ritchie, J., «The Applications of Qualitative Methods to Social Research», In J. Ritchie and J. Lewis (eds.), Qualitative Research Practice. A Guide for Social Science Students and Researchers, Thousand Oaks, CA: Sage, 2003: 24–64.

Ritchie, J., Lewis, J. and Elam, G., «Designing and selecting samples», In J. Ritchie and J. Lewis (eds.), Qualitative Research Practice. A Guide for Social Science Students and Researchers, Thousand Oaks, CA: Sage, 2003: 77–108.

Ritchie, J., Lewis, J., Nicholls, C. M., and Ormston, R. (eds.), Qualitative ResearchPractice: A Guide forSocial Science Students and Researchers, (2nd ed.), London: Sage Publications, 2013.

Romney, A. K., Weller, S. C., and William H. Batchelder, W. H., «Culture as Consensus: A Theory of Culture and Informant Accuracy», American Anthropologist, 88(2), 1986: 313–338, p. 78.

Rubin, H. J. and Rubin, I. S., Qualitative Interviewing: The Art Og Hearing Data, Thousand Oaks, CA: Sage, 1995.

Saldaña, J., The Coding Manual for Qualitative Researchers, London, CA: Sage, 2009.

Sandberg, J., «Understanding Human Competence at Work: An Interpretative Approach», Academy of Management Journal, 43, 2000: 9–25.

Schaeffer, N. C. and Maynard, D.W., «Standardization and Interaction in SurveyInterviewing», in J. Gabrium and J. Holstein (eds.), Handbook of Interview Research: Context and Method, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2002: 577–601.

Schutz, A.,The Phenomenology of the Social World, Chicago: Northwestern University Press, 1967.



Schwandt, T. A., Qualitativeinquiry: A Dictionary of Terms,Thousand Oaks, CA: Sage, 1997.

Schwartz, M. S., and Schwartz, C. G., «Problems in Participant Observation»,AmericanJournal of Sociology, 60, 1955: 343–354.

Scriven, M., «The Methodology of Evaluation», in R.W. Tyler, R.M. Gagne andM. Scriven (eds),Perspectives on Curriculum Evaluation, Chicago: Rand McNally, 1967.

Seale, C.,The Quality of Qualitative Research, Oxford: Blackwell, 1999.

Seidman, I.,Interviewing as Qualitative Research: a Guide for Researchers in Education and the Social Sciences, 3th ed., New York and London: Teachers College Press, 2006.

Shaffir, W. B., and Stebbins, R. A. (Eds.)., Experiencing Fieldwork: An Inside View of Qualitative Research, Newbury Park, CA: Sage Publications, 1991.

Shaffir,W. B., Stebbins, R. A., and Turowetz, A. (Eds.), Fieldwork Experience: QualitativeApproaches to Social Research, New York, NY: St. Martin's Press, 1980.

Sharan, B. M., Qualitative Research. A Guide to Design and Implementation, San Fransisco: Jossey–Bass, 2009.

Silverman, D., Doing Qualitative Research: APractical Handbook, London: Sage, 2000.

Silverman, D.,Interpreting Qualitative Data. Method for Analysing Talk, Text, and Interaction, London: Sage Publications, 2001.

Snow, D. A., Morrill, C. and Anderson, L., «Elaborating Analytic Ethnography: Linking Fieldwork and Theory», Ethnography, 4, 2003: 181– 200.



Spradley, J. P.,Participant Observation,New York, Holt: Rinehart & Winston, 1980.

Spradley, J. P.,The Ethnographic Interview,New York: Holt, Rinehart, andWinston, 1979.

Stake, R., «The Case Study Method in Social Enquiry», Education Researcher,7, 1978: 5–8.

Stake, R.E., The Art of Case Study Research, London: Sage, 1995.

Steiner, G., «The Distribution of Discourse», In G. Steiner (ed.), On Difficulty andOther Essays, New York: Oxford University Press, 1978: 61–94.

Stewart, D.W. and Shamdasani, P.N., Focus groups: Theory and practice, Newbury Park, CA: Sage Publications, 1990.

Strauss, A. and Corbin, J. Basics of Qualitative Research: Grounded Theory Procedures and Techniques, Newbury Park, CA: Sage, 1990.

Strauss, A. and Corbin, J.,Basics of Qualitative Research: Techniques and Procedures for Developing Grounded Theory, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1990.

Strauss, A. Qualitative Analysis for Social Scientists, NewYork: Cambridge University Press, 1987.

Taylor, S.J., Bogdan, R. and DeVault, M.,Introduction to Qualitative Research Methods. A Guidebook and Resource, New Jersey: Wiley, 2016,pp. 54–100.

Tedlock, B., «Ethnography and Ethnographic Representation», inN. Denzin and Y. Lincoln (eds.),Handbook of Qualitative Research,op. cit., 455–486.

Thomson, B.S., Qualitative research: Grounded theory—Sample size and validity, 2004. http://www.buseco.monash.edu.au/research/studentdocs/mgt.pdf



Trimbur, L., ««Me and the Law is Not Friends» : How Former Prisoners Make Sense of Reentry», Qualitative Studies of Family and Community, 32, 2009: 259–277, pp. 236–264.

Tunnell, G. B., «Three Dimensions of Naturalness: An Expanded Definition of Field Research»,Psychological Bulletin, 84, 1977: 426–437.

Van den Hoonaard, D. K., and van den Hoonaard, W. C., «Data analysis», In L. Given (Ed.), TheSAGE Encyclopedia of Qualitative Research Methods, Thousand Oaks, CA: Sage, 2008: 186–188.

Vaughn, S., Schumm, J.S. and Sinagub, J.,Focus Group Interviews in Education and Psychology, Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 1996.

Veeck, G., «Talk is Cheap: Cultural and Linguistic Fluency During Field Research»,TheGeographical Review, ½, 2001: 34–40.

Wax, R., Doing Fieldwork: Warnings and Advice, Chicago and London: University of Chicago Press, 1971.

Weinstein, M., A Comparative Analysis of Youth Activism in Mainstream Political Parties andNew Social Movements in Britain, Unpublished PhD thesis, Nottingham Trent University, 2005.

Werner, O. and Schoepfler, G. M., Systematic Fieldwork: Ethnographic Analysis and Data Management, Vol. 2, Thousand Oaks, CA: Sage, 1987.

Westermarck, E., Histoire du mariage: la promiscuité primitive et la valeur de la virginité, t. I, traduit par Arnold van Gennep, Paris, Payot.

Willis, P., Learning to Labour, Farnborough: Saxon House, 1977.





Wilson, M. and Sapsford, R., «Asking Questions », in R. Sapsford and V. Jupp (eds.), Data Collection and Analysis, 2nd ed., Thousand, CA: Sage Publications, 2006: 93–123.

Winsor, D., «Constructing Scientific Knowledge in Gould and Lewontin's 'The Spandrels of San Marco'», In J. Selzer (ed.),Understanding Scientific Prose: 127–143, Madison: University of Wisconsin Press, 1993.

Wolcott, H., Transforming Qualitative Data: Description, Analysis, and Interpretation, Thousand Oaks, CA: Sage, 1994, pp. 23–24.

احجيج، حسن، التدبير العمومي الجديد: شركات الدولة بين قيم الخدمة العمومية وقيم المقاولة، الدار البيضاء، منشورات مدى، 2017.

















